١٧ رمضان

رواية تاريخية غرامية

هي الحلقة الرابعة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام

وهي تتضمن مقتل الامام علي وبسط

حال الخوارج وتتمة الفتنة

استئثار بني امية بالخلافة وخروجها

من اهل البيت

تأليف

جرجي زيدان

منشيء الهلال

نشرت ملحقة بالسنة الثامنة من الهلال



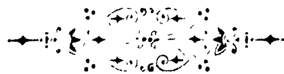
(طبعت بمطبعة الهلال بالفجالة بمصر سنة ١٩٠٠)



مقدمة

فرغنا والحمد لله من الحلقة الرابعة لسلسلة روايات الاسلام وفيها تفصيل خبر المؤامرة المشهورة على قتل الثلاثة العظام الامام علي بن ابي طالب ومعاوية بن ابي سفيان وعمرو بن العاص في السنة الاربعين للهجرة وتفصيل مقتل الامام علي مع ما رافق ذلك من الحوادث التي تبين حال الخوارج وانقسام العالم الاسلامي واشتداد الفتن الى تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية بن ابي سفيان اول خلفاء بني امية

وسنتبع رواية « ١٧ رمضان » هذه برواية اخرى هي الحلقة الخامسة من السلسلة المذكورة نبسط فيها مقتل الامام الحسين وما يتقدمه ويتبعه من الفتن والحروب وسندعوها « غادة كربلاء » نسبة الى المكان الذي قتل فيه الحسين · وننشرها ملحقة بالسنة التاسعة من الهلال · ونسأل الله ان يوفقنا الى تمام هذه الخدمة وهو حسبنا ونعم الوكيل



الفصل الاول

﴿ الخوارج ﴾

الخوارج جماعة من رجال الامام علي نقموا عليهِ لانهُ قبل بالتحكيم على اثر واقعة صفين (راجع عذراء قريش) وكانوا قبل ذلك في مقدمة الذين حرضوه على قبولهِ . لكنهم لما رأوا التحكيم آل الى الحكم بخروج الخلافة منهُ الى معاوية بن ابي سفيان نقضوا بيعتهُ وتبذواطا عتهُ وطمعوا في السلطة لانفسهم فبايعوا واحداً منهم اسمهُ عبد الله بن وهب حاربوا تحت رايتهِ زمناً

ولما صدر حكم الحكمين بخلع علي وتثبيت معاوية اشتد ازر معاوية وبويع بالخلافة في الشام . وكان الخوارج لا يزالون في بدء امرهم فاخذ عليٌّ يتجهز لحرب معاوية . وفيما هو يتجهز جاءه الخبر بتألب الخوارج وتمردهم فنصح لهم وجادلهم وبيَّن لهم انهُ لم يخطئ بقبول التحكيم وانهُ لم يقبلهُ الا اجابة لطلبهم فلم يرتدعوا . فرأى ان يستأصل شأفتهم قبل خروجه الى معاوية . فحاربهم في مواقع عديدة اشهرها واقعة النهروان وراء دجلة بالقرب من مكان بغداد انتصر فيها عليهم نصراً مبيناً وشتت شملهم تشتيتاً ولكنهم ما زالوا يجتمعون سرًّا

وفي سنة ٣٨ هـ فتح عمرو بن العاص مصر وقتل محمد بن ابي بكر عاملها وتولاَّها باسم معاوية فاصبح معاوية خليفة في مصر والشام ومقامهُ دمشق . وبقي علي في العراق والجزيرة والحجاز واليمن ومقامهُ الكوفة .

واخذ معاوية يبعث سراياه الى بلاد الامام علي يلتمس افتتاحها للاستقلال بالخلافة . فانفذ جنداً الى مكة وآخر الى اليمن وآخر الى الجزيرة يحاربون ويناوئون ولكنهم لم يبلغوا ارباً . فدخلت سنة اربعين للهجرة وعليٌّ يتأهب للخروج على معاوية وقد بايعهُ اربعون الفاً من عسكره على الموت . وفي ما هو في ذلك فاجأه القدر فمات مقتولاً كما سترى تفصيل ذلك في ما يلي



الفصل الثاني

﴾ الكوفة عاصمة الامام علي ﴿

هي مدينة اسلامية مصَّرها سعد بن ابي وقاص احد كبار الصحابة في السنة السابعة عشرة للهجرة على عهد الخليفة عمر بن الخطاب بعد ان فتح العراق وقد اشار عليهِ عمر ان يقيم في مكان لا يحول بينهُ وبين المدينة بحر ولا جسر حتى اذا اراد ان يقدم اليهِ على راحلتهِ قدم [1] فبنى الكوفة في غربي الفرات على شاطئ بحيرة كانت هناك بقرب مكان الحيرة بينها وبين الفرات بضعة وعشرون ميلاً

وكان بناؤها في اول امرها بالقصب فاصابها حريق فاستأذنوا الخليفة عمر في بنائها باللبن فقال « افعلوا ولا يزيدنَّ احدكم على ثلاثة ابيات ولا تطاولوا في البنيان والزموا السنَّة يلزمكم الدولة » ففعلوا ذلك وجعلوا طرقها نوعين المناهج والازقة وجعلوا عرض المنهج عشرين ذراعاً وعرض الرقاق سبعة اذرع . وما بين المناهج اماكن البناء اربعون ذراعا . والقطائع ستون ذراعاً . واوَّل شيء خطوه فيها المسجد . فوقف في وسط المدينة رجلٌ شديد النزع رمى الى كل جهة بسهمٍ وامروا ان يبنى ما وراء ذلك . واما الساحة حول ذلك الرامي الى مرمى سهامهِ فتبقى للمسجد

وبنوا في مقدمة المسجد ظلة او رواقاً اقاموه على اساطين رخام من بناء الاكاسرة نقلوها من اخربة الحيرة . وجعلوا على الصحن خندقاً لئلاَّ يقتحمهُ احد ببنيان وبنوا لسعد بن ابي وقاص قصراً بجانب المسجد نقلوا حجارتهُ من آجر بنيان الاكاسرة وسموه قصر سعد [1]

وما زالت الكوفة تعمر حتى اتخذها الامام علي مقرًّا لهُ بعد واقعة الجمل سنة ٣٦ ه فازدادت عمارتها بما تقاطر اليها من الناس بعد ان صارت عاصمة الخلافة وتكاثرت فيها الابنية وعمرت الاسواق وانشئت حولها الحدائق والبساتين مما يلي بحيرتها

---

(١) ابن الاثير ج ٣

الفصل الثالث

﴿ غادة الكوفة ﴾

وكان في ضاحية الكوفة على شاطئ البحيرة حديقة من نخيل حولها سور من جذوع النخل يحيط بالحديقة الاّ من جهة البحيرة · وفي وسط الحديقة بيت مبني من اللبن يدلُّ شكلهُ على ان سكانهُ من اهل اليسار وقد يخيل لك اذا دخلت الحديقة انهُ مسكن بعض الامراء ذوي الخدم والحشم لما ترى بين نخيلهِ من آثار المعالف والاوتاد والسلاسل والقيود · وترى جذوع بعض النخيل قد تأكَّلت من شد الامراس اليها على توالي الايام او من تعهد الافراس بقشيرها باسنانها وهي مشدودة اليها

وكان الوقت ليلاً في اوائل السنة الاربعين للهجرة في زمن الخريف (١) وقد نضج الثمر على نخلهِ وليس من يقطفهُ فتساقط بعضهُ على الارض وليس من يلتقطهُ · وكان القمر بدرًا وقد اطلَّ من وراء الآكام فارسل اظلال النخيل مستطيلة متقاطعة · والجو هادئ والسكوت سائدٌ لبعد المكان عن المدينة وضوضائها فلا تسمع غير نقيق الضفادع على شاطئ تلك البحيرة يتخللهُ صرير الصراصير وقرقرة القر · وربما هبَّ النسيم فاسمعك حفيف سعف النخل هنيهة ثم انقطع · ولقد تعجب لوحشة ذلك المكان مع ما تراهُ فيهِ من آثار الانس ودلائل الابهة

ولو دخلت المنزل لرأيتهُ عبارة عن دار وثلاث غرف مستطرقة بعضها الى بعض مفروشة ارضها بحصر من سعف النخل فوقها جلود الماعز الاَّ غرفة في ارضها طنفسة جميلة عليها وسائد من الخز · وفي بعض جوانب الغرفة مصباح ضعيف النور · وعلى احدى تلك الوسائد فتاة في مقتبل العمر اشرق وجهها بماء الشباب · وقد حلت شعرها الاسود فارسلتهُ على كتفيها فحجب بعض جبينها وغطى عذاريها فحجب قرطيها وسالفيها ولكنهُ زاد عينيها كحلاً واشراقًا · ترى تينك العينين الدعجاوين البراقتين قد غشيهما الدمع واخذ يتحدر على وجنتين محمرتين بينهما انف دقيق مستقيم تحتهُ فم صغير · فاذا زاد انسكاب الدمع استلقتهُ باطراف جدائلها او باحد كميها · وكانت

---

(١) التقويم العام

لابسة جلباباً اسود حداداً على فقيديها · ولم يزدها ذلك الحداد الاَّ جمالاً وفتنة · وكأَن تلك الغادة استأنست بوحدتها فاطلقت لنفسها عنان البكاء حيث لا رقيب ولا عدو فاخذت تلطم خديها وتندب فقيدين عزيزين قتلا في يوم واحد

تلك هي قطام بنت شحنة بن عدي[1] من قبيلة تيم الرباب · تلك هي فتاة الكوفة الفتانة التي ذاع صيتها في الآفاق وسمع بجمالها القاصي والداني حتى اصبحت فتنة الكوفيين ومضرب امثالهم · وقد شخصت اليها الابصار وحامت حولها القلوب فباتت معجبة بجمالها لا تعرف هماً ولم تذق غماً حتى بليت بقتل والدها واخيها معاً

قتل والدها واخوها في واقعة النهروان[2] وكانا من جملة الخوارج الذين نقموا على علي لقبوله بالتحكيم فانضموا الى من نقض بيعته وحاربوا في جملة من حاربهُ

وكانت قطام ثابتة الجاش شديدة الانتقام ذات حيلة ودهاء ما انفكت منذ قتل والدها واخوها وهي تندبهما وتلمس الانتقام لهما ولكنها لم تكن تستطيع المجاهرة بذلك والكوفة مقرُّ الامام علي ومجتمع انصاره وشيعتهِ · فاقامت في منزلها هذا في ضاحية الكوفة وحيدة ليس معها سوى عبد كهل ربي في اهلها منذ صباه · فلما ابيت بمصيبتها هجرها سائر الخدم والاعوان الاَّ هذا · وكانت ترتاح الى بث شكواها لهُ وهو يخفف عنها ويعدها بنيل المرام

وكانت قد انفذتهُ في اصيل ذلك اليوم يستقدم لها عجوزاً من مولّدات الكوفة كانت قد ربيت بين ذراعيها منذ نعومة اظفارها وهي تحنُّ اليها حنين الوالدة · فطال غيابهُ وسدل الليل نقابهُ ولم يعد · فانشغل خاطرها وشغلت عن احزانها بالهواجس لانفرادها في ذلك المكان · ولكنها كانت اذا سكتت هنيهة تذكرت والدها واخاها ومن كان يقيم في تلك الدار من الخدم والعبيد فتعود الى البكاء والنحيب

الفصل الرابع

﴿ العجوز لبابة ﴾

وفيما هي في ذلك سمعت وقع اقدام مسرعة عرفت انها خطوات عبدها ريحان

---

(١) الخميس ج ٢ (٢) ابن الاثير ج ١

فاجفلت ولكنها استأنست بهِ فوقفت واسرعت لاستقباله . وكان ريحان طويل القامة شديد السواد خفيف العضل سريع الحركة جاحظ العينين افطس الانف عظيم الوجنتين بارز الاسنان ويزيدها بروزًا تدلي شفتهِ السفلى وانحسار شفتهِ العليا وكان يستهلك في خدمة سيدتهِ فابتدرها بالسلام . فقالت وما الذي اخرك يا ريحان وانت تعلم اني وحيدة هنا . اين هي لبابة

قال انها قادمة سريعًا

قالت وما سبب غيابك حتى الآن

قال كنت في انتظارها وهي تخاطب شاباً وتجادلهُ . . . .

قالت واي شاب

قال . لا ادري . . . ها قد أتت وهي تقص عليك الخبر مفصلاً

وما اتمَّ كلامهُ حتى دخلت العجوز تتوكأ على عكازها وقد احدودب ظهرها واحناها الكبر فزادها قصرًا ولكنها ما زالت سريعة الحركة شديدة العصب وكانت عمشاء العينين غائرة الفم لخلو فكيها من الاسنان مجعدة الخدين غائرتهما . فتقدمت الى قطام وقد غطت شعرها الشائب بنقاب اسود يكاد يجر وراءها لطولهِ وقصرها . وحالما دنت منها قبلتها واخذت تخفف عنها وتقول لا بأس عليك يا ابنتي اعذريني لابطائي في الحضور

فلم تزدد الفتاة الاَّ بكاء وهي تقول ما الذي يشغلك عني يا خالة وانت تعلمين ان ليس لي معزٍّ في احزاني سواكِ

قالت هوّني عليك يا قطام واستريحي فقد جئتك بالفرج باذن الله

قالت من اين يأتيني الفرج ولا يفرج كربتي الاَّ الانتقام . . . الانتقام . قالت ذلك وحرقت باسنانها وهي تتشاغل بجمع شعرها وارساله الى وراء ظهرها . ثم مسحت عينيها بكمها الطويل وارسلتهُ الى كتفها فبانت اساورها ودمالجها حول معصمها الممتلئ ونظرت الى العجوز كأنها تسألها الايضاح

فضحكت العجوز وهي تنظر اليها وكأنها تذكرت امرًا محزنًا فقطعت ضحكتها بغتة فاستاءت قطام من ضحكها وهي تبكي وقالت ما بالك تضحكين العلك تهزأين بكلامي : اني والله غير قانعة بغير الانتقام

فأمسكتها العجوز بيدها واقعدتها على الوسادة وجلست الى جانبها ونظرت الى ريحان نظرة فهمَ منها انها تلتمس خروجهُ لتخلو بقطام . فخرج

فلبثت قطام صامتة تنتظر ما تقولهُ العجوز . فاذا هي قد تنحنحت كأنها تتهيأ لحديث طويل ثم قالت وماذا تريدين الآن يا قطام ؟

قالت اريد الانتقام لوالدي واخي فقد قتلهما عليٌّ ظلمًا ولا بد من الانتقام

قالت العجوز ما قولك اذا دبَّرت لك من ينتقم عنك ؟

قالت ومن ينتقم . قولي . .

قالت طوِّلي بالك ولا تكوني لجوجة . . . اتعرفين سعيدًا

قالت واي سعيد

قالت سعيد الاموي الشاب الجميل الذي يحبك ويهواكِ

قالت دعينا من الحب والغرام وحدثيني عن الانتقام

قالت يا سبحان الله اجيبي على سؤَالي . هل تعرفين هذا الشاب فانهُ مغرم بك مفتون بسواد عينيك

قالت نعم اعرفهُ وما تفيدني معرفتهُ . بالله عليك لاتذكري الغرام الآن . اني لا اشعر بعاطفة الحب ولا يهمني احبني الناس او ابغضوني

فابتسمت العجوز ابتسامة الاستخفاف وقالت يا للعجب ما اكثر لجاجتك . . . قلتِ انك تعرفين سعيدًا فهل تحبينهُ

فأَجابت على الفور لا لا . . لا احبهُ ولا احب سواه . . ان قلبي لايشتغل اليوم الاَّ بالبغض . اني ابغض بعض الناس ولا احب احدًا

قالت ولكن اذا كان لا بد من الانتقام فيجب ان تحبي سعيدًا

قالت كيف احبهُ وقلبي لم يبق فيهِ مكان لغير البغض والحقد اني حاقدة ناقمة

قالت انا اعلم ذلك ولكن أحبي سعيدًا ولو موقتًا وهو ينتقم لك

فبغتت قطام ونظرت الى العجوز وجعلت تتفرس في سحنتها لتتحقق انها تتكلم الجد فلما آنست الجد في لهجتها قالت وهل تقولين حقًّا هل يقدر هذا الرجل على ركوب هذا المركب الخشن . .

قالت اني اجعلهُ بركبهُ فاذا لم يكن اهلاً لهُ فهو ليس اهلاً لحبك . . ما رأيك؟

فصمتت هنيهة ثم قالت . أأُحبهُ . نعم احبهُ ولو الى أجل قريب . . . ولكنني لا اظنهُ اهلاً لهذا العمل بل لا احسبهُ يقدم عليهِ . ولكن قولي لي العلك تتكلمين من عند نفسك ام انت على يقين مما تقولينهُ

فاعتدلت تلك العجوز المحتالة في مجلسها ونظرت الى قطام نظر الاهتمام وقالت اعلمي يا حبيبتي ان سعيدًا هذا قد علق بك واحبك منذ اعوام ولكنهُ لم يكن يجسر على مخاطبة المرحوم والدك بشأْنك لان والدك كان يومئذ في جملة القائمين بنصرة علي . وسعيد كما تعلمين امويٌّ اي انهُ ممن نقموا على علي وقاموا للمطالبة بدم عثمان . فكان يعلم انهُ اذا طلبك من والدك يومئذ لا ينال غير الفشل . اما بعد ان خرج والدك رحمهُ الله من طاعة علي في جملة من خرج بعد التحكيم حدثتهُ نفسهُ ان يطالبك فخاطبني في شأْنك مرارًا . ولكن والدك كان مشغولاً بمحاربة علي وشيعتهِ فلم اتمكن من التوسط لهُ . فلما علم بمقتلهِ ومقتل اخيك واسفاهُ عليهما (وتنهدت وهي تتظاهر بمسح دموعها) عاد الى مخاطبتي في ذلك . وقد كنت ادافعهُ لعلمي بحزنك الشديد وهو مع ذلك ما زال يتردد عليَّ ويستنهضني ويبذل كل مرتخص وغال في سبيل التمتع بهذا الوجه الجميل . فجاءني اليوم واعاد الكرة وبالغ في التذلل والاستعطاف فلمَّحت لهُ انهُ اذا اصرَّ على نيلك لا بد لهُ من الانتقام لوالدك . فآنستُ منهُ ارتياحاً فاطلت الكلام معهُ وريحان في انتظاري خارجًا وهذا هو سبب تغيبي عنك . فما قولك ؟

فلما سمعت قطام كلامها استبشرت بنيل مرامها فقالت « وهل تظنين انهُ يعدني وعدًا شافيًا بالانتقام . . هل يتعهد لي بقتل علي بن ابى طالب . اني لا اقبل باقل من ذلك »

قالت « أَظنهُ يقبل ومع ذلك فاني استقدمهُ اليك ونظرًا لما اعهده من مهارتك في اساليب السياسة لا اشك في انهُ يتعهد لك بكل ما تريدينهُ وخصوصاً اذا اظهرت لهُ ميلاً وقلت لهُ انك تحبينهُ وتفننت في طرق الدلال والتمنع واشترطتِ عليهِ انكِ لا تتزوجين الاَّ بعد قتل عليّ . فاذا عاهدك صبرتِ حتى يقتلهُ فاذا لم يفعل واصاب حتفهُ كان دمهُ على رأْسهِ والسلام . . . ابه ؟ »

فاشرق وجهُ قطام واحسَّت بارتياح الى هذا الرأي وقالت « لا ريب عندي

اني احملهُ على التعهد ... فاستقدميهِ لنرى ما يكون . ولكن قولي لهُ اني لم اقبل بعد وبالغي بتمنعي واباءي وانا اتم الحيلة »

فضحكت العجوز ضحكة طويلة وقالت « سامحك الله يا قطام ألا تزالين تحسبينني فتاة مثلك وهل تجهلين ابن قضيت هذه الشيبة ... الا تعلمين اني قضيت عمري في مثل هذه الحوادث . فكم ازوجت من الرجال وكم اقنعت من النساء في الزواج بعد ان كان قبولهنَّ ضرباً من المحال ... لا تخافي عليَّ .. ولا انا اخاف عليك » قالت ذلك ونادت ريحان فاسرع اليها . فقالت لهُ هل تعرف الشاب الذي كان عندي الليلة

قال نعم اعرفهُ

قالت سر اليهِ انهُ لا يزال في المنزل حيث رأيتنا الليلة وقل لهُ ان خالتك لبابة تدعوك اليها

قال واذا ابى الحضور ماذا اقول لهُ

قالت لا اخالهُ الاَّ سابقك في الطريق اذهب وادعهُ اليَّ حالاً

قال سمعاً وطاعة وخرج

الفصل الخامس

سعيد

وكان سعيد شاباً امويّاً في حوالي الثلاثين من عمره توفي والدهُ وهو طفل فكفلهُ جدهُ وقضى صباه وشبابهُ مع جده في منزل الخليفة عثمان وكانا شديدي التعلق بهِ . فلما قتل عثمان كان سعيد وجده في مقدمة الناقمين لعثمان والمطالبين بدمهِ . فلما كانت واقعة الجمل بجوار البصرة كان هو في جملة رجال ام المؤمنين وظلَّ جدهُ مقيماً في مكة لشيخوخته . ولما قتل جند ام المؤمنين وعادت هي الى مكة عاد هو معها وظلّ عند جده ولم يخرج لواقعة صفين

ولكنهُ كان يتردد الى الكوفة وكان يسمع بقطام هذه وجمالها وقد رآها مراراً تحت الخمار فوقعت من نفسهِ موقعاً عظيماً ولكنهُ لم يجسر على خطبتها لان والدها كان

قبل تحكيم الحكمين من شيعة الامام علي فكيف بزوج ابنة لاموي يطالب بدم عثمان · فلما خرج الخوارج عن طاعة الامام علي بعد التحكيم استبشر بنيل مرامهِ على انهُ لم يتمكن من السعي في طلبها الاَّ بعد مقتل والدها واخيها · فجاء لباة العجوز كما تقدم فاستخدمت هذه العجوز كل دهائها في اغرائهِ على قتل عليٍّ وتركت بقية الحيلة لقطام لعلمها انها لا تقلُّ عنها دهاء ومكرًا

وكان سعيد حسن الطوية قليل الاختبار وخصوصًا في ما يتعلق بدهاء اولئك العجائز · وكان جميل الصورة معجبًا بجمالهِ وكان الحب قد اعمى بصيرتهُ فلم يعد يرى غير قطام ولم يحلم الاَّ بالحصول عليها وهو لا يصدق انها ترضى بهِ · فلما جاء العجوز في تلك الليلة وخاطبها بشأنها واظهرت ما اظهرتهُ من التمنع ازداد رغبةً فيها وبذل كل ما في وسعهِ من الوعود في سبيل ارضائها وبذل للعجوز كل ما يرضيها من المال والحلي فوعدتهُ ان تسعى في ترغيبها ومضت وتركتهُ يتقلب على جمر الانتظار

فلما جاءهُ العبد يستدعيهِ اليها خفق قلبهُ وهرول مسرعًا وهو يتعثر باذيالهِ فمرَّ في اسواق الكوفة وهو لا يرى شيئًا من الاسواق ولا ناسها لاشتغال بالهِ بما سيلاقيهِ من البغتة عند اجتماعهِ بقطام منى قلبهِ وغاية مرامهِ فكان اذا تصوَّر رضاءها اشرق وجههُ وكاد يطير فرحًا · فيعترض تصوُّره ما آنسهُ من المنع عند مخاطبتهِ العجوز وما بدر منهُ من الوعد بالانتقام فتنقبض نفسهُ ويضطرب لهول ذلك العمل · ولكن هيامهُ كان يهون عليهِ كل عسير ويصوّر المحال ممكنًا · فخيل لهُ ان قطامًا اذا رأت جمالهُ وتحققت ما هو فيهِ من الوجد لا تلبث ان تقع في هواه وتغضي عن امر الانتقام

في مثل ذلك قضى سعيد طريقهُ وريحان يخطو امامهُ خطواتهِ المتباعدة لطول ساقيهِ ويحاول الابطاء في مسيرهِ لئلاَّ يسبق رفيقهُ فلا ينتبه الاَّ وقد تجاوزهُ فيمشي الهوينا الى موازاتهِ وسعيد لا يفقهُ لشيء من ذلك · وخرجا من المدينة فآنسا سكونًا لا يسمع فيهِ الاَّ صوت الحصى اذا عثرا ببعضٍ منها لان الكوفة كثيرة الحصى والرمال(١) حتى وصلا باب البستان ودخلا بين النخيل · فقال العبد امهلني يا مولاي ريثما افتقد اهل المنزل ثم اعود اليك

فظل سعيد يتمشى بين النخيل يتشاغل برؤية اظلالها مع ما يسمعهُ من نقيق الضفادع

---

(١) ابن الاثير ج ٣

على شاطئ البحيرة وأخذ يهيئ نفسهُ لمقابلة قطام فاصلح عمامتهُ ومشط شاربيهِ ولحيتهُ ونفض جبتهُ واصلحها ولبث في انتظار العبد فأبطأ عليهِ فانشغل خاطرهُ وحدثتهُ نفسهُ بالاستئذان والدخول الى الدار . وفيما هو يهمُّ بذلك سمع حركة ومشياً وبعد هنيهة بان لهُ نورٌ عند الباب وسمع ريحان يناديهِ فهرول وقلبهُ يخفق وركبتاه ترتعشان رعشة الحب والبغتة . فعثرت رجلهُ بحبل من الياف النخيل كان مشدوداً في جزع بعض النخيل حتى كاد يقع ولكنهُ تجاهل عن ذلك وتقدم الى باب الدار فاستقبلتهُ لبابة مرحبة ومشت امامهُ وريحان يتقدمها بالمصباح . فدخلت بهِ الغرفة التي كانت قطام فيها ودعتهُ للجلوس على وسادة وجلست هي على وسادة وترك ريحان المصباح هناك وخرج

وكان سعيد يتوقع ان يرى قطاماً هناك فلم يرَها فانشغل بالهُ وزاد انشغالهُ لسكوت لبابة عن الحديث وجمودها . فقال مالي اراكِ ساكتة يا خالة الم ترسلي اليَّ بالمجيء

قالت بلى

قال وابن قطام

فتنهدت وقالت هي هنا في الغرفة الاخرى وستذهب اليها بعد قليل

قال اراكِ في قلق ... ما الذي جرى ... قولي

قالت لم يجر شيء ... وتظاهرت كأنها تكتم خبراً

فقال وكيف . مالي اراك كئيبة اخبريني لقد نفد صبري

قالت لا ينشغل خاطرك يا ولدي اذ ليس هناك ما يدعو الى القلق . غير اني مللت من استعطاف هذه الفتاة وترغيبها وتشويقها فلم أرَ منها الاَّ البكاء والنحيب ولم اسمع الاَّ قولها « الانتقام الانتقام » ومن يخاطبها بغير هذا الموضوع لا يسمع منها جواباً

قال الم تذكري لها شيئاً من حديثي معك

قالت « كيف لا وهي لولم اذكر لها اسمك مشفوعاً بوعدك بالانتقام لما اجابتني » ثم ادنت فمها من اذنهِ وقالت « ولكنني آنست من خلال ذلك التمنُّع انها ترتاح الى ذكر اسمك واظنها تحبك كثيراً ولكن انشغالها في الانتقام شغلها عن الحب ولذلك فقد سرَّت لما اخبرتها بوعدك ولكنها لم تصدق قولي كأنها تحسبني اقول مزاحاً او لعلها

استبعدت ذلك منك او خافت عدولك عنهُ لجهلها ما انت مفطور عليهِ من الحمية وكرم الاخلاق » قالت العجوز ذلك بنغمة تدل على ثقتها التامة بشرف نفس سعيد وصدق وعده · ثم شغلت نفسها بالنحنحة والسعال ومسح آماقها مما يتحلب فيها من الدمع المتواصل لضعف الشيخوخة وصبرت لترى ما يبدو منهُ قبل اتمام الحديث · اما هو فأثر قولها فيهِ وهاج ما في قلبهِ فقال لها « لا الوم قطاماً لانها لا تعرفني بعد فهي معذورة اذا ساءت الظن بي · · · ولكن اين هي اريني اياها فأؤكد لها وعدي فتعلم من هو سعيد · · · » قالت هي هنا

الفصل السادس

اللقاء

وحملت لبابة المصباح بيدها ومشت امام سعيد الى غرفة اخرى ليس في ارضها الاَّ حصيرٌ فوقهُ بعض جلود الماعز وقطام جالسة الاربعاء وهي تبكي وشعرها محلول · فلما رأت النور يقترب من غرفتها اسرعت فضمت شعرها وارسلتهُ الى ظهرها وغطت رأسها بنقاب اسود · ولم تكد تفعل ذلك حتى دخلت العجوز وهي تقول « خففي عنك يا قطام وارفقي بنفسك واشفقي على شبابك لقد كفاك بكاء ونحيباً · انهضي فسلمي على سعيد الذي قلت لك انهُ يحبك »

فقطعت قطام كلامها قائلة « كم قلت لك لا تذكري الحب والغرام بل اذكري القتل والانتقام · اني لا احب الاَّ الانتقام ومن ينتقم لي فهو خليق بان يحبني ولكن · · ·

فتقدم سعيد وقد اصبح بعد رؤية قطام في تلك الحال لا يرى شيئاً غيرها ولا يبغي الاَّ رضاها فشق عليهِ قولها « ولكن » لما ينطوي عليهِ من الاستدراك الذي يجل نفسهُ عنهُ · فقال لها « ألا ترضين يا قطام ان اكون انا المنتقم لك · · · »

قالت وهي تتظاهر بعدم الاكتراث « لا · · · لا ارضى ان تعرض نفسك لهذا الامر من اجلي فاني اولى منك بركوب هذا المركب الخشن » ثم رفعت يدها واشارت ببنانها الى صدرها وقالت بصوت تخللهُ غصة البكاء « انا اقتل قتلة ابي واخي بيدي · · · انا اقتلهم · انا اقتل علياً وان كنت فتاة · ان حب الانتقام يقويني ويشجعني

... ولا حاجة بي الى تعريض سواي لخطر القتل ... انك شاب لا يهمك من امر علي شيء فكيف تتكلف قتله عبثاً ... ذلك لا يكون »

فانخدع سعيد بكلامها وحسبه صادرًا عن شهامة وغيرة حقيقيتين فازداد رغبة في الاقدام على ذلك العمل . فقال لها « كيف تقدمين يا مليحة على هذا الامر وانا بين يديك . العلك لا ترين فيَّ الكفاءة . كيف تقولين انه لا يهمني من امر علي شيء وانت تعلمين ان بني امية كافة يطالبونه بدم عثمان وانا منهم واذا قتلته فاني ارضي كل بني امية فضلاً عن ارضاء قطام ... ان بذل النفس في سبيل ارضائها هين ... واذا اذنت لي ان ادعوك حبيبتي فكل شيء يهون عليَّ ... »

فلما تحققت قطام وقوعه في الشراك بقي عليها ان تتمكن من وعده بصك تستكتبه اياه فامسكت نقابها بيدها وتظاهرت باصلاحه فانكشف معصمها فرأى الاساور والدمالج وبانت عيناها وقد ذبلتا من البكاء فازدادتا جمالاً ورنت اليه شذرًا وتأملته كأنها تزن مقدرته على ما وعد به . اما هو فلا تسل عن حاله بعد تلك النظرة فثارت عواطفه ونظر الى العجوز كأنه يحرضها على التوسط في الامر . فتظاهرت لبابة بانها تساعده في غرضه وقالت لها « ألم يكفك ما قاله هذا الشهم ألم اقل لك ان وعده صادق وفضلاً عن ارضائك بقتل علي فهو يرضي عشيرته واهله ايضاً . واعلمي يا قطام انه لا بد من رجل يقتل هذا الخليفة ومن يسبق الى قتله فانه صاحب النصيب الاوفر والاجر الاعظم »

فقطعت قطام كلام العجوز قائلة « انا اعلم انه مقتول لا محالة واذا لم يبق من الرجال من يفعل ذلك فعلته انا بيدي انظري الى هذه الحلى في معصميَّ واذني اني لم انزعها ليس لاني لم احزن على والدي وأخي ... آه رحمهما الله ... بل لاني واثقة من الانتقام لهما وكأني احسب ثأري حاصلاً في قبضة يدي ومتى أخذت بالثار فقد احييت القتيلين فكيف احزن .... اما ما قاله سعيد فهو فضل منه ولكن الانسان يا خالة عرضة للتردد فلعل سعيدا اذا خرج من عندنا يرى رأياً آخر او يتهيب من هذا الامر فيعدل عن الوعد . فانا لا اريد ان اقيده في عهد ارى في نغمة كلامه ما يدل على خوفه منه ... لا اقول انه يخاف وقتل هذا الخليفة من اهون الامور . ولكنني لا ارى ان اكلفه وعداً اذا خلا بنفسه ربما ندم عليه ... »

الفصل السابع

﴿ الصك ﴾

فهمّ سعيد بالتكلم ليؤكد لها صدق وعده فاوقفته العجوز عن الكلام وتظاهرت بالدفاع عنهُ وقالت « اسمحي لي يا قطام بكلمة اقولها لك . انت لا تعرفين سعيداً بعد ولكنني اعرفهُ واعرف صدقهُ وانا اقول لك بالنيابة عنهُ هل تريدين ان يكتب لك صكاً على نفسهِ انهُ يفعل كل ما قالهُ لك »

فلما سمع سعيد ذكر الصك تهيَّب وعظم الامر عليهِ وكأَنهُ صحا من سكرتهِ لحظة تبيَّن فيها خطارة ذلك الامر ثم عاد الى سكرة الغرام وزاده تثبتًا في ذلك ما سمعهُ من كلام العجوز الدال على ثقتها بهِ وبوعدهِ

اما قطام فكانت تنظر الى كل حركة تبدو من سعيد فلم يفتها ما جال في خاطرهِ ساعتئذٍ من الندم وهو يحاول التظاهر بخلاف ذلك . فلكي تحملهُ على كتابة الصك من تلقاء نفسهِ قالت للعجوز « اراكِ اقحمتِ نفسك نائبة عنهُ في امر لا تصحُّ النيابة فيهِ وهو غير راضٍ بهِ وفي سكوتهِ اكبر دليل على ذلك . فدعينا من هذا الموضوع ولا تعرضي سعيدًا لهذا الخطر وانت تعلمين ما قلتهُ لك عنهُ وما لهُ من المنزلة في قلبي وان اكن قلما رأيتهُ فافضّل ان اعرض نفسي للخطر ولا اعرضهُ »

فعظم ذلك القول على سعيد وثارت الحمية في راسهِ فنهض بغتة وقال لها اتحسبين سكوتي يا قطام عن تردد او خوف ... لا وحقّك . ما انا ممن يضنون بالنفس في سبيل الحب وكيف تقولين انك تعلمين ذلك مني .. وربما ترددتُ في بادئ الرأي . واما بعد ان علمت بما عندك نحوي فاني اكتب الصك ولا ارضى الاَّ بكتابتهِ .. هاتوا رقّ ومدادًا » فنهضت العجوز حالاً لاستحضار الرق والمداد والقلم وكانت قد اعدّت كل شيء قبل مجيئهِ

فاغتنم سعيد غيابها وازاح مقعده واصلحهُ بحيث يواجه قطامًا . اما هي فنظرت اليهِ وابتسمت وقالت بصوت تتخللهُ نغمة الدلال « لا تعرض نفسك للقتل يا حبيبي وما لنا وللصكوك ألا يكفينا القول »

فما صدق سعيد ان آنس منها هذا التقرب وسمع قولها « حبيبي » فجعل يبالغ في حبه وغرامه واستهلاكه في سبيلها وطابت له تلك الخلوة القصيرة فتبادلا فيها من عواطف الحب ما لا تفي بشرحه المجلدات وسعيد يحسب نفسهُ اسعد انسان على وجه الارض لحصوله على حب قطام · وهي انما همها من كل ما جرى اغراؤه على قتل علي وقد اضمرت في باطن سرّها انهُ اذا انتقم لها تزوجتهُ وان تكن غير مغرمة به · واذا فشل في مهمته فلا اسف عليه وقُتل · فاذا كتب الصك لا يجسر على الرجوع عن وعده

وادركت العجوز ان في ابطائها وسيلة لتبادل الاشارات واللحظات وزيادة التمكن من الاغراء فابطأت لغير داعٍ ثم عادت وبيدها رق من جلد الماعز وقلم من القصب وقرن ايل فيه مداد اسود · فلما رآها سعيد وتحقق كتابة الصك عاودهُ الخوف وحدثتهُ نفسهُ بالرجوع عن الوعد ولكن الحياء والحب منعاهُ · ولم يخف تردده عن قطام فتلافت ذلك بابتسامة ونظرة وهو يرنو اليها ويقول في نفسه « ما أسعد هذا اللقاء وما اجمل هذا الحبيب لولا ما اشترطهُ من العقبات » ولم تترك لهُ قطام فرصة يفتكر فيها فقالت للعجوز « لمن اتيتِ بهذه الادوات يا خالة »

قالت أتيت بها الى سعيد

قالت « اترجين منهُ ان يكتب الصك لا لا اظنهُ يكتبهُ (وابتسمت وهي ترنو اليه شذرًا) وكأني به ندم على ما فرط منهُ لا عن جبن او خوف لا سمح الله ولكنهُ رأى قطامًا لا تستحق هذه العناية واراه يقول في باطن سره (أمن أجل امرأة مثل هذه اقتحم مثل هذا الخطر الهائل) · · · » قالت ذلك ونظرت اليه نظر المحب العاتب

فلما سمع سعيد كلامها ورأى فيها ذلك الدلال نسي كل خطر واستولى عليه الخجل ولم يرَ لهُ مخرجًا من خجله الاَّ بالمبادرة الى الرق فتناولهُ من يد لبابة وامسك القلم وقد اخذ منهُ الهيام مأخذًا عظيماً حتى توردت وجنتاه واحمرت عيناه · فوقفت العجوز الى جانبه والمصباح في يدها فكتب ويده ترتعش وهو يتجلد لئلاَّ يبدو ذلك لقطام فتظنهُ خائفًا واليك نص كتابه :

« انا سعيد بن · · · الاموي أُعاهد قطام بنت شحنة على قتل علي بن ابي طالب مهرا لزواجي بها واذا لم افعل ذلك كنت لا استحقها وعليَّ عهد الله وميثاقهُ

كتبهُ سعيد الاموي

الفصل الثامن

تمام الحيلة

فلما فرغ سعيد من كتابة الصك دفعهُ الى قطام وقد ظهرت عليهِ ملامح الافتخار بانهُ لم يكن جبانًا كما ظنّتهُ . ولكنهُ لم يكد يدفعهُ اليها حتى احسَّ بالخطر الذي عرَّض نفسهُ لهُ . على انهُ لم يستجلِ ذلك الخطر جيدًا لما حال بينهُ وبين عقلهِ من غياهب الوجد والهيام

اما قطام فتناولت الرق وقرأتهُ بلا اكتراث ثم نظرت الى سعيد باستغراب وقالت « يظهر انك كتبت الصك حقيقة . اليس عارًا على قطام ان تأخذ منك صكًّا على عهد عاهدتها عليهِ في مثل هذا الموقف كأَنك اتخذت كلامي مأخذ الجد وقد قلت لك الآن اني لا ابالي من يقتل عليًا فاذا لم يقتلهُ احد قتلتهُ انا . اما وقد كتبتهُ بخط يدك فاني احفظهُ عندي تذكارًا لهذه الليلة التي اعدُّها من ليالي العمر . . وارجو ان نجتمع قريبًا وقد بلغنا المرام » قالت ذلك وفي صوتها غنة الدلال

فصدق سعيد كلامها واطمأَن بانهُ من قبيل الشرط الذي اشترطهُ على نفسهِ والصك الذي كتبهُ بيدهِ ولكنهُ علم بانهُ لا ينال قطامًا الاَّ بعد قتل الامام علي . فعاد الامر الى خطارتهِ فانقبضت نفسهُ واحب الاختلاء فالتمس الخروج . فقالت لهُ قطام « امكث عندنا . . . او اذهب لعلك تهتدي الى سبيل يقرّب زمن اجتماعنا الدائم » قالت ذلك وابتسمت ورنت اليهِ كما يرنو الحبيب اذا التمس من محبهِ امرًا يخشى ان يكون بعيد المنال . فودعها سعيد وخرج فشيعتهُ لبابة فرأيا ريحانًا لا يزال ساهرًا في الحديقة يطوف حول المنزل خوفًا من الرقباء والعيون

ولما خرجت لبابة بسعيد قالت لهُ وهي تضحك « اني اهنئك برضاء هذه العادة فقد نلتَ الليلة ما طالما تحسَّر عليهِ اهل الكوفة بل سائر اهل العراق . ومن الغريب انها كانت مع فرط حزنها لا تستطيع النظر اليك الاَّ وهي تبتسم . . فما اجمل الحب اذا كان متبادلاً . واما مسأَلة الصك فما هي من الاهمية في شيء . وهب انك رأيت في طريقك خطرًا فهل ترضى قطام ان تعرض نفسك لهُ » . فودعها ومشى

وحده وهو يتعثر بأذياله . وكأنه غادر قلبه عند قطام فخلا بعقله وعادت اليه هواجسه فتصور خطارة الامر الذي عرّض نفسه له . ولما لم يبق له حيلة في الرجوع عن عهده بعد كتابة الصك جعل ينتحل لنفسه اعذارًا تخفف قلقه وتحسّن له ارتكاب ذلك المنكر . فخيل له اذا قتل عليًّا انه ينتقم لسائر بني امية ويفاخرهم جميعًا بما لم يستطعه احد منهم . فينال حظوة في عيني معاوية فضلاً عن تمتعه بقطام . ولما تصور قربه منها اختلج قلبه في صدره وهان عليه كل عسير

فمشى وهو في مثل هذه الخيالات الكاذبة حتى دخل الكوفة ومرَّ بجامعها القائم في وسط الساحة الكبرى . وكان الجو هادئًا والقمر منيرًا فرأى ما يحدق بمنزل الامام علي من الابنية والخيام بمن فيها من كبار بني هاشم وغيرهم من شيعته . وهو يعرف منهم جماعة صناديد لا يهابون الموت . فما لبث ان تصور ذلك حتى خارت قواه وكبر عليه الامر ولكنه ظل ماشيًا يلتمس منزله وهو يفكر في حيلة ينال بها بغيته

الفصل التاسع

﴿ طارق مفاجىء ﴾

وكان منزله في بعض اسواق الكوفة فوصله وهو يظن نفسه لا يزال بعيدًا عنه واما نبهه الى ذلك جعجعة جمل رابض في فنائه فظنه في بادىء الرأي جمله وهو يعهد انه ارسله الى مأواه قبل خروجه . فدخل الفناء فرأى هناك جمالاً واناسًا كأنهم قادمون من سفر فبغت . فتقدم اليه واحد منهم ولم يكد يلقي عليه السلام حتى عرف انه من رجال جده ابي رحاب فانذهل ولم يردّ التحية ولكنه قال له ما وراءك يا عبد الله ما الذي جاء بكم

قال اننا قادمون من عند جدك مولانا ابي رحاب

قال وما الذي حملكم على المجيء

قال جئناك في مهمة مستعجلة

قال وما هي

قال ان ابا رحاب بما تعرفهُ من شيخوخته وضعفهِ قد بعثنا نستقدمك اليهِ سريعًا

فذهل وصاح قائلاً وما الذي اصابهُ ألعلهُ مريض

قال هو مرض الشيخوخة ولكنهُ مشتاق لرؤيتك وقد امرنا ان نستقدمك حالاً

قال واين هو

قال هو في مكة كما نعلم

قال أأذهب الى مكة الآن

قال ذلك ما امرنا بهِ فافعل ما بدالك

فلبث مدة صامتًا يفكر ثم مشى وهو يقول لا حول ولا قوة الاَّ بالله . وسار عبدالله في اثره حتى دخلا المنزل وهما صامتان . ثم التفت سعيد وهو ينزع عباءتهُ وقال لا بد من امر ذي بال يدعوني جدي اليهِ فهل تعرفهُ

قال لا اخالهُ استدعاك الاَّ ليراك قبل حلول اجلهِ لانهُ شاخ وضعف وانت تعلم انهُ يحبك ولا رجاء لهُ سواك

قال لا حيلة لنا في القعود فلنبت الليلة ونصبح مسافرين . وقضي ليلتهُ يفكر في قطام وسفره

ولما اصبحوا ركب سعيد ناقتهُ وركب عبد الله ورفاقهُ جمالهم وهموا بالمسير فرأى سعيد ان يودع قطامًا قبل السفر فاستمهل رفاقه ريثما يعود اليهم وسار يلتمس منزلها وهو في لباس السفر . فلما اشرف على المنزل تذكر ليلتهُ بالامس ولكنهُ لم يضطرب لاشتغال خاطره في جده وقد خاف عليهِ الموت قبل وصولهِ اليهِ . ووصل المنزل فلقي ريحانًا فسألهُ عن قطام . فقال انها خرجت في حاجة وسوف تعود

فقال الى اين ذهبت

قال الى مكان لا ادري اين هو

فاشتغل بال سعيد لخروجها في ذلك الصباح وهو لا يرى ما يدعو فتاة مثلها الى الخروج فدبَّت الغيرة في قلبهِ فقال وهل مضت وحدها

قال سارت مع لبابة

قال اتظنها تبطئ كثيرًا

قال لا ادري وربما ظلت الى المساء او الغد اذ يخيَّل لي انها التمست بعض اهلها في مكان خارج الكوفة

دار ذلك الحديث بينهما وسعيد لا يزال راكبًا جملهُ يتردد بين ان ينتظر عودتها قبل سفره او ان يسير . وود لو يعلم اين هي ليمضي اليها فيودعها ويُذهب شيئًا من غيرتهِ عليها . ولو تحقق مجيئها بعد ساعة او بضع ساعات لفضل الانتظار ولكنهُ خاف ان يطول غيابها اياماً . فعوّل على المسير الى مكة فقال لريحان أَقرِ قطاماً السلام عند رجوعها وقل لها اني شاخص الى مكة لامر يدعو الى الاسراع وقد جئت لوداعها فلم اجدها . على اني سأَعود قريبًا باذن الله

قال حسنًا

فودعهُ وعاد فانضم الى رفاقهِ وسار يلتمس مكة وقلبهُ في الكوفة . ولم يكد يخرج منها حتى ندم على خروجه ولم يرَ قطاماً . ولكنهُ التمس عذرًا لنفسهِ بما دعاه الى العجلة من امر جده

الفصل العاشر

﴿ ابو رحاب ﴾

وكان ابو رحاب جدُّ سعيد شيخًا طاعنًا في السن كما تقدم ربي سعيد في حجره بعد موت والده وكان كلاهما على دعوة بني امية في المطالبة بدم عثمان . ولم يكن غرضهما من ذلك الاَّ الانتقام لعثمان لانهما اقاما زمانًا طويلاً في منزلهِ . وكان ابو رحاب مع شدة حبهِ لعثمان لم يغفل عمَّا كان فيهِ من الخطاء الذي دعا الناس الى اضطهاده وكثيرًا ما كان يحرضهُ على الاصلاح ومصالحة المسلمين فلم يصغ لهُ الاَّ قليلاً . وعلم ابو رحاب بعد ذلك ان جماعة من ذوي الاغراض كانوا يثنونهُ عن الاصغاء ويحرضونهُ على العداء . حتى اذا قتل عثمان كان ابو رحاب وسعيد في جملة المطالبين بدمهِ . ولكنهُ ما لبثا ان عادا من واقعة الجمل حتى قعد ابو رحاب عن المطالبة لانهُ تحقق ان اصحاب تلك الواقعة انما حاربوا عليًّا طمعًا في الملك لا غيرة على عثمان

واقام في مكة مدة لا تسلية لهُ الاَّ سعيد وكان سعيد ينوي الانضمام الى جند

معاوية في واقعة صفين فمنعهُ جدهُ . وكان ابو رحاب يعلم ان سعيدًا يحبُّ قطامًا حبًّا شديدًا وانهُ ساعٍ في التزوج بها . ولذلك فانهُ كان يأذن لهُ في الخروج الى الكوفة لتلك الغاية . وطال غياب سعيد هذه المرة واحسَّ ابو رحاب بزيادة الضعف فاراد استقدامهُ ليتزود من رؤيتهِ قبل موتهِ ويوصيهُ وصية لها علاقة كبرى في شؤُون حياتهِ وربما غيَّرت مجاري اعمالهِ وحولتهُ عن مقاصده وآمالهِ . فبعث رجلاً من خاصتهِ اسمهُ عبدالله في وفدٍ الى الكوفة لهذه الغاية . ولبث ينتظر رجوعهم وهو يتقلب على فراش الضعف والهرم كانهُ يستمهل ملاك الموت ريثما يصل حفيدهُ الَّا يذهب ما في نفسهِ ادراج الرياح وتضيع حياة سعيد عبثًا

اما سعيد فانهُ قضى مسافة الطريق بين الكوفة ومكة وهو بين شوق الى قطام وقلقٍ على ابي رحاب . وكان من شدة فرحهِ بقطام اما يودُّ بقاء جدّه حيًّا ليبشرهُ برضائها وقبولها لانهُ طالما شكى لهُ رغبتهُ فيها . وكان ابو رحاب يتمناها لهُ . وكان سعيد اذا فكر في ذلك فرح ثم يعترض فرحهُ امر الصك وقتل الامام فيضطرب فيعلّل نفسهُ بما ينالهُ من الفخر اذا قتل عليًّا فضلاً عن استرضاء جدّهِ لانهُ يظنُّ ما يجيش في نفسهِ من نار الانتقام لعثمان فيفرحهُ قبل موتهِ

قضى اكثر ايام الطريق في مثل هذه الهواجس لا يبالي بمن حولهُ من الرفاق كأنهُ سائر وحدهُ . ولم يكن يشغلهُ عن ذلك ما يلاقيهِ في سبيلهِ من الجبال والاودية والصحاري ولا ما يمرُّ بهِ من الربوع والاحياء والخيام حتى اشرف على مكة عن اكمة . فاذا هي في منبسط من الارض تحيط بها الجبال والكعبة قائمة بين ابنيتها قيام الملك بين الاعوان . وكانت الشمس قد مالت نحو الغروب فاسرع في مسيره يلتمس منزل جده وقلبهُ يخفق خوفًا عليهِ من بأس يصيبهُ قبل وصولهِ

الفصل الحادي عشر

﴿ بيت ابي رحاب ﴾

ولم يكد يدخل مكة حتى سدل الليل نقابهُ فساق ناقتهُ يلتمس المنزل قبل اشتداد الظلام وترك رفاقهُ يهتمون بشؤُونهم . وكانت عادتهُ اذا دخل مكة ان

يطوف الكعبة قبل الذهاب الى البيت ولكنهُ سار في هذه المرة توًّا الى المنزل وهو يضطرب خوفًا على حياة جده

فعرج في منعطف يؤدي الى البيت رأى فيهِ اناسًا عرف انهم من الاهل والاصدقاء فحيَّاهم وسأَلهم عن حال ابي رحاب . فلما عرفوه طمأنوه وسبقهُ بعضهم ليبشر المريض بقدوم حفيدهِ . فلما اطمأن بال سعيد على حياة جده هدأ روعهُ وترجل عن ناقتهِ وسلمها الى بعض الخدم ومشى وهو لا يزال بالعباءة والكوفية والسيف . فانتهى الى باب كبير مقفل دخل من خوخته ولم ينتظران يفتحوهُ لهُ . فمرَّ في فناء لم يرَ فيهِ احدًا وسار توًّا الى الغرفة التي يقيم فيها جدهُ عادة وفيها مصباح منير دون سائر الغرف . وقبل وصولهِ الباب استقبلهُ رجل خارج من عنده يمشي الهوينا على رؤُوس اصابعهِ مخافة ان يوقظ المريض من نومهِ العميق . فعرف سعيد انهُ من بعض اهلهِ فسألهُ عن حال جده

فقال لهُ « انهُ مستغرق في الرقاد وقد مضى عليهِ بضعة ايام لا ينام فلما احسَّ بالنعاس الآن أخرج الناس من غرفتهِ ولم يبق سواي واوصاني ان لا اوقظهُ الاَّ اذا جئت انت »

قال دعني ادخل واراه وهو نائم قال ذلك ونزع حذاءه خارجًا ودخل وهو يسترق الخطى . فوطئ العتبة واطلَّ على الغرفة فاذا هي مضيئة بسراج على مسرجة قصيرة من الخشب الصلب فوق حافة بارزة من الحائط بجانب فراش المريض وكانت فتيلة السراج ثخينة يتصاعد من لهيبها سناج يتطاير فيترك في صعوده آثارًا سوداء على الحائط بجانب السراج ولو كان لون الحائط نقي البياض لظهرت آثار السناج اكثر جلاء ولكنهُ كان مدهونًا بطين اسمر

وتحوَّل سعيد نحو الفراش وقلبهُ يخفق لئلاَّ يكون رقاد جده ابديًّا كما يتفق لكثيرين ممن يهرمون فيموتون وهم نيام . فمشى على حصير من سعف النخل يكسو ارض الغرفة عليهِ غطاء من جلد مصقول هو بمنزلة البساط وسار نحو الفراش . وكانوا لما اشتد بهِ الضعف رفعوهُ عن الارض الى مقعد مستطيل ظهرهُ شبكة من نسيج الجلد وهي قدد من جلد يشدونها بين جوانب المقعد كالشبكة يجلسون عليها مباشرة او يجعلون فوقها الفرش او نحوها . وكان ابو رحاب قد توسد فراشًا رقيقًا والتحف

ببرد من صوف اسود يغطيهِ الى اعلى الصدر وقد توسَّد على ظهرهِ ويداه مضمومتان تحت اللحاف وعيناه مغمضتان يظللهما شعر حاجبيهِ فيزيدها غوراً

وحالما اقترب سعيد من جدهِ رمى ببصرهِ الى صدره ليرى تنفسهُ فاذا هو يتنفس تنفساً هادئاً فهدأ اضطرابهُ وسكن بلبالهُ ولبث واقفاً يتأمل في ظواهر الهرم · وتذكر ان جدهُ كان من كبار الهامة طولاً وعرضاً فرآهُ قد أصبح هيكلاً من عظام مكسوًّا بالجلد · اما وجههُ فلم يكن ظاهراً منهُ الاَّ الانف والجبهة وما بقي منهُ كان مغطًّى بالشعر الابيض الناصع · وازداد ذلك المنظر رهبة حينئذٍ لضعف النور حتى خيل لسعيد لما اشرف على فراش جده ان رأسهُ كتلة من القطن المندوف يتخللها ثنيات مظلمة هي الانف والوجنتان والجبهة واما ما خلا ذلك فقد غطتهُ اللحية والشاربان والحاجبان · واستطالت لحيتهُ واسبطت حتى غطت عنقهُ وصدرهُ ولكنها كانت قليلة الشعر تشف عن عنق دقيق مستطيل بانت عضلاتهُ وفي مقدمها القصبة قد برزت بروزاً عظيماً · اما الرأس فقد كان حليقاً او لعلهُ أصلع

وكأن شبح الراقد قد دلَّهُ قلبهُ المستيقظ على مجيء حفيده فتحرك وتململ ثم فتح عينيهِ الراقتين واجال نظره في جوانب الغرفة حتى وقع على سعيد فتبسم · فلما رآهُ سعيد قد استيقظ جثا امام فراشهِ وهمَّ بتقبيل يديهِ · فرفع ابو رحاب ذراعيهِ وضمَّ سعيداً الى صدره وطفق يستنشق رائحة عنقهِ وخديهِ بلهفة وسعيد يطاوعهُ بكل حركة يريدها · فأطال ابو رحاب عناقهُ وسعيد صابر حتى أحسَّ بماء ساخن ينحدر على خده علم انها دموع سخينة ولكنهُ لم يدر دموع الحزن هي ام دموع الفرح · على انهُ خاف على جده فاستأذنهُ ونهض عن صدرهِ فرآهُ يحاول الجلوس فاعانهُ عليهِ بيدهِ ونظر اليهِ وهو جالس فاندهل لشدة ضعفهِ حتى تخيلهُ قفصاً من عظام استدل على ذلك مما انكشف من عنقهِ الى اعلى الصدر

اما ابو رحاب فاخذ يصلح لحيتهُ وشاربيهِ ويمسح عينيهِ · ثم تنحنح ومدَّ يدهُ الى سعيد فعلم هذا انهُ يريد يدهُ فدفعها اليهِ فامسكها ابو رحاب بين يديهِ · فاحسَّ سعيد كانها مقبوضة باصابع من حديد ليبوسة انامله وجفاف جلدها وبرودتها ولكنهُ شعر بارتعاشهِ ارتعاشاً متواصلاً هو من دلائل الضعف الشديد

الفصل الثاني عشر

﴿ انقلابٌ غريب ﴾

وما زال سعيد يتخيل في جده الضعف الشديد حتى سمع صوتهُ فاذا هُو كما يعهده جهوريٌ رنان . فاستأنس بهِ واطمأن بالهُ لسماعهِ . واول كلمة سمعها منهُ قولهُ « الحمد لله على مجيئك سالمًا . لقد اطلت الغيبة عليَّ يا ولدي »

قال لقد جئتك سريعًا حالما علمت برغبتك في ذلك كيف انت الآن وبماذا تشعر يا جدَّاه

قال كنت احسبني على شفا الموت ولكنني لما رأيتك وامسكت يدك شعرت برجوع قواي . فانا الآن كما تعرفني من عشر سنوات وكأن الله شدد عزيمتي لأتمكن من تزويدك بنصيحة هي آخر ما اتلفظ بهِ في هذه الحياة

قال « اني اشتاق لنصائحك في كل حين ولكنني ارجو ان يمدَّ الله في اجلك لتشهد زواجي بقطام » ثم التفت يمنة ويسرة لئلاَّ يسمعهُ احد فرأى المكان خاليًا من الناس فقال بصوت منخفض « وتفرح بما سيتقدم ذلك من الانتقام الذي طالما تاقت نفسك اليهِ »

فنظر الشيخ اليهِ بعينيهِ رأى سعيد بريقهما من خلال الحاجبين وكان قوس الشيخوخة واضحًا حولهما ثم سمع جده يقول « اما زواجك بقطام فقد فهمتهُ وسرَّني بلوغك مرامك واما الانتقام فلم افهم علاقتهُ بها »

فتبسم وقال ألا تذكر يا جداه ما قمنا بهِ منذ اعوام وقام بهِ كل بني امية من المطالبة بدم الخليفة المقتول ظلمًا . وهل تجاسر احد على الانتقام بقتل القاتل ليخلو الجوُّ لنا

فاقطب الشيخ اسرتهُ كأَنهُ غضب وقال « من هو القاتل ومن سيقتلهُ »

فأَدنى سعيد شفتيهِ من اذن جده وقال « ان القاتل علي ابن ابي طالب وانا سأَقتلهُ ولا يخفى عليك ما في ذلك من الفخر والفضل فانما ابغي بقاءك ليتم ذلك تحت جناحك ... »

ولم يصبر الشيخ على سماع بقية الحديث لعظم اضطرابهِ وحنقهِ . وعرف سعيد حنقهُ مما رآه من ارتعاش يديهِ واختلاج شفتيهِ واهتزاز لحيتهِ . ولا تسل عن دهشة سعيد لما سمع جده يقطع عليهِ الكلام قائلاً بصوت عنيف « لا لا لا يا سعيد . . . لا تقتلوا البريء »

فاندهل وظن جده لم يفهم كلامهُ « فقال لهُ تمهَّل يا جداه واي بريء تعني اني سأنتقم من علي بن ابي طالب فكيف تقول انهُ بريء وانت اول من دعا الى المطالبة بدم عثمان منهُ . يظهر انك اخطأت مرادي »

قال « كلاَّ اني لم اخطئ مرادك فلا تخطئ انت مرادي . ان علياً بريءٌ . . . انهُ بريءٌ مما اتهمتاه بهِ . . . انهُ لم يقتل عثمان ولا مالأ على قتلهِ ولا اراد سوءًا بالمسلمين ولا ارتكب امرًا يستوجب نقمة »

فوقف سعيد وهو يحسب نفسهُ في منام لعلمهِ ان جدَّه كان من اول الناقمين على عليّ فكيف انقلب الى الضد من ذلك . فتبادر الى ذهنهِ ان جده انما يتكلم عن خرف . وادرك ابو رحاب ما جال في خاطرهِ فقال لهُ « لا يخالجنَّ ذهنك شك في صحة عقلي فاني انما اقول ما اقولهُ عن رويَّة وطويل نظر ولم استقدمك من العراق الاَّ لهذه الغاية . ولا اقولهُ ذلك جزافًا بل اثبتهُ بالبرهان »

وما زال سعيد مندهلاً مستغربًا . لكنهُ صبر نفسهُ الى آخر الحديث فقال « وما الذي دعاك الى هذا التغيير العظيم . كيف يمكن ان يكون ذلك وكيف يمكن ان يكون عليٌّ بريئًا من دم عثمان بل كيف تعترف انت ببراءتهِ وقد كنت من اول القائلين باتهامهِ »

فاشار الشيخ بيدهِ الى سعيد ان يجلس ويهدئ روعهُ ويصبر نفسهُ الى سرد البراهين ثم قال « امَّا ما دعاني الى ذلك فهو هاتف سمعتهُ يقول ويكرر القول (ان علياً بريءٌ وانما يتَّهمهُ اهل المطامع والاغراض) وكنت كيفما توجهت اسمع هذا الصوت يرنُّ في اذني حتى اقلق راحتي . فبحثت عن الامر بنفسي وتدبرت ما اعلمهُ من تاريخ علي وعثمان وغيرهما من القائمين في هذه الفتنة فوجدت معاوية وسائر بني امية على ضلال بل هم اهل اغراض اتخذوا مقتل الخليفة المظلوم ذريعة للحصول عليها » قال ذلك واقطب حاجبيهِ وقد أبرقت عيناه من خلال قوس الاشياخ حول حدقتيهِ وبان الجدُّ في لهجتهِ فظل سعيد صامتًا لا يبدي حراكًا لما استولى عليهِ من الدهشة

الفصل الثالث عشر

التهمة الباطلة

فمشط الشيخ لحيته باصابعه واصلح شعر حاجبيه وشاربيه والتفت الى سعيد وقال « يزعم معاوية واصحابه انهم انما جردوا السيوف وسفكوا الدماء للمطالبة بدم عثمان كأنهم لم يكونوا يستطيعون ان يدفعوا عنه قبل قتله . ولقد يضحكني مطالبة عمرو بن العاص بدم عثمان وهو اول من اراد قتله وسعى في قتله حتى لقد يفتخر انه هو الذي قتله وان يكن في فلسطين . فقد علمت انه لما بلغه مقتل عثمان وهو في وادي السباع قال (انا قتلته وانا في وادي السباع) (١) يعني انه سعى في قتله عن بعد . فلا يغرنك بعد ذلك مجيئه هو وابناه ماشين الى دمشق وهم يبكون ويقولون (واعثماناه ننعي الحياء والدين) انهم انما فعلوا ذلك حيلة للانضمام الى معاوية . . .

« واما معاوية وسائر بني امية فهل تحسبهم اشرعوا الاسنة وايقظوا الفتنة طلبًا بدم ذلك الخليفة المقتول ؟ فاذا كانوا فعلوا ذلك غيرة وحنانًا ما بالهم لم يدافعوا عنه وهو محصور يستنجدهم من المدينة الى الشام ؟ وهب انهم تأخروا عن نجدته كرهًا كما يزعمون فما بالهم نسوه ونسوا اولاده . واذا كانوا يعتقدون موته مظلومًا وانهم انما قاموا للمطالبة بدمه فلماذا لم يولوا الخلافة ولدًا من اولاده ؟ . أرايت كيف اتخذوا اسم هذا الخليفة ودمه ذريعة الى السلطة . . .

« هكذا فعل ايضًا طلحة والزبير فقد قُتل عثمان وهم في المدينة على قيد اذرع منه فلو ارادوا إحياءهُ لم يعجزهم الدفاع فسكتوا عن قتله حتى اذا رأوا الخلافة افضت الى علي تظاهروا بالدفاع عن عثمان وقالوا انه قُتل ظلمًا »

وكان الشيخ يتكلم وهو يحاول خفت صوته فلا يطاوعه التهيج فلا يشعر الا وقد علا صوته تتخلله غصات وارتجاجات . واما سعيد فكان يسمع كلام جده وهو مطرق لا يستطيع النظر الى وجهه تهيبًا واحترامًا . فلما وصل ابو رحاب الى هذا الحد سكت برهة تشاغل فيها بمسح فمه وشاربيه مما لحقهما من نفثات ريقه اثناء الكلام

(١) ابن الاثير وغيره

لان الهرم اخلى فكّيهِ من الاسنان . فاغتنم سعيد تلك الفرصة وخاطب جدّه قائلاً « كيف تحسب عمل هؤلاء طمعاً في الخلافة ولا تحسب عمل عليّ ايضاً مثل عملهم . وقد كانوا جميعاً في المدينة فكيف اذا قتل الخليفة تكون البيعة لواحد منهم والباقون ينظرون . لماذا لم تحسب ذلك طمعاً من علي ؟ »

فضحك الشيخ ضحكة اغتصابية او هي قهقهة تشبهُ الضحك لعظم ما قام في نفسهِ وهو في آخر يوم من ايام الدنيا واول يوم من ايام الآخرة . وقبل ان يتمّ قهقهتهُ حوّل وجههُ الى سعيد وقال « انسألني عن خلافة علي وقد كان الأولى بي ان اسأل نفسي ما الذي اعماني عن حقوقهِ فيها من اول الامر صدق القائل ان الغرض يعمي ويصم ... ان الخلافة لم تكن لاحد من الصحابة قبل هذا الامام وهو ابن عم الرسول (صلعم) وصهره على ابنتهِ فاطمة سيدة نساء العالمين . وهو اول الناس اسلاماً بعد خديجه [1] وزد على ذلك ان الرسول (صلعم) ربي في حجر ابي طالب والد علي . وقد كفلهُ ودافع عنهُ عند اول الدعوة . وكانت قريش تكرهُ دعوتهُ حتى كثيراً ما هموا باذيتهِ وابو طالب يمنعهم بما لهُ من المنزلة الرفيعة عندهم . ولما ولد علي ربي في حجر الرسول (صلعم) واسلم وهو في العاشرة من عمرهِ وذبّ عن الاسلام بقلبهِ ويدهِ ولسانهِ ولا انسى يوم الهجرة يوم تآمرت قريش على اذية الرسول (صلعم) في مكة فعوّل على الهجرة كيف ان علياً اقام مقامهُ في منزلهِ فتسجى ببرده وبات على فراشهِ وعرض نفسهُ لخطر القتل ونجّاه الله . ناهيك عن حروبهِ في الغزوات والسرايا فقد شهد معظم المواقع واشهرها وبذل نفسهُ في الذب عن الاسلام يوم كان معاوية ووالدهُ واخوتهُ في مكة من الدّ اعداء الاسلام ولم يسلموا الاَّ بعد فتح مكة اي بعد قنوطهم من النصر » [2]

الفصل الرابع عشر

علي والخلافة

وكان ابو رحاب يتكلم والعرق ينصبب عن جبينهِ كأنهُ يعمل عملاً شاقاً يجهد نفسهُ فيهِ وسعيد صامت مطرق لا يزال في دهشتهِ واستغرابهِ حتى كاد يغيب عن صوابهِ . ولم

(١) اسد الغابة ج ٤ (٢) السيرة الحلبية

يجسر على كلام . وطال سكوت جده فهمّ باستفهامهِ فرآه يتحفز للكلام فسكت واصغى فقال ابو رحاب « اراك دُهشت لما سمعتهُ كأنك لم تعلمهُ قبلاً ولا ألومك اذا علمتهُ وتجاهلتهُ فاني اكبر منك سناً واعلم منك في هذه الشؤون وقد اعماني الغرض . وكأنني بعد ذاك الهاتف قد فتحت عيناي وصرت انظر الى الحقيقة كما هي . .

« نعم ان علياً اولى منهم جميعاً بالخلافة والرسول (صلعم) فضلهُ عليهم جميعاً وآخاه دون سواه فقال لهُ على مسمع من الصحابة (انت اخي في الدنيا والآخرة) وخاطبهُ مرة وقال (لا يحبك الا مؤمن ولا يبغضك الا كافر) ولقد تستغرب ما سأتلوهُ عليك وتعجب كيف لم يتولَّ الخلافة قبل الآن كيف لا وهو قول الرسول (ان علياً مني وانا من علي وهو وليُّ كل مؤمن بعدي) وقولهُ (صلعم) (من كنت مولاه فعليٌّ مولاه اللهم والِ من والاه وعاد من عاداه) (١) فمن يعلم ذلك ويعجب لخلافتهِ بل كيف لا يعجب لتقاعده عن الخلافة الى الآن »

وكان سعيد لا يزال مطرقاً وقد تغيرت سحنتهُ وتولتهُ الدهشة حتى ظن نفسهُ في منام وندم على مجيئهِ لانهُ اصبح بعد سماع ذلك الكلام حجراً بين مطرقتين لا يدري ايقوم بعهده لقطام التي ملكت لبهُ ام يعمل بوصية جده وهو في آخر ايام الدنيا . فظل صامتاً لا يبدي حراكاً . وادرك جده تلبكهُ ولكنهُ تجاهل عما يجول في خاطره وعمد الى اتمام الحديث فقال

« فترى يا ولدي ان علياً اولى بالخلافة من سائر الصحابة بالنظر الى قرابتهِ وصهره ووصية الرسول لهُ ولكنهُ يمتاز عن سائر الناس بفضائل تكفي وحدها لتوليهِ امور المسلمين لا ارى في معاوية واصحابهِ شيئاً منها . ان علياً رجل متقشفٌ زاهد في الدنيا رأيتهُ مرة انزل سيفهُ للسوق فباعهُ فسئل لماذا فعل ذلك فقال (لو كان عندي اربعة دراهم ثمن آزار لم ابعهُ) ويكفي قولهُ في وصف المؤمنين (ومن سيماهم ان يكونوا خمص البطون من الطوى يبس الشفاه من الظما عمش العيون من البكا) ولو فتشت بيتهُ اليوم ما وجدت فيهِ لا صفراء ولا بيضاء . وقد قضى عمره في عز الاسلام وفتح الفتوحات ولم يلبس ثوباً جديداً ولا اقتنى ضيعة ولا ربعاً (٢) ومن كان في مقامهِ قادر على حشد الاموال واقتناء العبيد والاماء والضياع

(١) اسد الغابة ج ٤ (٢) المسعودي ج ٢

والماشية كما فعل غيره من الصحابة كطلحة والزبير وعثمان وصاحبنا وابن عمنا معاوية . . . . . »

الفصل الخامس عشر

﴿ معاوية واصحابه ﴾

ولما بلغ الشيخ الى هذا الحد تنهّد تنهدًا عنيفًا ثم قال وصوتهُ يعلو بالرغم عنهُ « ان معاوية خدعنا بتظاهره في نصرة الخليفة المقتول حتى كرّهنا بالامام علي وقد كنا في ظلمات من الغرض لا نرى الحق واما الآن وقد قشعتُ الغشاء عن عيني فاني اصبحت ناقماً على معاوية واذا فكرت في اعماله واعمال علي كدت اتميز غيظًا ويتفطر قلبي اسفًا على ما نال هذا الامام من الاذى الذي لا يستحقهُ . كيف لا وهو رجل عرفناه يوم انتصر علينا في واقعة الجمل كيف انهُ اشفق على عدوّه اشفاقهُ على اولاده فأوصى اصحابهُ ان لا يلحقوا مدبرًا ولا يجهزوا على جريح ولا يمسوا النساء ولا الاولاد بسوء . وكم اوصى عمالهُ ان يقسطوا في احكامهم وقد اخبرني رجل سمعهُ يوصي احد عمالهِ ويقول (لا تضربنّ رجلاً سوطًا في جباية درهم ولا تبيعنّ رزقًا ولا كسوة شتاء ولا صيفًا ولا دابة يعتمدون عليها ولا تقيمن رجلاً قائمًا في طلب درهم) [1] ولو اردت ان اسرد من امثلة ذلك لضاق بي المقام وخشيت انقضاء اجلي قبل الفراغ منها وانا انما استمهل ملاك الموت ريثما اتمّ وصيتي لك . . . فاصغ لي ياولدي وتأمل عدل الامام علي وحلمهِ وما ارتكبهُ معاوية وعمالهُ من التعدي على المسلمين . وخوفًا من زيادة التطويل وقد تعبتُ من الكلام اذكر لك حادثة قريبة العهد لا يزال صداها يرنّ في الآذان . . آه . . آه من القساة اهل المطامع . . . . اتعرف عبيد الله ابن عباس ؟ »

قال « كيف لا اعرفهُ وهو ابن عم الرسول (صلعم) وابن عم علي بن ابي طالب . نعم اعرفهُ »

---

(١) اسد الغابة ج ٤

قال اصغ لما اقصه عليك واعتبر . لما فرغ معاوية من واقعة صفين وتحكيم الحكمين وظفر بالخلافة بحيلة عمرو بن العاص كما تعلم بايعه اهل الشام وظل علي في العراق . فلم يقنع معاوية بما اوتيه من الحكم فبعث سراياه الى الحجاز والعراق للتحريض يدعون الناس الى بيعته ونقض بيعة علي . وكان رسوله الى الحجاز واليمن بسر بن ارطاة فجاء المدينة وتولاها لان عاملها فرّ من وجهه . ثم جاء مكة هذه منذ شهرين ولا يزال الناس يتحدثون بفرار صاحبها ابي موسى الاشعري من وجهه بلا حرب . فاكرهَ اهلها على البيعة فبايعه اهل مكة مكرهين وقد كنت مريضاً ولم ار وجهه . . . على ان عمله هذا لا يستوجب ملاماً ولكنه سار الى اليمن وعاملها عبيد الله بن عباس الذي ذكرته لك . فخاف عبيد الله فهرب الى الكوفة واستخلف عبد الله بن عبد المدان فلم يكن من بسر بعد دخوله اليمن إلاّ انه أمر بعبد الله هذا فقتله وقتل ابنه صبراً . . . وسمع بابنين صغيرين لعبيد الله بن عباس قد ودعهما عند رجل من كنانة بالبادية فاراد قتلهما فبعث اليهما فجاء الكناني ومعه الطفلان فلما علم ان بسراً يريد قتلهما ذعر وصاح قائلاً « لمَ تقتل هذين ولا ذنب لهما فان كنت قاتلهما فاقتلني معهما » ولم يكن من ذلك الظالم الاّ انه قتل الطفلين والكناني (١) وبلغني ان الكناني دافع عنهما حتى قتل . ولقد اعجبني قول امرأة من كنانة رأت ابن ارطاة مارّاً بعد تلك الفاجعة فقالت له « يا هذا قتلتَ الرجال فعلامَ تقتل هذين والله ما كانوا يقتلون الاطفال في الجاهلية ولا الاسلام . والله يا ابن ارطاة ان سلطاناً لا يقوم الاّ بقتل الصبي الصغير والشيخ الكبير ونزع الرحمة وعقوق الارحام لسلطان سوء » (٢)

هذه يا ولدي اعمال معاوية وعماله فاين هي من اعمال الامام علي فكيف ننقم عليه بعد ذلك ونقول انه قتل عثمان وانه يستوجب القتل ؟

الفصل السادس عشر

الخوارج

ولم يتم الشيخ كلامه حتى خارت قواه وعجز عن الكلام وملّ القعود فاستلقى

(١) ابن الاثير ج ٣ (٢) ابن الاثير ج ٣

على ظهره وهو يلهث والعرق يتصبب عن جبينه فخاف سعيد عليه فأسرع الى منديل مسح به عرقه وأتاه بلبن كانوا اعدوه له فشربه واستلقى يلتمس الراحة وسعيد جالس الى جانبه وقد وقع في حيرة عظمى . فتصوّر عهده لقطام والنصل الذي كتبه على نفسه ولبث صامتاً وجدّه الشيخ يلتفت اليه خلسة يراقب عواطفه . فأدرك ارتباكه وعلم انه يفكر بقطام وأهلها فحوّل وجهه نحوه وهو لا يزال مستلقياً وقال « اظنك تفكر في قطام وأهلها الخوارج وقد يخيّل لك ان خروجهم من طاعة علي قد يطعن بصدق ما قلته لك ولكنهم لم يخرجوا الاّ طمعاً في الدنيا فانتحلوا سبباً لا يسمعه عاقل الاّ هزأ بهم وايقن تعديهم . خلعوا طاعة علي لانه قبل بالتحكيم اشتهر وما ذنبه وهم الذين اجبروه على قبوله وهب انه اخطأ فهل يخرجون عليه ويحاربونه . ولكنهم رأوا معاوية قام في الشام وكاد يفوز بالخلافة فطمعوا هم بالحكومة لانفسهم فاجتمعوا على نقض البيعة ويؤيد ذلك انهم ولوا عليهم رئيساً منهم وبايعوه ولكنهم فشلوا في حروبهم وعادت العائلة عليهم

وليس فشلهم بالدليل على سوء نياتهم ولكنني اتلو عليك حكاية سمعتها من رجل اثق بصدق روايته قال ان الخوارج عند اول خروجهم من طاعة علي على اثر رجوعهم من صفين نزلوا عند النهروان فرأوا رجلاً يسوق بامرأة على حمار فدعوه فانتهروه فافزعوه وقالوا له من انت . قال انا عبد الله بن خباب صاحب رسول الله (صلعم) . فقالوا له افزعناك . قال نعم . قالوا لاروع عليك حدثنا عن ابيك حديثاً سمعه من رسول الله صلعم . قال انه تكون فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت فيه بدنه يمسي فيها مؤمناً ويصبح كافراً ويمسي مؤمناً . قالوا لهذا الحديث سألناك فما تقول في ابي بكر وعمر . فاثنى عليهما خيراً . قالوا ما تقول في عثمان في اول خلافته وفي آخرها . قال انه كان محقاً في اولها وفي آخرها . قالوا فما تقول في علي قبل التحكيم وبعده . قال انه اعلم بالله منكم واشد توقياً على دينه وانفذ بصيرة . قالوا انك تتبع الهوى وتوالي الرجال على اسمائها لا على افعالها والله لنقتلنك قتلة ما قتلناها احداً . فاخذوه وكتفوه ثم اقبلوا به وبامرأته وهي حبلى متم حتى نزلوا تحت نخل مواقير فسقطت منه رطبة فاخذها احدهم فتركها في فيه فقال آخر اخذتها بغير حلها وبغير ثمن فالقاها ثم مرّ بهم خنزير لاهل الذمة فضربه احدهم بسيفه فقالوا هذا فساد في الارض فلقي صاحب

الخنزير فارقشاه فلما راى ذلك منهم ابن خباب قال لئن كنتم صادقين فيما ارى فما علي منكم من باس اني مسلم ما احدثت في الاسلام حدثًا ولقد أمنتموني قلتم لا روع عليك . فاضجعوه فذبحوه فسال دمهُ في الماء واقبلوا الى المرأة فقالت اني امرأة الا تتقون الله . فبقروا بطنها . هذه اعمال اعداء علي وهذا هو علي كيف ننقم عليهِ بل كيف نقتلهُ او نساعد على قتلهِ بل كيف نسكت عن قتلهِ ولا ندافع عنهُ

الفصل السابع عشر

﴿ خاتمة الوصية ﴾

فلما رأى سعيد نهاية حديث جده لم يعد يذكر الصك الذي كتبهُ على نفسهِ وتعهد فيهِ بقتل علي لئلا يزيد غضبهُ . فظل ساكتًا يفكر في حيلة يتخلص بها من وعده بالتي هي احسن فلم يسعهُ ذهنهُ على التأمل وقد أحسَّ بالتعب الشديد ورأى ابا رحاب قد تعب ايضًا . فقال لهُ لقد انعبت نفسك يا جداه بوصايتي فاشكر عنايتك واني ارى في قولك الصواب واطلب اليهِ تعالى ان يقدرني على العمل بهِ فاسترح الليلة وغدًا نصبح ان شاء الله وقد ارتحنا فنستأنف الكلام . قال ذلك واكب على يده فقبلها فرآها قد زادت برودة وجمودًا . فقال لهُ جده « نم هنيئًا يا ولدي ولكنني اخشى ان لا اصبح في الغد فلا بد من كلمة اقولها وهي خاتمة وصيتي لك » قال ذلك ومد يده فدنا سعيد اليهِ فعانقهُ وبكى ثم قال والدمع ملء عينيهِ وشفتاه ترتجفان وذقنهُ تهتز « اذا شئت يا ولدي ان يفارق جدك هذه الدنيا مرتاحًا مطمئنًا عاهدهُ بانك تعمل بوصيتهِ اي انك لا تبغي سوءًا للامام علي بل اذا رايت سبيلاً للدفاع عنهُ دافع بكل جهدك .. هل تعاهدني على ذلك ؟ ... عاهدني عليهِ . واجبر قلبي واذكر اني جدك ووالدك ووصيك واني ربيتك وكفلتك واني لا اريد بك الا الخير . هل تعاهدني على ذلك .. قل نعم واجبر قلبي اني قلق عليك ..... »

فتأثر سعيد من كلام جدهِ حتى اغرورقت عيناه بالدموع وتذكر حنوَّه وانعطافهُ فلم يسعهُ الاَّ الايجاب فعاهدهُ على وصيتهِ

ولكنه لم يكد يعاهد حتى تذكر عهده لقطام في الضد من ذلك فعظم عليه الامر على ان البغتة أنسته هول ذلك التضاد . ورأى في جده ميلاً الى الرقاد فدعا الرجل الموكل بخدمته وامره ان يتولى تعهده في اثناء رقاده وخرج الى غرفة اخرى نزع فيها ثيابه والتمس الراحة . اما الرقاد فلم يكن له فيه مطمع بعدما انتابه من الهواجس والمشاغل

على انه لم يكن يهدأ له بال واذا فكر في حاله ازداد الامر خطارة لديه وهاله ما رمى به نفسه من عهدين متناقضين . فكان كلما تصور عدوله عن قتل الامام علي شعر بارتياح من الخطر الذي كان يخافه على نفسه لو باشر القتل . ولكنه لا يلبث ان يفكر بعهده المكتوب وبقلبه المغلول حتى ترتعد فرائصه ويرتبك في امره فيهب من فراشه كأنه اصيب بخبل

الفصل الثامن عشر

طيف قطام

وما زال في مثل ذلك حتى انقضى نصف الليل وهو لم يغمض له جفن ولم يزدد الا اضطرابًا وقلقًا . وضاقت الدنيا لديه فنهض من فراشه وتزمل ببرده وعباءته ونعم وخرج يلتمس الخلاء . وكان الظلام مخيماً وقد رقد الناس ولم يبق في شوارع مكة احد . ففرح لذلك الهدو وسار لا يدري الى ابن وهو غارق في هواجسه ولم يسر قليلاً حتى شعر بالبرد فالتف بالعباءة وظل ماشيًا تارة ببطء وطورًا يسرع على غير هدًى فما شعر الا وهو بباب المسجد الحرام واحس لساعته بارتياح . فقال في نفسه لادخلن المسجد اصلي ركعتين لعل الله يوحي اليّ طريقة تخفف اضطرابي . وكان الباب مفتوحًا وصحن المسجد خاليًا فتأبط نعليه ودخل حتى دنا من الكعبة فصلى وسجد فاحس لساعته براحة فطاف حول الكعبة ثم التمس مكانًا وراءها اتكأ فيه وعادت اليه هواجسه . فارسل بصره يراقب النجوم السابحة في الفضاء وقد اجتذب بصره جمال القبة الزرقاء وافكاره تائهة في ما احدق به واشتد البرد عليه فادخل رأسه في العباءة جعلها خمارًا . وكأن التعب والبرد تغلبا عليه فخدر بدنه واستولى عليه النعاس ولكنه

لم يكد يغمض جفنيهِ حتى ابتدرتهُ الاحلام فرأى قطاماً بجلباب اسود وقد اسفرت عن محياها فبدت عيناها المكحولتان ورآها تمشي نحوهِ حافية القدمين على بساط من ريش النعام الابيض . فخفق قلبهُ لرؤيتها وهمَّ بالسلام عليها فرآها اعرضت اعراض العاتب وعيناها تتلألآن بالدموع فتفطَّر قلبهُ لرؤيتها وساءَهُ اعراضها فهمَّ بالاقبال عليها فلم تسعفهُ رجلاهُ لما تولاَّها من الرعدة فناداها يلتمس قربها فلم تجبه وظلت معرضة وقد تحوَّلت عنهُ ومشت وهي تنظر اليهِ شزرًا ولسان حالها يقول « لقد خنتَ عهدي فما انت اهلٌ لي »

وحاول سعيد اللحاق بها ليخبرها ببقائهِ على العزم فلم يستطع ولما ابتعدت عنهُ همَّ ان يناديها فأفاق من رقاده فاذا هو وحدهُ بجانب جدار الكعبة والظلام محدق بهِ فمسح عينيهِ ليتبين حالهُ أفي يقظة هو ام في منام ولما تحقق انهُ كان في منام حمد الله ولكنهُ ايقن انهُ اذا لقي قطاماً لا يرى منها غير الاعراض

فمكث صامتاً تتقاذفهُ الهواجس وهو لا يهتدي الى حلّ مقنع فنهض يلتمس المنزل ليرى ما تمَّ لجعدٍ بعد ذلك الحديث . واشتاق للالتحاف بالفراش بعد بضع ساعات قضاها في ذلك الخلاء والبرد قارس . ولم يكد يتلو سورة الفاتحة وهو عائد حتى سمع لغطاً خافتاً كأن اناساً يتسارُّون . وكان قد وصل الى مقام ابراهيم امام الكعبة (١) فوقف واصاخ بسمعهِ فسمع خطوات بطيئة تقترب من الكعبة وهمساً يتكرَّر كأن القادمين يتشاورون في امر هام . فانزوى وراء المقام في مكان لا ينتبه اليهِ احد وخصوصاً في ذلك الظلام ولكنهُ كان اذا ارسل بصرهُ وقع على الكعبة وحواليها

الفصل التاسع عشر

المؤَامرة

فما لبث ان رأى ثلاثة رجال لم يعرف احدًا منهم ولكنهُ عرف من قيافتهم انهم غرباء على انهُ لم يقدر على تمييز الوانهم ولا سحنهم وقد لفوا رؤُوسهم بالعمائم لفاً كالخمار اما اتقاء للبرد واما تنكرًا

(١) السيرة الحلبية ج ٣

فهمهُ امرهم وخنق قلبهُ خوفًا من انكشاف مكانهِ وربما كانوا في مهمة اذا علموا انهُ اطلع عليها سعوا في قتلهِ . فبالغ في الانزواء وخاف ان يداهمهُ العطاس فلا يستطيع حبسهُ فينفضح امره فظل متحيرًا . اما هم فوصلوا باب الكعبة واقتربوا من سعيد بحيث يراهم جميعًا ولو كان القمر طالعًا او كان هناك مصباح لتبين سحنهم جيدًا ولكنهُ لم يقدر على تمييز شيء منهم لاشتداد الظلام . على انهُ تأكد من مجمل احوالهم وحركاتهم انهم جاؤوا لامرٍ ذي بال احدهم طويل القامة وهو اكثرهم حركة فجلس رفيقاهُ الاربعاء وظلّ هو واقفًا ثم جلس القرفصاء وقال « والآن ما لنا ولهؤلاء انهم جبناء تعالوا نبدأ بالامر فيكون لنا الفخر »

قال الثاني وكان قصير القامة ممتلئ الجسم « اني ارى رأيك اذ ما نابنا من هؤلاء الائمة الاَّ الضرر . هم يتنازعون على الخلافة فيقتتل المسلمون بعضهم بعضًا في نصرتهم فاذا قتلناهم رقدت الفتنة . نعم نقتلهم جميعًا » قال ذلك بصوت خافت وفي نطقهِ لجلجة وكان يلتفت يمنة ويسرة لئلاَّ يسمعهُ احد

فقال الرفيق الثالث وكان لا يزال ساكتًا « اني لا افكّر في واقعة النهروان ومن قُتل فيها من الابطال والشجعان الاَّ ويقطر قلبي دمًا . ان عليًا قتلهم لانهم لم يرضوا معهُ بالتحكيم »

فابتدرهُ الاوّل الطويل وكان اكثرهم جرأة على الكلام وكان رفيقاه اذا تكلما خفضا صوتيهما اما هو فكان لا يهاب شيئًا فيتكلم بملء فيهِ فقال « لا يكفينا التذمر والتضجر ونحن سكوت نرى ابناءنا واخوتنا يقتلون في نصرة اولائك الائمة ولا نبدي حراكًا . هلمَّ بنا نقتلهم ونريح المسلمين من شرّهم » .

فلما سمع سعيد حديثهم علم انهم جاءوا للمؤامرة على قتل جماعة من الائمة الامام عليٌّ واحد منهم ولكنهُ لم يعلم من هم الباقون . فجعل يرتعد لتأثره وزاد خوفهُ على نفسهِ اذا كشف مكانهُ . وكان في بادىء الرأي قد ندم على بقائهِ هناك فلما توسم خطارة ماهم فيهِ سرَّ لبقائهِ على انهُ ما زال خائفًا من الفضيحة . فلبث منزويًا وهو يحبس انفاسهُ خوفًا من السعال او العطاس فانهُ لو تنحنح او عطس لأجفلهم جميعًا وهم على بضعة اذرع منهُ . ولو قام احدهم ومشى خطوتين نحو مقام ابراهيم لرأى سعيدًا امامهُ . اما سعيد فكان يفكر في حيلة ينقذ بها نفسهُ لو كشف مكانهُ . وكان مع شدة الظلام يخيل لهُ

انهُ في رابعة النهار لخوفهِ وقد ساعده على ذلك صحو الجو وتلألؤ الكواكب لان السماء كانت نقية لا يحجب نجومها الاَّ سحبٌ رقيقة متفرقة كانت تجتمع احياناً وتتلبد فتزيد الظلام كثافة وقد كان سعيد في انفراده وراء الكعبة قبل مجيء هؤلاء انما يشاغل نفسهُ بمراقبة حركات تلك السحب . وكان اذا تلبدت او تكاثفت انقبضت نفسهُ اما الآن فاصبح لا يرى غير الخطر امامهُ وود تكاثف الغيوم لانها تزيد في احتجابهِ وقد نسي قطاماً وجده واصبح قلقاً لاستطلاع سرّ ذلك الاجتماع

الفصل العشرون

١٧ رمضان

وكان السكوت قد استولى على تلك الجلسة لحظة على اثر كلام ذلك الطويل الجريء فلما رأى هذا سكوت رفيقيهِ ابتدرهما قائلاً « واذا فعلنا ذلك ما الذي نخافهُ غير الموت ? حبذا الموت في سبيل انقاذ المسلمين من فتنة يقتتلون فيها . واصل الفتنة كما تعلمون ثلاثة من كبارنا يتنازعون على الخلافة او هي السلطة الدنيوية وهم علي بن ابي طالب ومعاوية بن ابي سفيان وعمرو بن العاص هلمّ بنا نقتلهم ونريح الناس منهم »[1]

فقال الثاني « لقد وافقتك على رأيك من اول الامر ولكن ما السبيل الى قتلهم وانت تعلم انهم محاطون بالجند والاعوان فلنفكر في طريقة تضمن لنا الفوز وتأمننا من الخطر »

فاسرع الاول قائلاً « اراك تتردد في القول كأن الامر هالك خطرهُ وكأني بك تخاف كبير اولئك الائمة وتخشى ان يكون من حظك قتلهُ . تعالوا نقتسم العمل فيما بيننا . تعالوا نتعاهد على ان يقتل كلٌّ منا واحداً من اولئك الثلاثة ونعين يوماً نباشر العمل فيهِ معاً فيكون احدنا في الكوفة لقتل عليٍّ والآخر في مصر لقتل عمرو والثالث في الشام لقتل معاوية في يوم واحد ويقتل كلٌّ منا صاحبهُ في ذلك اليوم فيصبح المسلمون وقد نجوا من اسباب الفتنة فيختارون خليفة يولونهُ امورهم وترجع الخلافة الى بساطتها »

(١) تاريخ الخميس ج ٢

ولما سمع سعيد ذلك نهيب لعظم هذا المشروع ولم يصدق انهم يتفقون على القيام بهِ . ولاح لهُ لاول وهلة ان علياً اذا قتل رضيتْ قطام بهِ وان لم يكن قتلهُ على يدهِ ولكنهُ تذكر كلام جدهِ ووصيتهُ بان يدافع عن عليّ لبراءتهِ مما ينسبونهُ اليهِ فانقبضت نفسهُ . وما لبث ان شغل عن تلك الهواجس بما دار بين اولئك المتآمرين . فان المتكلم الاول لما فرغ من كلامهِ ولم يرَ من رفيقيهِ تلبية لم يصبر حتى يسمع جوابهما فقال لهما « لا تترددا ولا يهولكما الامر وهو اسهل ما يكون على ذي مروءة . وكاني بكما تفكران في كيفية اقتسام العمل وتخافان ان يكون نصيب احدكما اصعب مراساً من نصيب الآخر فلا تخافا اني اتعهد بقتل اكبر هؤلاء الثلاثة واشجعهم . انا اقتل عليًّا ابن ابي طالب فآتي الكوفة وان يكن مقامي في الفسطاط فاقتلهُ » قال ذلك واقبل حتى دنا من باب الكعبة وامسك بحلقتهِ وقال لهما « ها اني امسكت بحلقة الكعبة واقسم بالله وبهذا البيت الحرام اني اقتل علياً ابن ابي طالب ابذل في سبيل ذلك ما في وسعي واُشهد الله على ذلك »

فلما فعل ذلك نهض رفيقاه وقد اندفعا الى القسَم فامسك كل منهما بحلقة الباب واقسم احدهما انه يقتل معاوية بن ابي سفيان والآخر انه يقتل عمرو بن العاص

ولا تسل عن حال سعيد بعد ان تمَّ التعهد على هذا الفعل الخطير وود لو يعرف اولئك المتعاقدين ولكنهُ لم يرَ سبيلاً الى ذلك . على انهُ علم من خلال حديثهم ان المتعهد بقتل الامام علي من اهل فسطاط مصر

ثم رأى الثلاثة عادوا الى مجالسهم فقال احدهم وهو السمين القصير لقد تعاهدنا على قتل هؤلاء الائمة ولكننا لم نعين اليوم الذي نفعل فيهِ ذلك وان لم نعينهُ فشلنا جميعًا

فقال الثالث « وهذا رأيي انا ايضًا لاننا ان لم نعيّن اليوم كان المجال واسعًا ونخشى اذا سبق احدنا الآخر ولم ينجح او قتل او قبض عليهِ ان يخاف الباقيان ويرجعا . فلنعين اليوم والساعة

فقال الاوّل ان الساعة لا يمكن تعيينها ولكننا نعين الليلة فليكن عملنا في ليلة واحدة . في اي الشهور نحن الآن ؟

قالا في جمادى

قال فلكين موعدنا رمضان المبارك حتى لا نعيّد الفطر الاّ والمسلمون كافة في راحة وإذا قتلنا اقيناس سا وقد فعلنا ما علينا . فاختاروا ليلة من ليالي رمضان

قال الثاني « اني اختار الليلة السابعة عشرة من ذلك الشهر فما قولكم » (١)

قالوا « انها خير ليلة » ونهضوا وسعيد يخاف ان يمروا بهِ فيروهُ ولكنهم داروا حول الكعبة كأنهم يطوفون بها ولبث هو ينتظر عودتهم فلم يعودوا . فلما استبطأهم علم انهم خرجوا من باب آخر او داروا وتحولوا الى الباب الذي دخلوا منهُ . فرفع رأسهُ ونظر حولهُ فلم يرَ احدا ولا سمع صوتًا . فنهض وطاف حول الكعبة فتحقق انهم خرجوا . فجلس هنيهة يفكر في ما مرَّ بهِ وهو يحسب نفسهُ في حلم لغرابة ما رآه واتفاق حدوثهِ في الليلة التي اوصاهُ جدُّهُ فيها ان لا يقتل علياً . ونظر الى الافق فاستقبلتهُ الزهرة تتلألأ كأنها تبشره باقبال الفجر . وتذكر جدَّهُ فقال لاعودنَّ الى المنزل قبل ان يطلع النهار ويخرج الناس . فعاد يلتمس البيت

الفصل الحادي والعشرون

﴿ آخر العهد بأبي رحاب ﴾

ولما اقترب من المنزل خفق قلبهُ مخافة ان يكون جدُّهُ قد اصاب حتفهُ في غيابهِ فدخل الدار فرأى السكوت مستوليًا عليها فاستبشر والتمس الحجرة التي كان جدُّهُ نائمًا فيها فرأى المصباح لا يزال مضيئًا فاطلَّ من الباب فرأى عبدالله جالسًا بجانب الفراش وجدُّهُ نائم . فنظر الى عبدالله كأنهُ يستطلعهُ الحال فنهض لاستقبالهِ ووجههُ باشٌّ فاطمأن بالهُ وقبل ان يلقي التحية ابتدرهُ عبدالله قائلاً لقد شغلت بالنا بغيابك فان جدك افاق من نومهِ مرارًا والتمس ان يراك ونحن لا نعرف مكانك وقد ألحَّ كثيرًا في طلبك

قال وكيف هو الآن

قال هو في خيرٍ وقد رأيناه في راحة لم يذقها منذ ايام

(١) ابن الاثير ج ٣

ولم يتم عبدالله كلامهُ حتى رأى ابا رحاب يتحرك في فراشهِ فتقدم سعيد نحوهُ فاذا هو قد فتح عينيهِ واشار اليهِ بيده فدنا منهُ وجثا امامهُ يلتمس منه اشارة

فقال ابو رحاب ابن كنت يا ولدي فقد التمسناك مرارًا فلم نقف على مكانك

قال خرجتُ في حاجة الى الكعبة واتفق لي حادث شغلني عن المجيء حتى الآن

فمد الشيخ يده حتى قبض على يد سعيد وضغط عليها كأنه لا يريد ان يفارقه وسعيد صامت لا يبدي حراكًا لشدة تأثره من منظر جده الشيخ وقد شعر انهُ انما ضغط على يده ضغطة الوداع

فترقرقت الدموع في عينيهِ والتفت الى عيني جده فرآها غارقتين بالدمع وهما شاخصتان اليهِ فتفطر قلبه وهمَّ ان يتكلم فابتدرهُ جده قائلاً « اراني لا ازال في قلق على مستقبل حياتك واخشى ان لا تكون استوعبت نصيحتي فقد نصحتك وانا في آخر ايام الدنيا نصيحة اوحي اليَّ ان القيها اليك · وقد تركتني الليلة غارقًا في بحار الاحلام وكأن هاتفًا خوَّفني من غيابك · هل انت باقٍ على عهدي يا سعيد »

قال « لقد عاهدتك يا جداهُ عهدًا وثيقًا اني لا انوي شرًّا للامام علي ما حييت وانا باقٍ على عهدي وان يدك علمًا اني لقيت في الكعبة اناسًا يتآمرون على قتلهِ وقتل صاحبيهِ معاوية وعمرو في يوم عينوه وتعاهدوا عليهِ فلم يبق ثمت حاجة الى سعيي »

فبغت الشيخ وحملق بعينيهِ وصاح قائلا « ومن هؤلاء »

فقصَّ سعيد خبره مختصرًا وختم كلامهُ قائلاً « اني لم اعرفهم ولا استطعت اللحاق بهم خوفًا منهم لاني اعزل »

قال « ألم تعرف الذي تعهد بقتل الامام علي »

قال « كلاَّ ولكنني علمت من عرض كلامهِ انهُ من مصر ويغلب على ظني انهُ من الخوارج »

فصمت الشيخ برهة كأنهُ يفكر في امر هام ولحظ سعيد من شخوص عينيهِ وذبول اجفانهِ وتغيُّر سحنتهِ انهُ تعب · واما ابو رحاب فتجلد وقال وصوتهُ يرتجف وقد اصبح لا يستطيع التلفظ بكل مقطع من مقاطع الكلام كان لسانهُ اصيب بتلعثم قال « يا ليتني كنت بينهم لاقنعهم بالكف عن ذلك ··· ولو استطعتُ استمهال أجلي لسعيت في البحث عنهم فاذا عرفتُ الساعي في قتل الامام علي ارجعتهُ عن غيهِ بالبرهان ···

انهم والله ظالموهُ »... ثم سكت هنيهة ريثما يستريح وعاد الى الكلام هو يتلجلج ويقف عن الكلام عند كل شهيق من تنفسهِ . وكان تنفسه قد اسرع وظهر الاضطراب عليهِ فتحقق سعيد ان جده في حال النزع فارتعدت فرائصهُ وتحسع قلبهُ واسف لحالهِ ولكنهُ اصغى لتتمة حديثهِ فاذا هو يقول « وأما انت يا سعيد فاصغِ لقولي واعمل بنصيحتي ... ولا اقبل منك السكوت عن هذا الامر... واما انت ... مكلف بالبحث عنهُ ... انك مكلف بالبحث عن هذا ... الرجل في مصر ... والشام . والعراق حتى تعلم مقرَّهُ .... فاما ان تقنعهُ .... بالعدول . واما ان تنبئ .... الامام بامرهِ . اني ... القي ... هذا الامر ... على عاتقك ... فاحذر .... ان تتقاعد عنهُ . والاَّ فانك ... قاتلٌ علياً بيدك ... هذه وصيتي لك احتفظ بها ولا تتهامل او تتجاهل ... والله شاهد ... على ما اقول . هذه ... وصيتي الاخيرة بل ... هذه ... آخر كلمة افوه بها في هذه ... الحياة الدنيا ... وكنت مستغربًا استئخار أَجلي الى ... الساعة . وكنت احسبني ... ميتًا منذ ايام ولكن الله ... انما اراد بذلك ... ان أَكل اليك ... بهذا الامر .... هذه آخر وصيتي لك ... البحث ... عن هذا الرجل وارجعهُ ... عن غيهِ .. كما ارجعتك ولو أُوتيتُ ... عمرًا ثانيًا لقمت في بني امية ... وفي الخوارج .. خطيبًا اصرح ببراءة... الامام علي على رؤُوس الاشهاد . ولكن آه ... ان الساعة آتية ... لاريب ... فيها ... وها اني استودعك ... الله وآخر ... له .. ة . اقو .. لها لك . علي .... علي .. دا ... فع ... عن علي بيدك ... وقلبك ... ولسا ... ... لك .... »

ولم تخرج هذه الكلمات الاخيرة من فيهِ حتى اختنق صوتهُ ثم شهق شهقة دوى صوتها في اطراف المنزل وارتخت مفاصلهُ فافلتت يد سعيد من يده . ونظر سعيد الى جده فاذا هو قد أُغمض جفناهُ ووقف تنفسهُ ... فجسَّ يدهُ فاذا هي باردة فلمس جبينه فاذا هو كالثلج وقد فتح فاه وارسل نفسهُ الاخير وبطلت حركة الحياة فاصبح تمثالاً من تراب . فاقشعر بدن سعيد ولطم يدًا بيدٍ وصاح « جداه ياجداه .. واويلاه كلمني زودني نصيحة أُخرى ... » وما من مجيب فايقن بوفاتهِ وكان عبدالله قد خرج فعاد ولما رأَى ابا رحاب قد مات اخبر اهل المنزل فاجتمعوا وعلا النحيب والبكاء

ولم يكن الحزن على موت ابي رحاب شديداً لتوقعهم ذلك منذ ايام · ولكن سعيداً كان حزنهُ مضاعفاً لامتزاجه بالهواجس والاضطرابات بما سمعهُ من جدهِ مع ما هو مقيد بهِ من العهود في الضد من ذلك

الفصل الثاني والعشرون

رفيق جديد

وبعد الاحتفال بالدفن عاد سعيد الى صحوهِ وفكر في حالهِ فرأى نفسهُ في مشكلة لايدري كيف يتخلص منها · وبعد التأمل الطويل رأى المسألة مع اشكالها ليس اسهل من حلها اذا استطاع اقناع قطام ببراءة علي فتتنازل عن الانتقام · فلما فتح عليهِ بذلك توسم فيهِ خيراً واحسّ بانفراج الازمة فاعمل فكرتهُ في الاسلوب الذي يستولي بهِ على عواطفها ويغير اعتقادها بالامام علي حتى تسكت عن الطلب بثار والدها واخيها منهُ · فخيل لهُ عن بعد ان اقناعها ممكن فهدأ روعهُ نوعاً

واسرع في تدبير شؤون اهلهِ وكان في حملتهم شاب اسمهُ عبد الله رباه ابو رحاب كما ربى سعيداً وكان يتعزّى بهِ ويحبهُ وهو الذي ابعدهُ الى الكوفة لاستقدام سعيد فلما مات ابو رحاب تقدم عبد الله الى سعيد ان يأذن لهُ بمصاحبتهِ وبالغ في الحاحهِ واستهلك في سبيل مرافقتهِ · فتعجب سعيد لتلك الرغبة في السفر ولم يكن يعهد عبد الله ميالاً الى ذلك

والسبب في تلك الرغبة ان ابا رحاب كان من الدراية والفراسة بحيث لم يخفَ عليهِ ضعف سعيد فارسل انفاسهُ الاخيرة وهو يخاف عليهِ غدر الناس وخداعهم · ولكنهُ استدرك ذلك قبل موتهِ فاوصى عبدالله هذا ان يكون لهُ عوناً فيصحبهُ حيثما سار فينجدهُ ويرشدهُ وان يكن هو شاباً مثلهُ ولكنهُ كان اعرف منهُ باحوال الدهر واسوأ ظناً في ما جريات الايام

وبعد ايام ودّع سعيد اهلهُ واصطحب عبد الله وسارا يطويان الصحراء نحو الكوفة وعبد الله لايعرف شيئاً من علاقة سعيد بقطام ولا ما تآمر عليه الثلاثة في

المسجد الحرام . ولكنهُ فهم من وصية ابي رحاب ان سعيداً كان عازماً على قتل الامام فارجعهُ ابو رحاب عن عزمهِ . وسمع حديث سعيد عن المؤامرة ولكنهُ لم يتفهمها جيداً . فلما اوغلا في الصحراء فتح عبد الله حديثاً تطرقا منهُ الى مقتل الامام علي واستأنس سعيد بعبدالله وهو مخلص من فطرتهِ ففتح لهُ قلبهُ وكشف لهُ عن سره وارتاح لمشورتهِ . ولم يصلا الكوفة حتى اصبح عبد الله عارفاً بكل مكنونات قلبهِ فشاركهُ في شعورهِ من قبيل عهده مع قطام ورجوعهِ عنهُ فثبتهُ على وصية جده وهوَّن عليهِ اقناع قطام الى ان قال « فاذا لم تقتنع ليس اهون من ان تعدل عنها والنساء كثيرات وانا اختار لك فتاة من اجمل الفتيات خلقاً وخلقاً وارفعهن نسباً لا تفاس بها قطام » وكانا يتحادثان وهما على ناقتيهما يطويان الصحراء طياً

فقطع سعيد عليهِ الكلام قائلاً « لا لا تقل ذلك ليس في الناس اجمل من قطام عندي ولا صبر لي على اغضابها ويظهر انك لم تعان الحب ولا عرفت سلطانه » قال ذلك وتنهد . . . وصبر هنيهة ثم قال « وهب مع ذلك اني لا احبها ولا انا عالق بها فان في يدها صكاً مكتوباً اخاف اذا اغضبتها ان تشي بي الى علي او . . . ولكنني واثق بصدق مودتها فهي لا تريد بي سوءاً بل تبغي رضاي » .

فقال عبد الله اذا كانت تحبك كما تقول فليس اهون من اقناعها في العدول عن قتل الامام فيهون عليك البحث عن المتعهد بقتلهِ وتردعه عن غيهِ فاذا لم يرتدع قتلتهُ او نقلت خبرهُ الى الامام ليرى رأيه فيهِ

فارتاح سعيد لهذا الرأي

الفصل الثالث والعشرون

﴿ اللجاجة والسذاجة ﴾

واقبلا على الكوفة ذات يوم والشمس قد مالت الى المغيب وكان سعيد قد قضى ذلك النهار وهو يستحث ناقتهُ لعلهُ يدرك المدينة قبل الغروب ليتمكن من المسير الى بيت قطام اذ لا صبر لهُ على فراقها وهو على مقربة منها . فلما دنا الغروب وهو لم يدخل

الكوفة انقبضت نفسه وادرك عبد الله انقباضهُ مما آنسه فيهِ من السكوت التام فأراد ان يصرف ذهنهُ عن ذلك فقال « لهُ وهل نحن بعيدون عن منزلك »

قال « لا نلبث ان ندخل المدينة حتى ندنو منهُ لانهُ في اطرافها »

قال « اني أكاد لا اصدق بوصولي لاستريح من وعثاء السفر واتخلص من ركوب الجمال فقد اتعبني جريها وخصوصاً في هذا النهار »

قال « سعيد اني اراني في الضد من ذلك وتحدثني نفسي ان اصلي العشاء في المسجد قبل المبيت »

فادرك عبدالله انهُ انما يريد زيارة قطام ليطلعها على وصية جده ويرى ما يبدو منها اذا علمت بما عوَّل عليهِ فرأى ان يثنيهُ عن زيارتها ربما يفاوضهُ في الامر ويهيّئا الحيلة في مخاطبتها الا يفتلا لعلمهِ بسلامة نية سعيد فخاف عليهِ السقوط في ما يخشاهُ . فقال لهُ « دعنا نصلي العشاء معاً في المنزل ونصبح ان شاء الله فنصلي في المسجد »

فلم يراجعهُ سعيد حياء وقال لهُ حسناً رأيت . ولكنهُ عوَّل في باطن سره على الذهاب خلسة الى منزل العجوز لبابة يتجسس الحال

وما لمّا ان دخلا الكوفة وقد امسى المساء فالتمسا منزل سعيد فترجلا واغتسلا وصليا ثم تناولا العشاء وتظاهر سعيد بالنعاس فذهب كلٌ الى فراشهِ

وتربص سعيد ريثما ظن رفيقهُ نام فالتف بعباءتهِ وانسلَّ الى بيت لبابة وقضى طريقهُ يفكر بعبارة يبدأ بها الكلام . فوصل المنزل فرأى لبابة خارجة منهُ وقد تخمرت ومشت تتوكأ على عكازها فبغتت لرؤيتها وحياها فردت التحية وهي لاتصدق انها تراه . فلما تحققت انهُ سعيد رجعت وهي تبالغ في الترحاب بهِ وتضحك ضحكتها المعهودة . فاستأنس بلهجتها ثم ما لبث ان تذكر ما جاء بهِ من الامر الجديد حتى انكمش قلبهُ ولكنهُ تبعها حتى وقفا بباب الغرفة فأمرت عبدها ان يضيء المصباح وعادت الى مخاطبتهِ فسألتهُ عن ساعة وصولهِ . فقال « اني وصلت الساعة ومع شدة تعبي من السفر الطويل لم اصبر على مشاهدتك قبل المنام »

فقهقهت قهقهة دوى لها البيت وخيل لهُ لفرط قلقهِ ان عبد الله يسمعها فقال لها بصوت خافت « وما الذي يضحكك يا خالة »

قالت « لقد اضحكني شوقك الى رؤية هذا الوجه القبيح (واشارت الى وجهها) وانت انما تشتاق الى رؤية وجه اجمل منهُ .. اليس كذلك ... »

فقطع كلامها وهو يبالغ في خفض صوتهِ وقال « لا والله اني الآن في شوق اليك اكثر من شوقي الى قطام لاني وقعت في مشكل لا ارى احداً يخرجني منهُ سواك فاسعفيني برأيك ودهائك . وارجو قبل كل شيء ان تعتبري قدومي اليك الآن سرًّا تكتمينهُ عن كل انسان لان معي رفيقاً صحبني من مكة فلما وصلنا الكوفة ورأى فيَّ ميلاً الى الخروج اقعدني الى الصباح فاستحييت وبقيت فلما استغرق في نومهِ جئت خفية .. »

ولم يتم كلامه حتى جاء العبد بالمصباح فدخلا الغرفة وسعيد يقول « لقد عودتني يا خالة ان تكوني عوناً لي في مصائبي وانت التي بمهارتك ودهائك اقنعتِ قطاماً بزواجي فالتمس منك الآن ان تقنعيها بما جئت بهِ اليك »

فعجبت العجوز لاهتمامهِ الشديد ولو كان قلبها حياً لخفق واضطرب ولكنها تعودت الاهوال ولاقت الغرائب فلم يعد يخيفها امرٌ . فقالت « قل ما بدا لك اني مستودع اسرارك ولا آلو جهداً في خدمتك

فتنهد سعيد وسكت وهي تحدق فيهِ بعينيها الغائرتين . وبعد هنيهة قال لها « لقد جئتك بامر لا ادري كيف ابدأ الحديث بهِ »

قالت « قل لا تبال ولا تجزع فاني عركت الدهر ولقيت الاهوال حتى لم اعد استغرب امراً .. قل ما بدا لك »

الفصل الرابع والعشرون

كشف الأمر

قال سعيد انت تعلمين اني عاهدتُ قطاماً على قتل الامام علي

قالت نعم اعلم ذلك

قال وهل تعلمين لماذا خرجت الى مكة

قالت علمت انك شخصت اليها ولكنني لم اعلم سبب شخوصك

قال شخصتُ اليها اجابة لطلب جدي رحمهُ الله

قالت جدتك ابو رحاب ? ما الذي اصابهُ ?

قال انهُ مات بعد وصولي مكة بيوم واحد وكان قد بعث اليَّ ايراني قبل المات

قالت « مات ابو رحاب ! . رحمة الله عليهِ . انهُ كان رفيقًا بك شفوقًا عليك وانا اعلم كيف ربيتَ في حجرهِ وقد كان احنَّ عليك من الوالد . ولا شك ان موتهُ شق عليك كثيرًا . وكم كنتَ تودُّ ان يبقى حيًّا ليفرح بك ويشهد زواجك بعد ان يعلم بما تعهدت بهِ لتنقذ بني امية من العار و ..... »

فقطع كلامها قائلاً « آه يا خالة لقد كنت اظن ذلك قبل ان قابلتهُ ولكنني ما لبثت ان ندمت على ذهابي اليهِ لانهُ حمّلني قبل موتهِ حملاً لا ادري كيف انصرف بهِ »

قالت وماذا عسى ان يكون ذلك

قال ان ما ظننتهُ سببًا لارتياحهِ قد رأيتهُ داعيًا لغضبهِ

قالت هل اخبرتهُ بعزمك على قتل علي

قال « نعم اخبرتهُ ولكنهُ انكر عليَّ قتلهُ واوصاني وهو على فراش الموت ان لا أمد يدي الى هذه الجريمة لان سائقًا جاءهُ وانبأهُ ببراءة الامام علي مما يتهمونهُ بهِ »

وكان سعيد يتكلم ولبابة شاخصة اليهِ وقد اسفت لخيبة مسعاها ولكنها لدهائها ومكرها لم تبدِ حراكًا ولا اظهرت استغرابًا بل تشاغلت باصلاح خمارها تنتظر آخر الحديث

واما سعيد فكان يخاطبها وهو يتوقع بغتتها او غضبها فلما رآها صامتة مصغية تجرأ على اتمام الحديث فقال « ولما سمعت كلام جدي دافعتهُ فرأيت منهُ اصرارًا على رأيهِ وقصَّ عليَّ شيئًا كثيرًا من الادلة والشواهد المؤيدة لقولهِ »

قال سعيد ذلك وسكت وهو ينتظر ما تقولهُ العجوز فرآها لا تزال صامتة ولم يبدُ على وجهها شيء من الاستغراب فعطف بحديثهِ الى المؤامرة التي شاهدها في الكعبة ظنًّا منهُ انها توازن ما تقدم من الحديث الغريب . فلما سمعت قصة المؤامرة على قتل الامام عليّ وعمرو ومعاوية رأت فيها تعزية ولكنها اظهرت الاستخفاف بما تآمروا عليهِ واردت ان تحقق ما عوّل هو عليهِ فقالت « وهل علم ابو رحاب قبل موتهِ بتلك المؤامرة »

قال « نعم اني اطلعتهُ عليها قبل ارسال نفسهِ الاخير ببعض الساعة فلم يزدني الاَّ ثقلاً بوصية قالها وهو في آخر ساعات الدنيا . . . آه من تلك الوصية »

قالت وما هي

قال « انهُ اوصاني ان لا اكتفي بالكف عن قتل الامام علي بل يجب عليَّ ان ادافع عنهُ . فلم ارَ بدًّا من اجابة طلبهِ وانت تعلمين مركزي في مثل هذه الحال . . . ولكنني لم اعاهدهُ الاَّ بعد ان تفطَّر قلبي لدموعهِ التي كانت تنحدر على لحيتهِ وقد شخصت عيناهُ وتلعثم لسانهُ وتلجلج صوتهُ حتى خيل لي ان عظامهُ تتكلم . . »

الفصل الخامس والعشرون

غاية الدهاء

فلما تحققت لبابة عدولهُ عن عهده خافت اذا اظهرت لهُ الاستياء ان يبيح بامرها وامر قطام الى عليّ وهما في الكوفة فينتقم عليٌّ منهما فارادت ان تخادعهُ فتأخذ منهُ ولا تعطيهِ فقالت « ولماذا لم تعاهدهُ فان كلام مثل هذا الشيخ الجليل يعتبر خارجًا من افواه الملائكة »

فلما سمع سؤالها انشرح صدرهُ فابتسم وقال بكل بساطة « كيف لم اعاهدهُ وهل استطيع غير ذلك . ولكنني اعترف لك اني عاهدتهُ وخاطري منشغل بقطام وعهدها لعلمي ان ذلك العهد يحرمني منها . . » ثم عطف فقال « ولكنني لما تذكرت حبك لي وغيرتك عليّ هان الامر لديَّ وقلت ان ما يعسر على مثلي يهون على خالتي لبابة . . . بالله . . ألا ساعدتني على اقناع قطام بالعدول عن عزمها على قتل الامام علي انهُ والله بريءٌ مما اتهموهُ بهِ . . . بالله ساعديني واشفقي عليَّ فقد وقعتُ في حيرة بل هي مصيبة لا ينجيني منها سواك . . » قال ذلك وجثا امامها وهم بيدها وقبلها وقد كادت العبرات تخنقهُ

فتظاهرت تلك العجوز المحتالة بالحنوّ وتبسمت وهي تجذب يدها من بين يديهِ لتمنعهُ من تقبيلها واجلستهُ في مكانهِ وقالت « طب نفسًا يا بني اني فاعلة ما تريد وارجو ان يساعدني الله على اقناعها . . . »

فلما سمع سعيد قولها لم يتمالك عن الابتسام والدمع ملء عينيهِ اعجاباً بحنوها وفرحاً بنيل بغيتهِ التي لم يكن يتوقعها ولا بالمنام وفرح بمجيئهِ في تلك الليلة ومقابلة لبابة قبل مقابلتهِ قطام

اما لبابة فنظرت اليهِ وهي تحكُّ ما وراء اذنها برأس سبابتها كأنها تفكر في ما تختلقهُ من الاسباب لاقناع قطام وهي بالحقيقة تدبر حيلة لخداع سعيد ثم قالت « طب نفساً ولا تبالِ فاني اوكد لك الفوز اذا اطعتني . . . . » فابتدرها قائلاً « اني مطوع ارادتك في كل ما تامرين وهذا مالي وكل ما املكهُ بين يديك بالله اشفقي عليَّ »

وكان سعيد يتكلم ولبابة مطرقة . فسكت هو وظلت هي مطرقة ثم استأنفت الحديث بغتة فقالت « سبحان الله . . . لقد مرَّ عليَّ ايام وانا مستغربة ما يبدو لي من قطام على غير المعتاد والظاهر ان الكلام الذي فاه بهِ جدك في مكة اثر في قطام هنا او لا ادري ما هو هذا التاثير »

فاندهش سعيد بما سمعهُ وقال ماذا تعنين

قالت « اعني اني آنست في قطام تغيراً غريباً بعد ذهابك فانها لم تعد تذكر الانتقام قط وقضت اياماً عديدة كأنها في حيرة او كأن امراً طرأ عليها لا تتكلم الاَّ قليلاً فعسى ان يكون ما غيَّرك قد غيرها . وعلى كل حال كن في راحة وسكينة وانا ادبر الامر فلا تذكر انك جئت اليَّ ولا انك رأيتني قبل رؤيتها »

قال « بارك الله فيك . والله ان قضيت لي هذه المهمة لا ادري كيف اكافئك ولكنني انقدم اليك ان لا تذكري زيارتي هذه امام احد وخصوصاً رفيقي عبدالله »

قالت « سمعاً وطاعة فعليك اذاً ان تاتي غداً لزيارتها في منزلها واكون اناهناك ولا تزد على السلام والكلام . واحذر ان تذكر شيئاً يتعلق بهذا الامر الا اذا هي خاطبتك بهِ وسنرى ماذا يتم . . وهل تنوي اصطحاب رفيقك غداً »

قال « انهُ سيكون معي ولا باس من الخوض في الموضوع بين يديهِ لانهُ بمنزلة اخي »

قالت « حسناً فليكن كما تريد وفقنا الله لما فيهِ خيرك وراحتك »

فازداد سعيد اعجاباً بغيرتها وحنوها فقال لها « اسمحي لي ان اقبل يدك فاني لما فقدت جدّي الذي كان بمنزلة والذي حسبت نفسي صرت يتيماً ولكنني تحققت الآن من حنوك اني ما زلت مرموقاً بعين العناية . ها اني قد القيت الحمل على عاتقك

فدبري الامر كما يلوح لك » . قال ذلك وقبل يدها مرارًا ونهض ونهضت لوداعهِ وهي تقول لهُ « نم مرتاحًا وموعدنا اللقاء غدًا في بيت قطام »

خرج سعيد من عندها وقلبهُ يطفح سرورًا لنجاتهِ من شرٍّ عظيم . وما دري ما نوتهُ تلك القهرمانة من اساليب الخداع . فلما توارى عنها عادت الى غرفتها وعملت فكرتها الخبيثة في حيلة تنطلي عليهِ بحيث يصدق عدول قطام عن عزمها . ولولا خوفها من ان يشي هو بها او بقطام الى علي اذا انكرت عليهِ وصية جده لجاهرت بمقاومتهِ ولكنها رأت من الفطنة والدهاء ان تجاريهُ على رأيهِ وتحمل قطامًا على مشاركتها في ذلك ثم تحتالان في بقاء المؤامرة مكتومة حتى ينفذ المؤامرون عهدهم فيقتل عليّ . وما درت لبابة ان قطامًا اشد دهاء منها واعظم حيلة وانها ستزيد على ذلك وسيلة اخرى للفتك بسعيد على اهون سبيل

ولم تعد لبابة تستطيع رقادًا قبل مكاشفة قطام بالامر لتدبير الحيلة قبل مجيء سعيد فنهضت لساعتها وسارت الى قطام

الفصل السادس والعشرون

لقاء قطام

اما سعيد فانهُ خرج والفرح ملء فؤاده حتى اتى منزلهُ فرأى رفيقهُ لا يزال نائمًا لفرط تعبهِ فسرَّ لذلك سرورًا عظيمًا ومضى الى فراشهِ ولكنهُ لم يستطع رقادًا لشدة تأثرهِ فقضى ساعات يتقلب على الفراش وقد طال ليلهُ وهو يفكر في ساعة اللقاء غدًا ولا يصدق ان يلقى قطامًا على مثل رأيهِ . فلما تصور عدولها عن قتل علي كاد يطير من الفرح بما سينالهُ من الاقتران بها ثم يعترضهُ كلام جده وما كلفهُ بهِ من السعي في الدفاع عن علي وردع الساعي في قتلهِ فيختلج قلبهُ في صدره لهول ذلك الامر . ولكنهُ لم يكن شيئًا لديهِ بالنظر الى ما يتوقعهُ من السعادة بالحصول على قطام

ولم تغمض اجفانهُ الى الصباح ولم يكد ينام حتى افاق مذعورًا وقد رأى شعاع الشمس يسطع على جدار غرفتهِ فاسف لابطائهِ في الفراش والوقت ثمين فنهض لساعتهِ وخرج يلتمس عبدالله فاذا هو قد لبس ثيابهُ و وقف يصلي فصلى معهُ وهو لا يفقه ما يقول

فلما فرغ من الصلاة قال لهُ عبدالله لقد ابطأْت في رقادك يا اخا امية

قال انما ابطأْت لهول ما لقيناهُ من التعب في الطريق

فصدقهُ عبدالله وجلسا على الطعام وسعيد غارق في بحار الهواجس وقد ادرك عبدالله ذلك فيهِ ولكنهُ حسبهُ من قبيل الشوق الى قطام فقال لهُ الا تنوي الذهاب الى قطام

قال بلى ارى ان نسير اليها لعل الله ياخذ بيدنا ونرى منها انصياعاً للحق فتعدل عن عهدها

فاراد عبدالله ان يختبر ثباتهُ فقال « وهب انها لم تقبل بذلك فماذا تفعل . هل تبقى على عزمك ام ترجع عن وصية جدك »

قال سعيد « اننا نبذل جهدنا في اقناعها فاذا لم تقتنع ظللنا على عزمنا فان وصية جدي مقدسة »

فسرَّ عبدالله لثباتهِ وهو لا يعلم ان سعيداً لم يقل ذلك الاَّ بعد ما املتهُ بهِ لبابة من اقناع قطام ولولا ذلك لتردد في الجواب كثيراً وربما فضل البقاء على عهد قطام على احترام وصية جده لان غرامهُ بتلك الفتاة الفتانة غلب على كل جوارحهِ

فلما آنس عبدالله ذلك الثبات فيهِ استعجلهُ في الذهاب الى قطام مخافة ان يطرأ عليهِ ما يضعف عزيمتهُ . وكان عبدالله قد عوَّل في باطن سره اذا آنس فيهِ تردداً ان يثنيهُ عن الذهاب اليها . فلما فرغا من الطعام نهضا ومشيا يلتمسان بيت قطام

ولا حاجة بنا الى بيان ما جال في خاطر سعيد مما سيقاسيهِ ساعة اللقاء من الاضطراب ولكنهُ سار مطمئن الخاطر لما القتهُ اليهِ لبابة من المواعيد

ووصلا المنزل فاطلاَّ على الحديقة فاختلج قلب سعيد في صدره لتذكره الليلة التي لقي بها قطاماً هناك وما وقع لهُ معها من تبادل عبارات الغرام . فدخلا الحديقة وفيما هما يسيران بين النخيل رأيا لبابة واقفة بالباب وهي تبتسم . فلما رآها سعيد استبشر وتشدد فمشى ورفيقهُ يسير في اثره حتى دنوا منها فحياها سعيد كأَنهُ لم يرها بعد رجوعهِ . فسلمت عليهِ فقدم لها رفيقهُ فعرَّفها بهِ فرحبت بهما ودخلا حتى اقبلا على غرفة قطام فاذا هي واقفة الى نافذة تطلُّ على البحيرة وقد لبست جلباباً اسود فوقهُ خمار اسود فلما اقبلا ارخت خمارها وتحولت نحوهما فحياها سعيد وذكر اسم رفيقهِ لها وهو

يقول «لقد اتيت ومعي صديقي واخي عبدالله فانهُ انيسي ومساعدي»

فرحبت بهما ودعتهما للجلوس فجلسا وجلست هي وكلهم سكوت وبعد السكوت برهة تكلمت العجوز قائلة «لقد اوحشتنا ياسعيد بغيابك طول هذه المدة وقد اخبرنا ريحان انك اتيت يوم سفرك الى هذا المنزل فلم ترَ قطاماً فشغلت بالنا لسرعة ذهابك فعسى ان يكون خيراً

فتنهد سعيد وقال كلا انهُ لم يكن خيرًا يا خالة لاني ذهبت الى جدي ابي رحاب في مكة اجابةً لدعوتهِ على يد اخي عبد الله

فاظهرت لبابة البغتة وقالت وماذا عسى ان يكون سبب استدعائك

قال انهُ دعاني لاراه قبل موتهِ بعد ان هرم وغلب عليهِ الضعف والمرض ولما تحقق دنو اجلهِ اراد ان يراني قبل الممات فسرت ولم ألبث معهُ الاَّ ليلة ثم قضى نحبهُ رحمهُ الله

فتظاهرت قطام باستغراب الخبر كانها لم تسمعه قبلاً وقالت «هل مات جدك ؟ .. رحمة الله عليهِ وعزاك الله وابقاك» . ثم تنهدت كانها تذكرت فقيدها وقالت ان موت الاهل شديد الوطأة يا سعيد وخصوصاً اذا كان الميت لم يهرم مثل ابي رحاب

وكان عبدالله يراقب حركات قطام وكان قد سمع بجمالها فلم يلم سعيداً على افتتانهِ بها ولكنهُ خاف ان تبقى على عهدها فتخرج من نصيب سعيد فودَّ الاستطراق الى الموضوع ليرى ما يبدو منها ثم تذكر ان وجودهُ هناك لاول مرة قد يكون باعثاً على تجنب البحث في ذلك الموضوع فتظاهر بغرض يحتاج اليهِ خارجاً ونهض وخرج وخرجت لبابة في اثره اتماماً لحيلتها

الفصل السابع والعشرون

﴿ منتهى الدهاء ﴾

فلما خلت قطام بسعيد قالت له «ومن هو هذا الشاب هل انت واثق بهِ»

قال بنغمة المحب المفتون «انهُ رفيق صباي وموضع اسراري ولا اخشى باساً من

اطلاعهِ على كل شيء

قالت وهل اطلعتهُ على عهدنا

قال نعم ياحبيبتي وهل ترين ما يمنع ذلك

قالت كلاَّ لا ارى مانعًا ولكنني اودُّ انك لم تطلعهُ عليهِ لخاطر خطر لي بعد ذهابك الى مكة

فاستبشر سعيد بهذا الاستهلال فقال « لا ارى بأسًا في ذلك لاني اعرف ضميره ولي فيهِ ثقة تامة · وما الذي خطر لكِ »

قالت « ساقصهُ عليك وارجو ان تطاوعني عليهِ ولا تطالبني بما سبق بيننا من العهود »

قال قولي ما تريدين · وما تريدينهُ انما هو العهد الذي نتعاهد عليهِ · فاني رهين اشارتك

قالت اتذكر انك جئت الينا يوم سفرك ولم تجدني في البيت ؟

قال كيف لا اذكر ذلك وقد كان لهُ تأثير شديد عليَّ

قالت اتدري اين كنت يومئذ

قال كلاَّ

قالت خرجت الى اهلي لزيارة · ولم يكن غرضي مجرد الزيارة ولكنني بعد ان عاهدتك على قتل امير المؤْمنين شعرت بقلق واضطراب ولم اذق رقادًا تلك الليلة · فلما اصبحت قلت في نفسي لعل سبب هذا القلق ذنب ارتكبتهُ بما سعيت فيهِ على الامام وهو لا يستحقهُ · فلاح لي ان امضي بنفسي الى اهلي وابحث عن حقيقة الواقع فرأيت بعد البحث ان الذنب في قتل والدي واخي لم يكن ذنبهُ هو وتحققت انهُ بريءٌ وانهُ نصح لهما مرارًا قبل الواقعة ان يرجعا فابيا ولما احتدم النزال وعلم انهما تحت خطر القتل اوصى ان لا يصيبهما احد بسوء · ولكن بعض الاغرار قتلهما بغير علمهِ ولما علم هو بذلك غضب على القاتل وانتقم منهُ · فشعرت في تلك الساعة بارتكابي امرًا عظيماً بما نويتهُ وعوَّلت على تحويلك عما تعاقدنا عليهِ · فقضيت مدة غيابك وانا في حيرة لا ادرى كيف ابدأ باقناعك · وحفظت ذلك في سري حتى عن خالتي لبابة

ولم يتمالك سعيد عند سماعهِ ذلك عن الوقوف بغتة بغير ارادتهِ وقبل ان يجيبها على خطابها نادى عبدالله ولبابة فجاءا فالتفت سعيد الى عبدالله وقال لهُ تعالَ اسمع

يا اخي ما دبره الله لنا من اسباب السعادة . فاننا لم نتكلف في اقناع قطام الى مشقة . بل هي تريد اقناعنا بالعدول عن العهد الذي اخبرتك عنهُ

فاظهرت قطام الاستغراب وقالت وكيف ذلك يا سعيد وما الذي جئتنا بهِ عساه خيرًا

فتعرضت لبابة للكلام فقالت يظهر انك جئتها بمثل ما جاءتك هي بهِ

قال « نعم ياخالة واحمد الله على ذلك فاني جئت من مكة وقد اقتنعت ببراءة الامام علي وتقيدت بعهد عاهدت بهِ جدي ان لا اقتل عليًّا وكنت خائفًا ان لا توافقني قطام عليهِ وهي اذا لم تفعل ذلك كنت من اشقى الناس . فالحمد لله على ما جرى » وجلس يقص عليهم حديث جده ووصيتهِ فظهرت لوائح البشر والسرور على الجميع . ثم استطرد الى حديث المؤامرة فلما ذكر ان احد المؤامرين تعهد بقتل الامام علي تظاهرت قطام بالغضب وقالت الم تعرف من هو الرجل

قال لم اعرفهُ ولكنني علمت من سياق الحديث انهُ من فسطاط مصر

قالت امَّا وقد علمت بعزم هذا الرجل فاصبح السكوت عنهُ مشاركة لهُ في القتل فلا بد من ردعهِ او قتلهِ

فابتسم سعيد لذلك الاتفاق الغريب وقال « وقد فاتني ان اخبرك بان من جملة وصية جدي ان اسعى في ذلك جهدي »

فقالت « وهذا ما أراه انا ايضًا لان السكوت عنهُ اصبح جريمة ولكنني ارى ان يبقى امر هذه المؤامرة مكتومًا بيننا فلا نطلع عليهِ احدًا لئلاَّ يسبقنا احد الى اكتساب الفخر في رده او ان المؤامر اذا علم باشتهار امره ونحن لم نعرفهُ بعد يعجل بالقتل فيذهب سعينا عبثًا . الا ترى ذلك يا عبدالله ؟ »

فاندهش عبدالله من ذلك الاتفاق الغريب ولو علم زيارة سعيد للبابة لانكشف لهُ سر الحيلة ولكنهُ اخذ الامر على ظواهره فقال « لقد رأيت الرأي الصواب وها اني مستعد للسعي في ردع ذلك الرجل مع اخي سعيد »

قالت وما الذي تنويان فعلهُ

قال سعيد ارى ان نذهب الى الفسطاط ونبحث عن الرجل لنعلم من هو اولاً فاذا عرفناهُ هان علينا ردعهُ »

فقالت قطام وما الفائدة من ذهابكما وانتما لا تعرفان الرجل ولا تعلمان شيئًا من امره وكيف يتأتى لكما معرفة اسمه . هل ذهبتما الى الفسطاط قبل الآن وهل تعرفان احدًا هناك ؟ »

قال عبدالله اني اعرف الفسطاط ولكنني لم اقم فيها طويلاً ولا اعرف احدًا من اهلها ولكننا نبحث جهدنا

الفصل الثامن والعشرون

الاجتماعات السرية في عين شمس

فتقدمت لبابة وهي تظهر الاهتمام وكأنه قد فتح عليها برأي سديد فقالت « اجلسوا لاهديكم الى طريق يهوّن عليكم كل صعب »

فجلسوا جميعًا وكانوا لا يزالون واقفين

فقالت لا تسخروا برأيي لأني عجوز فاني اعرف من الاسرار ما لا يعلمه الاَّ الله . اعلموا ان في مصر من مريدي الامام علي احزابًا جمة اذعنوا لعمرو بن العاص بالرغم عنهم وهم صابرون على ما اصابهم من مقتل ابن ابي بكر وهم جماعة كبيرة لا يزالون ينوون الانتقاض اذا سمحت الفرصة . هل تعلمون ذلك ؟

قال عبد الله أهذا ما تفاخريننا بمعرفته ولا يجهله احدٌ من المسلمين فاني عالم به وباكثر منه

قالت وما الذي تعلمه فوق ذلك

فابتسم عبد الله ابتسام الاستخفاف وقال « اني اعلم امورًا كثيرة تلقنتها من جدنا ابي رحاب رحمهُ الله وقد اوصاني ان لا اطلع عليها احدًا غير اخي سعيد لانها تنفعه في جهاده بالدفاع عن امير المؤمنين »

فتوسمت لبابة من وراء ذلك سرًّا لانها لم تقل ما قالته الاَّ وهي ترجو الاطلاع عليه فهزت كتفيها والتفتت الى قطام التفاتة فهمت قطام مرادها فابتدرت عبد الله قائلة بنغمة الدلال « اذا كنت تلقنت ذلك سرًّا فاحفظهُ ولا تبح بهِ لاحدٍ من

الخوارج نظيرنا ٠٠٠ »

فخجل عبد الله من توبيخها اللطيف ونظر الى سعيد فرآه شاخصاً اليهِ كأنهُ يتوقع تصريحهُ بذلك السرّ بين يدي قطام لئلا تسيء الظن بهما

فقال عبد الله وفي كلامهِ لهجة الاعتذار « حاشا يا مولاتي ٠ اني لا اعني كتمان السرّ عنك بعد ان رأينا منك الموافقة على الدفاع عن امير المؤمنين بل بعد ان كنتِ انتِ الداعية الى الدفاع عنهُ ٠ ولكنني قلت ما قلتهُ ببساطة ولكي نتأكدي صدق نيتي اذني لي ان ابسط ذلك السرّ بين يديك ويدي خالتي لبابة » قال ذلك والتفت يمنة ويسرة كأنهُ يحاذر ان يسمعهُ رقيب او عدو فاصغى الجميع لسماع كلامهِ فقال « علمت من جدي رحمهُ الله ان في الفساط كما قالت خالتي جمهوراً كبيراً لا يزالون على دعوة الامام عليّ وهم متحدون قلباً وقالباً في القيام بنصرتهِ ولهم اجتماعات سرّية يجتمعون فيها للمفاوضة في الوسائل المؤدية الى ذلك » ولما بلغ الى هذا الحد تلعثم لسانهُ كأن شيئاً اوقفهُ عن اتمام الحديث وارتبك في كلامهِ فسكت

٠ وظهرت البغتة عليهِ وقد ندم على ما فرط منهُ وعوّل على الاقتصار على ما قالهُ فادركت لبابة المحتالة سبب توقفهِ فابتدرتهُ قائلة وهي تضحك « انعم بهِ من سرّ عميق لم يطلع عليهِ احدٌ اني لا اراك زدت على قولي حرفاً واحداً ٠ فقد قلتُ ان دعاة علي باقون على دعوتهِ فلم تزد على ذلك الاَّ انهم يجتمعون سرّاً ٠ وهذا امر مفهوم بالقرينة فكأنك ندمت على ثقتك فينا فبدأت بالحديث ثم قطعتهُ ولا ألومك على ذلك فانك لا تعرفنا قبل هذه الساعة »

فقطعت قطام حديثها قائلة « تقولين انك لا تلومينهُ واراك عاتبة عليهِ دعيهِ لئلاَّ يظننا راغبين في استطلاع سرهِ لغرض لنا ونحن انما نريد بعض ما يريدهُ عبدالله فلا حاجة لنا في سرهِ ولكننا نوصيهِ ان يقوم بموازرة سعيد في ما اوصاه بهِ جدهُ وهذا يكفينا » ثم وجهت كلامها الى سعيد قائلة « لقد سرّني من رفيقك محافظتهُ على السرّ حتى عن هذه الحقيرة التي بعد ان كانت اول الناقمين على علي اصبحت من اكبر المدافعين عنهُ وهب انهُ اراد افشاء ذلك السرّ فما نحن سامعون ما يقول اذ ربما وسوس لنا الشيطان فبحنا بهِ الى الاعداء ٠٠٠٠ »

فوقع كلام قطام في قلب سعيد موقع السهام وغلب عليهِ الحياء والتفت الى عبد

الله وقال « لاطاقة لي باحتمال هذا التأنيب يا عبد الله قل ما تعلمهُ سمعتهُ قطام ام لم تسمعهُ وما انا خارج من هذا المكان قبل ان اسمع بقية الحديث »

فندم عبد الله على ما فرط منهُ واصبح لايدري كيف يتخلص من حيائهِ وارتباكهِ ولما رأى الحاج سعيد هان عليهِ التصريح بما لديهِ وهو لايرى في ذلك لوماً عليهِ فقال « اراكم تتهمونني بذنب انا برائ منهُ فاني لم اتوقف عن اتمام الحديث ضناً بهِ على قطام بعد ان تحققت اخلاصها في الدفاع عن علي ولكنني صبرت ريثما استجمع كلام جدي بحرفهِ فاذا اذنت قطام تلوتهُ عليكم حالاً »

قال سعيد قل انها تريد واذا سدّت اذنيها عن سماعهِ فانا اسمعهُ

قال عبد الله « اخبرني ابو رحاب رحمهُ الله ان دعاة الامام علي يجتمعون سرًّا في معبد قديم خارج الفسطاط في مكان يعرف بعين شمس يتفاوضون فيهِ سرًّا في يوم الجمعة من كل اسبوع »

فسرَّت قطام ولبابة بالاطلاع على ذلك السرّ ولكن لبابة لدهائها ومكرها تظاهرت بالاستخفاف والانكار وقالت « أهذا هو سرُّك العظيم انهُ باطل لا يقبلهُ العقل »

فاغتاظ عبد الله لانكارها وقال وما الدليل على بطلانهِ ياخالة

قالت « نقول ان دعاة علي يجتمعون هناك كل جمعة ونحن نعلم انهم يعدون بالالوف فكيف يسعهم ذلك المعبد . وهب انهُ وسعهم فكيف يجتمع الالوف منهم كل اسبوع ولا يدري بهم عمرو بن العاص وعيونهُ مبثوثة في اطراف الفسطاط أليس ذلك باطلاً »

فسرَّ عبد الله لاستخفافها بكلامهِ اذ لايكون لافشائهِ تأثير وودَّ الوقوف عند هذا الحد فلم يرضَ سعيد بذلك بل أخذ على نفسهِ تفسير مقالهِ وهو يحسب انهُ اتى امرًا جديدًا فقال « ان عبد الله لايعني باجتماع دعاة علي انهم يجتمعون جميعًا كبارًا وصغارًا ولكنهُ يريد ان رؤساء العشائر وكبارهم هم الذين يجتمعون فقط » فضحكت لبابة وتظاهرت بالرد عليهِ فقطعت قطام كلامها قائلة « يظهر ياخالة انك انما تريدين المزاح فقد كلفتِ عبدالله الافشاء بالسر ثم جعلتِ تجادلينهُ ونحن كما قلنا لا يهمنا من الامر الاَّ الوصول الى الغاية المقصودة وهذا يكفي »

١٢١٢٦

الفصل التاسع والعشرون

عهد جديد

ثم وجهت قطام كلامها الى سعيد قائلة دع لبابة وتحريفها واسع في ما انت ساع فيهِ فسر الى دعاة علي حيث هم مجتمعون وهم يعينونك على البحث والتنقيب · ولا اوصيك الاّ وصية واحدة ذكرتها لك في بدء الحديث وهي ان تبقي هذا الامر مكتوماً بيننا عن كل انسان حتى نعرف من هو ذلك الخائن الذي يريد قتل الامام علي فاذا عرفناه اما ان نرده عن غيهِ او ان نرى رأينا فيهِ على ما تقتضيهِ الحال · اما اذا اشعنا خبره الآن فانهُ يبالغ في التستر وربما اسرع في انفاذ سهمهِ فيقتل امير المؤمنين غيلة ويذهب سعينا عبثًا · اما الآن فنحن على يقين انهُ لا يقوم على ذلك الا في ١٧ رمضان ونحن لا نزال بعيدين عنهُ · وزد على ذلك انك اذا حفظت هذا الامر مكتوماً وتفردت في البحث عنهُ كان الجزاء لك وحدك ولا اشك انهُ يكون عظيماً · ولا ارى فائدة من اطالة البحث · ولكي تحقق شدة رغبتي في الاسراع ابدل عهدي ابدالاً يسرك فعوضًا من ان يكون اقتراننا موقوفًا على قتل الامام علي فقد جعلتهُ وقفًا على انقاذهِ من القتل فاذا كنت تحبني (وهذا مما لا اشك فيهِ) بادر الى العمل وهذان عبد الله ولبابة شاهدان على ما اقول

وكان سعيد بعد ان تغير وجه المسألة يرجو ان يقترن بقطام قبل ذهابهِ في هذه المهمة · فلما سمع كلامها خجل من مراجعتها لئلاَّ يقال انها اشد رغبة منهُ في الدفاع عن علي فانطلت الحيلة عليهِ ولم يسعهُ الا اجابتها فقال « وهذا ما عوّلت عليهِ انا ايضا لكي يتم عقد النكاح على يد الامام نفسهِ بحول الله »

وكان عبد الله في اثناء ذلك صامتًا يسمع الحديث وقد خامره شك في كلام قطام وندم لتسرعهِ في افشاء السرّ فظل صامتًا لئلاَّ يقع في ما يزيد ندمهُ وشعر لساعتهِ بما اوتيتهُ تلك الفتاة من الدهاء · ولم يرَ خيرًا من اظهار ثقتهِ بها وتصديق لهجتها فأخذ يطري بغيرتها ويثني على صدق مودتها فقال لها « اني اعد اخي سعيدًا من اسعد خلق الله لتوفقهِ الى هذا النصيب فاطلب اليهِ تعالى ان يوفقنا الى ما نحن ساعون فيهِ »

ثم قال « وقد اصبتِ بوجوب كتمان ذلك عن كل انسان بارك الله فيك » والتفت الى لبابة فقال « وانت ياخالة نرجو ان تواصلينا بادعيتك الصالحة وآرائك الصائبة »

فقالت لبابة واما الرأي عندي فالاسراع في الامر فعليكما بالسفر حالاً الى مصر واطلبُ الى الله ان يوفقكما ويسهل طريقكما واذا أتيتما الفسطاط اطلبا عين شمس في يوم الجمعة ولا تعدمان من انصار امير المؤمنين من يرشدكما الى الباغي

وقضوا برهة في احاديث أُخرى ثم انصرف عبد الله وسعيد وفي نفس عبد الله شكوك لم يجسر على مكاشفة سعيد بها لما آنسهُ من اخلاصهِ لقطام وارتياحهِ الى مواعيدها ولكنهُ عوَّل على اغتنام فرصة يستطيع بها التسلط على افكارهِ

الفصل الثلاثون

الغدر الفظيع

اما قطام فحالما خرج سعيد وعبد الله من منزلها خلت بلبابة فقالت لها لبابة « لقد تمت لنا المعدات وان الانتقام على غير يد هذا الجبان. ان عليًّا سيُقتل لا محالة ولقد أحسنتِ بطاعتهِ ومسايرتهِ. واحسن ما رأيتهُ من دهائك تصبيره على الكتمان لانهُ لو اطلع علياً على خبر المؤامرة فشل المتآمرون ونجا عليٌّ من الموت »

فقطعت قطام كلامها قائلة « ولكن ذلك وحده لا يضمن لنا الفوز يا خالة وانا لم التمس منهُ الكتمان لهذا الغرض فقط ولكنني اردت ان يبقى خبر المؤامرة مكتوماً عن كل انسان حتى عن هذين الاموِيَّين »

قالت وكيف ذلك اني لم افهم مرادك

قالت « انكونين لبابة العجوز القهرمانة ويخفى مغزى كلامي عليك.. ما الفائدة اذاً من البحث عن مجتمع انصار علي. »

قالت اني لا ازال اجهل ما تريدينهُ قولي ما مرادك

قالت « مرادي ان ابعث الى عمرو بن العاص بخبر تلك الجمعية ويوم اجتماعها وهو لا ريب يبغتها ويقبض على رجالها وسيكون سعيد وعبد الله بينهم فاما ان يقتلها

او يسجنها فاذا قتلها ظلَّ امر المؤامرة مكتوماً عن كل انسان واذا سجنها ظلاً في السجن الى ما بعد ١٧ رمضان على الاقل فيكون قد نفذ السهم وانتقمتُ لقتيليَّ ولا يهمني بعد ذلك امرٌ »

فلما سمعت لبابة كلام قطام همّت بها وقبلتها وهي تقول « بورك فيك يا بنيَّة والله انك ابعد مني نظرًا واشد دهاء واذا احياك الله الى سني لم يعد ابليس يقوى على مكرك . . . » قالت ذلك وضحكت . وظلت قطام عابسة ولم تعبأ بضحكها ولكنها نادتْ ريحان خادمها فحضر وكان جالسًا في مكان بحيث يسمع ويرى ولا يراه احد فلما وقف بين يديها قالت لهُ « ألم يُقتل سيدك ظلمًا »

قال كيف لا واني مطالب بدمهما

قالت اتدري لما دعوتك

قال بلى انكِ دعوتني لتبعثي بي الى الفسطاط اخبر عمرًا ابن العاص بخبر هذين او بخبر مجتمعات العلويين . . أليس لذلك دعوتني ؟

قالت بلى اني دعوتك لمثل ذلك بورك بسوادك هذا وقت الحاجة اليك ولكنني اطلب اليك ان تبلغ عمرًا ذلك بدون ان تذكر اسمي واني واثقة بفطنتك فلا تخيب املي . اذهب الى مصر وابلغ الرسالة وجئني بقتل هذين او سجنها وانت حرٌّ لوجه الله

فاقطبَ ريحان حاجبيهِ وتظاهر بالعتاب وقال « ألا تعلمين يا مولاتي انك تهينيني بهذا الكلام بمن حيث تريدين سروري . اتظنين اني افضل الحرية على الاستعباد لك . فقد قلتُ قولاً واسمحي لي ان اقول مثلهُ . اني ذاهب لانفاذ مرامك فاذا انا فزت فيهِ رجوت ان تعديني بان لا تذكري الحرية قط »

فضحكت قطام واظهرت الاعجاب بشهامة ريحان وقالت سر يا اسمر انك والله خير من الف ابيض



الفصل الحادي والثلاثون

الفسطاط

هي مدينة عمرو بن العاص بناها سنة ٢ للهجرة بعد فتحه الاسكندرية . وسبب تسميتها بالفسطاط (الخيمة) ان عمراً لما فتح حصن بابل حيث هو دير مارجرجس الآن او دير النصارى بقرب مصر القديمة واستقرّ الصلح بينهُ وبين المقوقس نهض لفتح الاسكندرية وكانت خيامهُ منصوبة خارج ذلك الدير بين النيل وجبل المقطم فأمر بتقويضها والرحيل فجاءهُ من ينبئه ان في فسطاط الامير يماماً معششاً تحتهُ صغاره لا تستطيع الطيران فقال عمرو « لقد تحرمت بجوارنا اقروا الفسطاط حتى يطير فراخها » (١) فتركوا الفسطاط منصوباً حتى عادوا بعد فتح الاسكندرية فابتنوا الدور حولهُ . ولما تمت المدينة اطلق عليها اسم الفسطاط وهي اول مدينة بناها المسلمون في القطر المصري واتخذوها عاصمة ملكهم حتى بنيت القاهرة في القرن الرابع للهجرة فنقلت الحكومة اليها (راجع كتابنا تاريخ مصر الحديث)

وكانت الفسطاط في العام الاربعين للهجرة وهو العام الذي جاءها فيهِ سعيد ورفيقهُ عبد الله قد عمرت واقامت بها القبائل والافخاذ في خطط وحارات بنيت لهم . وكانت الفسطاط مستطيلة الشكل على ضفة النيل الشرقية طولها ميلان في ما يقرب من مصر العتيقة الآن . واما مكان مصر العتيقة فقد كان يومئذٍ مجرى النيل المبارك . وكان اذا جرى رست سفنهُ بباب دير النصارى حيث كنيسة المعلقة اليوم فكل ما بين الدير والنيل من اليابس وما أُقيم عليهِ من البناء انما حدث بعد الاسلام

وكان جامع عمرو الباقية آثاره هناك الى هذا اليوم مركز تلك المدينة وحولهُ انشئت الخطط والازقة والحارات . وكان اقربها الى الجامع المذكور دار عمرو او هما داران الدار الكبرى والدار الصغرى . وكان المسلمون اولاً ينزلون في الخيام فلما بنى عمرو دارهُ اهتم الناس في بناء المنازل . ولم يكن قبل الفسطاط هناك الاَّ بعض الديور للقبط متفرقة بين النيل والمقطم . وبنوا الخطط او الشوارع على اسماء

(١) ابن دقماق ج ٤

القبائل التي تألفت منها حملة ابن العاص في ذلك الحين ومن نزح بعدهم واوجههن جميعًا اهل الراية من قريش والانصار وخزيمة وغيرهم فبنوا لهم خطة سموها خطة اهل الراية ثم خطة مهرة وخطط لخم واللفيف والصدف من كندة وخولان فضلاً عن خطط غير العرب مثل خطة الفارسيين وهم من حضر الفتح من اهل فارس واصلهم من بقايا جندباذان عامل كسرى على اليمن قبل الاسلام اسلموا في الشام[1] ناهيك عن خطط اخرى لا تحصى فضلاً عن الشوارع والازقة والحارات

فترى مما تقدم ان الفسطاط لم يكن يقيم فيها في اول امرها غير المسلمين واما المسيحيون واليهود ممن كانوا هناك قبل الفتح فمن آثر البقاء تحت رعاية المسلمين اقام في الاديرة خارج الفسطاط واكبرها دير النصارى (او دير مار جرجس) وهو الحصن الذي حاصر فيه المقوقس ورجاله لما جاءهم المسلمون وكان يسمى حصن بابل او قصر الشمع. وربما اقام بعض القبط او اليهود في الفسطاط لتجارة او صناعة او كتابة لان عمرًا عهد الى القبط في بادىء الرأي كثيرًا من اعمال حكومته وابقى الدواوين تكتب بالقبطية وما زالت كذلك الى امارة عبد الله بن عبد الملك بن مروان فابدلت بالعربية

وكانت مدينة عين شمس (المطرية) شمالي الفسطاط خربة لم يبق من ابنيتها الشامخة ومعالمها الرفيعة الاَّ بعض الجدران الغليظة او الاعمدة الضخمة والمسلاَّت من بقايا الهياكل الفرعونية وهي مهجورة لا يقيم فيها احد فاذا احتاج الناس الى حجارة او اعمدة يبنون بها دارًا كبيرة او جامعًا حملوها من انقاضها

الفصل الثاني والثلاثون

سعيد وعبدالله

اما سعيد وعبد الله فانهما تأهبا للرحيل في ذلك اليوم واصبحا على راحلتيهما وخرجا من الكوفة يلتمسان الفسطاط وهما لا يعلمان ما اعدته لهما قطام من المكائد . وسارا يجدان السير يوصلان الليل بالنهار حتى اقبلا في فجر يوم جمعة على الفسطاط فاطلاَّ

(١) ابن دقماق ج ٤

عليها من سفح المقطم فاذا هي ممتدة على ضفة النيل على مسافة طويلة ووراءها النيل يجري وفيهِ السفن راسية تحمل الاغلال والاحمال بعضها قادم من الصعيد والبعض الآخر صاعد من الشمال · وفي وسط المدينة جامع عمرو حولهُ الابنية والدور فوقفا هنيهة يبحثان في الخطة التي يجب ان يسيرا عليها في اتمام مهمتهما

فقال عبدالله ها اننا امام الفسطاط الآن وقد طلع فجر الجمعة الذي يجتمع فيهِ دعاة امير المؤمنين في عين شمس على ما نعلم · فهل نظلُّ هنا حتى نسير توًّا الى عين شمس ام ننزل الفسطاط ثم نخرج منها الى عين شمس

فقال سعيد وما الداعي لبقائنا هنا وقد يكون في بقائنا مظنة سوء ونحن لا يعرف احد الاَّ اننا من دعاة معاوية وزد على ذلك اننا لا ندري الساعة التي ينعقد فيها ذلك الاجتماع تمامًا وانما علمنا باجتماعهم في يوم الجمعة فهل هو في الصباح او المساء او اي متى ؟

قال عبدالله لست على يقين من ساعة الاجتماع ولكنني اظنهم يجتمعون بعد صلاة العصر الى المساء وعلى كل لا ارى بأسًا من النزول الى الفسطاط نصلي الصبح فيهِ ونجعل دوابنا في مأوى تستريح فيهِ · ثم اخرج انا للبحث عن ساعة الاجتماع ومكانهِ واعود اليك فنسير معًا

قال سعيد لقد رأيت الرأي الصواب

ونزلا بناقتيهما حتى دخلا المدينة وهي يومئذٍ آهلة بالناس وقد اذَّن المؤذنون يدعون الناس الى صلاة الصبح فأتيا المسجد وامامهُ ساحة كبرى تقف فيها الدواب تشد الى اوتاد او نخيل · فربطا الراحلتين ودخلا المسجد للصلاة وكانت الشمس قد أضحت وتقاطر المسلمون افواجًا فدخلا في جملة الداخلين

الفصل الثالث والثلاثون

عمرو بن العاص

ولم يكد يستقر بهما الجلوس حتى رأيا الناس في حركة وجلبة وقد فتح باب في بعض جوانب المسجد دخل منهُ رجال في ايديهم السياط يزجرون الناس · وقال سعيد من

هم هؤلاء . فقال عبدالله انهم الشرطة ينحون الطريق للامير . ولم يكد عبدالله يتم كلامهُ حتى دخل رجل ربعة قصير القامة وافر الهامة ادعج ابلج عليهِ ثياب موشاة كأنهُ العقيان تأتلق عليهِ حلة وعمامة وجبة عرفنا انهُ عمرو بن العاص فصعد المنبر والناس ينظرون . فحمد الله واثنى عليهِ وصلى على النبي (صلعم) ووعظ الناس وامرهم ونهاهم وجعل يحضهم على الزكاة وصلة الارحام ويأمر بالاقتصاد وينهى عن الفضول وكثرة العيال واخفاض الحال في ذلك الى ان قال يا معشر الناس اياكم وخلالاً اربعاً فانها تدعو الى النصب بعد الراحة والى الضيق بعد السعة والى الذلة بعد العزة اياكم وكثرة العيال واخفاض الحال وتضييع المال والقيل بعد القال في غير درك ولا نوال . ثم انهُ لابدّ من فراغ يؤول اليهِ المرء في توديع جسمهِ والتدبير لشأنهِ وتخليتهِ بين نفسهِ وبين شهواتها ومن صار الى ذلك فليأخذ بالقصد والنصيب الاقل ولا يضيع المرء في فراغه نصيب العلم من نفسهِ فيحوز من الخير عاطلاً وعن حلال الله وحرامهِ غافلاً . يا معشر الناس انهُ قد تدلت الجوزاء وذلت الشعرى واقلعت السماء وارتفع الوباء وقل الندى وطاب المرعى ووضعت الحوامل ودرجت السخائل وعلى الراعي بحسن رعيتهِ حسن النظر فحيّ لكم على بركة الله تعالى الى ريفكم فنالوا من خيره ولبنهِ وخرافهِ وصيدهِ واربعوا خيلكم واسمنوها وصونوها واكرموها فانها جنتكم من عدوكم وبها مغانمكم واثقالكم . واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرًا واياكم والمومسات والمعسولات فانهنّ يفسدن الدين ويقصرن الهمم . حدثني عمر امير المؤمنين انهُ سمع رسول الله صلى الله عليهِ وسلم يقول ان الله سيفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيرًا فان لهم فيكم صهرًا وذمة فكفوا ايديكم وعفوا فروجكم وغضوا ابصاركم . ولا اعلمن ما اتى رجل اسمن جسمهُ واهزل فرسهُ . واعلموا اني معترض الخيل كاعتراض الرجال فمن اهزل فرسهُ من غير علة حططتهُ من فريضتهِ قدر ذلك واعلموا انكم في رباط الى يوم القيامة لكثرة الاعداء حولكم وتشوّف قلوبهم اليكم والى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية . وحدثني عمر امير المؤمنين انهُ سمع رسول الله صلى الله عليهِ وسلم يقول اذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفًا فذلك الجند خير اجناد الارض فقال لهُ ابو بكر رضي الله عنهُ ولمَ يارسول الله قال لانهم وازواجهم في رباط الى يوم القيامة فاحمدوا الله معشر الناس على ما اولاكم فتمتعوا في ريفكم ماطاب لكم فاذا يبس العود وسخن

الماء وكثر الذباب وحمض اللبن وصوّح البقل وانقطع الورد من الشجر فحيّ الى فسطاطكم على بركة الله ولا يقدمن احد منكم ذو عيال الاّ ومعهُ تحفة لعيالهِ على ما اطاق من سعتهِ او عسرتهِ اقول قولي هذا واستحفظ الله عليكم[1] انتهى

وكان عمر يخطب والناس يسمعون وقد تخشعوا لما قالهُ من الاوامر والنواهي . فقال سعيد لعبدالله همساً والله انهُ لنعم الامير وشلّت يد تقتلهُ اني والله منذرهُ بذلك متى دنا الاجل المضروب فلم يجبهُ سعيد مخافة ان يلحظ احد شيئاً مما هما فيهِ

وبعد تمام الصلاة خرج الناس وخرج عبدالله وسعيد واجتمعوا في ساحة المسجد خارجاً وتعارفوا فعرف عبدالله رجلاً من غفار كان لهُ معهُ صداقة فدعاه وسعيداً الى منزلهِ ليقيما عندهُ فاعتذرا فالحّ عليهما فسارا معهُ لئلاّ يوجب ابتعادهما شبهة فانزلهما في منزل لهُ في خطة اسمها خطة خارجة بن حذافة فامر الغفاري عبداً لهُ استلم الراحلتين وسار بهما الى المربط ودخل بالضيفين الى غرفة لم يريا فيها نافذة الاّ كوة في اعلاها فعجبا وهمّ عبدالله بالاستفهام عن ذلك واوقفهُ التأدب ولحظ الغفاري استغرابهُ فقال لهُ لا تعجب لحال هذه الغرفة فان كذلك سائر ابنية الفسطاط .

فقال عبدالله اني والله يا اخا غفار لفي عجب عجاب مما ارى فما الذي دعا الى هذه الاقفال . فقال الغفاري اعلما ان خارجة بن حذافة صاحب شرطة مولانا الامير عمرو ابن العاص هو اول من ابتنى غرفة في الفسطاط . فلما علم بذلك امير المؤمنين عمر ابن الخطاب يومئذٍ كتب الى الامير عمرو بن العاص ان « ادخل غرفة خارجة وانصب فيها سريرًا واقم عليهِ رجلاً ليس بالطويل ولا بالقصير فان اطلع من كواها فاهدمها » ففعل ذلك عمرو فلم يبلغ الكوى فاقرها[2] فلم يجسر احد ان يبني غرفة بعد ذلك الاّ على هذا الوصف وهو بالحقيقة اصون للحجاب

الفصل الرابع والثلاثون

﴿ عين شمس ﴾

ثم جاءهما الغفاري بالزاد فتناولاه وبعد الاستراحة التمسا الخروج لبعض المهام

---

(١) المقريزي ج ٢ (٢) ابن دقماق ج ٤

وهما انما يريدان الخلوة للنظر في ماجاءا من اجله فخرجا ومشيا في وسط المدينة يتظاهران بالتفرج بمشاهدة ما فيها من الحوانيت والبيوت حتى خرجا منها فقال سعيد اننا في نحو الظهر وما العمل

فقال عبدالله دعني اسير وحدي الى عين شمس فانها على بضعة اميال من هذا المكان حيث ترى هذه الخرائب وامامها هاتان المسلتان (واشار اليهما باصبعه) فابحث عن مكان الاجتماع فاذا عثرت عليه جئتك على عجل . فاين الملتقى

قال اني اقيم في المسجد حتى تعود اليّ واحذر ان تطيل غيابك

فسكت عبدالله ولبث برهة يفكر ثم قال واذا ابطأت في الرجوع اليك فاطلب عين شمس وانتظرني بقرب هاتين المسلتين اللتين تراهما قائمتين هناك وانا آتيك او ابعث من يدعوك اليها

قال حسنًا وافترقا وسار عبدالله يلتمس عين شمس وقد جعل وجهته اليها المسلتين وكانتا ظاهرتين عن بعد . وعاد سعيد الى الجامع

. اما عبد الله فسار حتى اقبل على عين شمس فاذا هي عبارة عن اخربة ليس فيها من الابنية الاّ الجدران والاعمدة فطاف بين خرائبها فلم يرَ احدًا ولا سمع صوتًا وقضى في ذلك ساعتين يتردد بين تلك الجدران ثم يعود الى حيث بدأ فلم يرَ اثرًا للآدميين فظن نفسهُ اخطأ المكان او ساء فهم ما بلغهُ من امر ذلك الاجتماع حتى كاد يهمُّ بالرجوع وقد خاب ما أمّلهُ وخيل لهُ ان دعاة علي ابدلوا مجتمعهم هناك بمكان آخر

فاسند ظهرهُ الى جدار ووقف يفكر في ماذا يفعلهُ وقد مالت الشمس نحو المغيب فرأى رجلا قادمًا من الشطاط فتشاغل عبدالله نفسهُ بمشاهدة بعض ما هو محفور على تلك الآثار من الرسوم الهيروغليفية كأنهُ يعجب لغريب صنعها ريثما يمرّ الرجل ويمضي . وكان يتظاهر بالنظر الى تلك الرسوم وهو بالحقيقة يختلس النظر الى ذلك المار . وكان الرجل يظهر تارة ويختفي تارة اخرى في مروره بين الاعمدة والخرائب ثم اختفى ولم يعد يظهر

الفصل الخامس والثلاثون

الاجتماع السري

فعجب عبد الله لامرهِ وقال في نفسهِ لابد ان يكون هذا الرجل من جملة اهل ذلك الاجتماع السرّي وقد نزل في نفق او نحوهِ . فالتمس المكان الذي ظنّهُ اختفى فيهِ فوجد هناك منحدرًا يظهر لاول وهلة انهُ مسدود فنزل فيهِ وهو يخطو الهوينا حتى انتهى الى ظلمة دامسة فوقف واصاخ بسمعهِ فسمع لغطًا عميقًا فاستبشر بالوصول الى المكان المطلوب ولكنهُ لم يكن يعرف مدخل تلك المغارة وخاف ان يستغشهُ القوم فيقتلوه

فوقف برهة يتردد بين ان يسير متلمسًا او يرجع فيأتي بسعيد . ثم رأى ان يتحقق المجتمع قبلاً ثم يعود فخطا بضع خطوات وهو لا يرى شيئًا امامهُ فلطم راسهُ بالسقف فحنا ظهره وداهمهُ العطاس لرطوبة الهواء فعطس عطسة دوى لها المكان وما شعر الاّ وقد ظهر نور ضعيف وتقدم بضعة رجال كلهم ملثمون وعليهم اردية سوداء تزيدهم وحشة فقبضوا عليهِ وهو لايبدي حراكًا . ونزلوا بهِ في ذلك الدهليز الى قاعة تحت الارض واسعة وكل جدرانها وسقفها مغطاة بنسيج اسود مما يجعل المنظر رهيبًا ولولا شمعات مضيئة في بعض جوانب المكان لكانت الظلمة لاتطاق لكثافتها . ونظر عبدالله الى ما حولهُ فرأى في وسط القاعة دكة مغطاة بملاءة سوداء لم يدرِ ما تحتها ولكنهُ لم يستطع التأمل وقد احدق بهِ بضعة عشر رجلاً التحفوا العبي تحتها السيوف وكلهم ملثمون . فخاطبهُ واحد منهم يسألهُ عما يريدهُ

فقال اني جئت اشارككم في ما انتم فيهِ

قال وما ادراك ما نحن فيهِ

قال علمت انكم تدعون الناس الى نصرة الامام علي أليس ذلك ما تدعون اليهِ

قال وما شأنك وذلك

قال شأني هو شأنكم . لاتسيئوا الظن بي اني قادم من الكوفة لهذه الغاية

فقال لهُ رجل آخر كيف تكون امويًا وتدعي نصرة الامام علي

فاشتبه عبد الله بصوت مخاطبهِ انهُ صوت صديقهِ الغفاري الذي نزل عنده في ذلك الصباح

فقال لهُ ألست انت صديقي الغفاري · اصدقني ولا تخف اني والله جئتكم بخبر هام اذا اشركتموني في امركم اطلعكم عليهِ وتحققتم صدق قولي

فقال الغفاري اذا كنت صادقًا في ما تقول تعال معي · ومشى فتبعهُ الى الدكة في وسط القاعة و رفع عنها الملاءة السوداء فاذا هناك مصحف فوقهُ سيف مسلول وقال لهُ ضع يدك على هذا السيف واقسم بالله العظيم انك حليف للامام علي تنصر نصيره وتحارب عدوه

فوضع عبد الله يده على المصحف والسيف معًا فشعر ببرودة السيف فارتعشت انامله ولكنهُ اقسم لهم كما ارادوا

ثم قاده بيده الى دكة اخرى رفع غطاءها وتناول عنها قارورة فيها مسحوق اسود كانهُ الكحل فاشتاق عبد الله لمعرفة ما فيها فقال وما هذه · قال هذه قارورة فيها بقية من رماد ابن ابي بكر الذي احرقوه بالنار ظلمًا فاذا شئت الهداية ونصرة الحق كما تدعي وجب عليك ان تكتحل بهذا الرماد وتبكي ذلك القتيل المظلوم وتعاهدنا على الاخذ بثاره · فهل انت قابل بذلك باقٍ على قسمك ؟

قال اني باقٍ على ما تريدون وقد قلت لكم الصدق فلا تستغشوني

فتقدم اليهِ صاحبهُ ففتح القارورة وادخل فيها ميلاً علق عليهِ بعض الرماد فاعطاه الى عبد الله فاكتحل بهِ فهاجت عيناهُ وانسكب الدمع بالرغم عنهُ فشاركهُ الرفاق بالبكاء

ثم ازاح الغفاري لثامهُ وقال لهُ نعم اني صديقك كما قلت ولكن اعلم انك اذا كنت على غير ما تقول فاني اكون عدوك اهدر دمك بحد هذا السيف · قل ما بدا لك

فلما اطمأن عبدالله تذكر سعيدًا فقال ولكن لي رفيقًا اريد ان ادعوه اليكم ليشهد ما نحن فيهِ ويشاركنا في هذا الجهاد

فقال لهُ الغفاري انك غير خارج من هذا المكان الاَّ بعد خروجنا جميعًا فقل ما تريدهُ

فاطاعهم وقال « لا تعجبوا اولاً لاني اموي . وقد اصاب صاحبي الغفاري باني من انصار معاوية وقد كنت مطالباً بدم عثمان ولكن طرأ عليَّ طارىء ساقصهُ عليكم اما الآن اخبركم اولاً اني قادم من الكوفة وقد علمت ان امير المؤمنين علي بن ابي طالب قد جمع رجالهُ هناك فاجتمع منهم حولهُ اربعون الف مقاتل (١) وكلهم مستعدون للنزال وبذل المال والرجال في هذا السبيل »

فقالوا ان رجالنا يعدون بالآلاف ونحن وهم واموالنا وكل ما نملكهُ تهدر حلالاً في نصرة الامام ابن عم الرسول

وهمَّ عبد الله باتمام الحديث فاعترضهُ احدهم قائلاً عرفناك اموياً من الد اعداء الامام كما ذكرت فما الذي حملك على نصرتهِ حتى خاطرت بنفسك وجئت هذه البلاد

فاخذ يقص عليهم حديث ابي رحاب ولكنهُ لم يكد يقول كلمتين حتى سمعوا وقع حوافر الخيل فوق رؤوسهم وقد ارتج المكان فوقهم بالجلبة فانصتوا ووقع الرعب في قلوبهم وخيّل لهم انها دسيسة من عبد الله فهموا بقتلهِ ولكنهم ما لبثوا ان رأوا انوار المشاعل منبعثة من مدخل الدهليز وقد انهالت الشرطة عليهم فأرادوا الدفاع عن انفسهم فلم يفلحوا فشدوا وثاقهم وساقوهم في ظلام الليل الى الفسطاط

الفصل السادس والثلاثون

❋ السجينة الامينة ❋

ومكث سعيد في الجامع حتى دنا الغروب ولم يعد عبد الله فتردد برهة بين ان يذهب الى عين شمس او ينتظر عود عبد الله . ثم غربت الشمس فلم يربدًّا من المسير الى عين شمس كما اوعز اليهِ . فخرج من الفسطاط وجعل المسلتين وجهتهُ والظلام يكاد يحجبهما عنهُ فمشى وقد اوجس خيفة من ابطاء عبد الله ولم يعد يرى المسلتين الاَّ اذا برزتا في الافق . ثم اختفتا ولم يعد يراهما وخاف ان يضل الطريق . وفيما هو في ذلك سمع دبيباً وقرقعة كأن جنداً قادماً وراءهُ فتنحى عن الطريق فاذا

(١) ابن الاثير ج ٣

بكوكبة من الفرسان مرت بهِ مسرعة تلتمس عين شمس فاضطرب وخاف الدسيسة · والتفت الى يمينهِ فرأى بيتًا قائمًا في بستان · فلاح لهُ ان يتحول اليهِ يستفهم اهلهُ عن الطريق فلما دنا منهُ سمع صوتًا خارجًا من بعض جوانبهِ استوقف انتباههُ فوقف واصاخ بسمعهِ فسمع صوتًا رخيماً يمازجهُ بكاء ولم يرَ هناك نورًا ولا رأى احدًا في البستان فالتمس باب البيت فاذا هو موصدٌ وقد وضح لديهِ صوت الباكي فتنصت فسمع صوت امرأة تبكي وتقول « ألا تخاف الله يا ظالم اما كفاك ما واطأْت عليهِ من قتل البريء حتى رميت الوفا من الناس تحت خطر القتل الفظيع · · · هل من ينبئُ هؤلاء الابرياء بما وشوا بهِ عليهم فينقذهم من خطر الموت »

فلما سمع سعيد تلك العبارات اقشعر بدنهُ ولم يعد يصبر على استطلاع سبب ذلك البكاء · فقرع الباب قرعًا خفيفًا فانقطع الصوت بغتة فصبر هنيهة وكرر القرع ويدهُ ترتعش من شدة التأثر فلم يسمع شيئًا فازداد شوقًا لاستطلاع ذلك السر ولكنهُ خاف ان يقع في مكيدة وهو غريب هناك فلبث رهة والهواجس تتقاذفهُ وقد حدثتهُ نفسهُ ان بين ما سمعهُ وبين ما يسعى في البحث عنهُ علاقة كبرى · وكان الفرسان الذين مروا بهِ قد بعدوا عنهُ ولم يعد يسمع من وقع حوافر افراسهم غير الدوي البعيد · فايقن انهم يلتمسون عين شمس ولم يفهم سبب ذهابهم اليها في ذلك الليل · وبعد التأمل بما سمعهُ ورآه اعتقد ان في الامر سرًّا يهمهُ الاطلاع عليهِ

فهزَّ الباب بيدهِ هزًّا شديدًا كأنهُ يريد فتحهُ بالعنف فلم ينفتح لانهُ موصد ولم يعد يستطيع صبرًا والوقت ضيق فقال بصوت خافت « هل في المنزل احد يفتح الباب اني غريبٌ ضللت عن الطريق »

فاجابهُ الصوت من الداخل « ليس في البيت سواي والباب مقفل لا سبيل الى فتحهِ »

فازداد سعيد دهشة واستغرابًا وقال « من انت ايها المخاطب اني اراك في ضيق فهل من سبيل الى انقاذك »

فأجابهُ الصوت « يا حبذا ذلك اذا استطعتهُ اني حبيسة بالرغم عني · مَن انت »

قال « قلتُ لكِ اني غريب ضللت عن الطريق اريني وجهك او ارشديني الى وسيلة افتح بها الباب »

قالت « عالج الاقفال بالعنف لعلك تستطيع فتحها فتنقذني وربما انقذت الوفا من الناس معي »

الفصل السابع والثلاثون

﴿ الشك واليقين ﴾

فثارت الحمية في رأسهِ واستلّ خنجرهُ وجعل يعالج الاقفال وهي تساعده من الداخل حتى فتح الباب فبرزت منهُ فتاة محلولة الشعر عليها رداء اهل الفسطاط ولما رأت سعيداً قالت من انت اصدقني الخبر

قال بل انت اصدقيني ولا تخافي لقد سمعتك تندبين الوفا من الناس فمن هم اولئك الالوف

فتفرست فيهِ وتفرس فيها فلم يعرفها ولا عرفتهُ لشدة الظلام

فقالت لهُ من قال لك اني اندب الوفا

قالت سمعتك باذني . افصحي ولا تخافي

قالت وما يهمك من امر هؤلاء الالوف

قال « اخاف ان اكون أنا منهم ... »

قالت وما الذي جاء بك الى هذا المكان

قال كنت ذاهبًا الى عين شمس فتهت وجئت هذا المنزل لاسأَل اهلهُ عن الطريق فسمعت بكاءك ويحدثني قلبي ان حديثك يهمني . قولي لقد نفد صبري

قالت اني اخاف العيون ولا اثق باحد بعد ان غدر بي والدي ... فكيف اثق بالغرباء

قال رب غريب اقرب من القريب قولي لا تخافي

وفيما هما في ذلك سمعا وقع الحوافر وصوت الضوضاء من ناحية عين شمس فدخلت الفتاة الغرفة وجرت سعيداً بثوبهِ ولم تنه بكلمة فدخل في اثرها وقد تولتهُ الدهشة ولبث صامتًا . ولم تمض برهة حتى دنت الضوضاء منهما وسمعا من بين الاصوات.

قائلاً يقول « لقد وقعتم في ايدينا ايها الخائنون وعرفنا دسائسكم » وسمعا لفظاً كثيراً من هذا القبيل فظلاً صامتين حتى مرَّ الفرسان كلهم و هم يسوقون جماعة من المشاة موثقين

فلما تواروا عن البيت لطمت الفتاة وجهها وقالت « لقد نالوا بغيتهم قبحهم الله وقبضوا على الجماعة »

فقال واي جماعة . هل قبضوا على جماعة عين شمس

قالت نعم انهم قبضوا عليهم وا أسفاه

فصفق عبدالله بيديهِ وخرج ليطلَّ على الفرسان كانهُ يريد ان يتحقق طريقهم فقالت لهُ يظهر انك كنت سائراً اليهم

قال نعم

فقالت لقد نجاك الله من ايديهم و لم يكن ضلالك الا وسيلة لنجاتك

فاضطرب سعيد واختلج قلبهُ في صدره وقال بالله عليك افصحي يا اخية فقد نفد صبري وقد علمتِ غرضي فاخبريني عن حقيقة امرك

قالت لم يعد يمكنني البقاء هنا مخافة ان يأتي احدٌ فيراك معي فتكون العاقبة وخيمة علينا

قال وهل تريدين ان نبعد من هذا المكان

قالت نعم هلم بنا فاذا خلونا تحادثنا وعساك ان تتلافى امراً لا ازال خائفة من وقوعهِ وهو شر عظيم . قالت ذلك وخرجت من الغرفة فمشت امامهُ وهو يتبعها حتى خرجا من البستان واوغلا في الحقول وهو يسير في اثرها الى حيث لا يدري وكلاهما صامتان لا يفوه احد بكلمة حتى دنوا من بناء عالي الجدران كانهُ بلا باب . فقالت لهُ هذا دير للقبط فلندخلهُ بحجة الزيارة فنكون في مأمن ومشت امامهُ الى باب صغير في اسفل الحائط مصفح بالحديد فقرعتهُ فاطل عليها من نافذة في اعلى الحائط راهب في يده مصباح وقال من يقرع الباب

قالت اننا غرباء نلتمس زيارة الدير

و لم تمضِ هنيهة حتى فتح الباب وسمع لفتحهِ صرير فدخلاه حانيي الرأس لضيقهِ فاشرفا على دهليز دخلا منهُ والراهب يسير بالمصباح امامهما حتى انتهيا الى الكنيسة .

فنظر الراهب اليهما في نور المصباح فعرف الفتاة انها من اهل الفسطاط بل هي من اعيانهم فسرَّ من زيارتها ورحب بها وادخلها الى غرفة في الجانب الآخر من الكنيسة فيها مصباح فسألها اذا كانا يحتاجان الى شيء فقالا كلاَّ فتركهما ورجع

الفصل الثامن والثلاثون

كشف السر

اما سعيد فتأمل الفتاة في النور فاذا هي شابة في مقتبل العمر جميلة الطلعة وقد احمرت عيناها وتكسرت اهدابها من البكاء ولم يزدها ذلك الاَّ جمالاً . وكانت قد ضفرت شعرها في اثناء الطريق وغطت رأسها بطرف ثوبها . فجلسا على وسادة فوق حصير وسعيد يتلهف لاستطلاع حديثها وقلبهُ يخفق لما يتوقعهُ من النبإِ الغريب فابتدرها بالسؤَال حالاً عن حقيقة امرها

فنظرت اليهِ ولم تكد تتأملهُ حتى قالت « العلك احد الغريبين اللذين وصلا الفسطاط في صباح هذا اليوم

قال نعم اني هو وما ادراكِ بذلك

قالت رأيتكما مع جارنا الغفاري وها اني اقص عليك خبري الغريب والتمس منك ان تشرع في ملافاة الخطر العظيم الذي سيدهم المسلمين قريبًا

قال بلهفةٍ قولي اني لهذا الامر اتيت الفسطاط فعسى ان اكون قد وقعت على ضالتي

قالت اني اطلعت على سرّ لا اظن احدًا عرفهُ قبلي . . . ألستَ على دعوة الامام علي

قال بلى اني على دعوتهِ وقد جئت في سبيل نجدتهِ

وهمَّت بالتكلم ثم توقفت برهة واطرقت فلحظ سعيد ترددها وادرك انها ساءت الظن بهِ فقال لها لا تطلعيني السرَّ الذي ستبدينهُ لي مجهولاً لدي واذا شئت قلتهُ لك . ولاطمئنان بالك اقول انهُ يتعلق بالامام علي وفيهِ خطر على حياتهِ . . .

فاطمأنت ولكنها تنهدت وقالت « اعلم ياسيدي ان والدي يصنع السلاح ويبيعهُ في الفسطاط وقد ربيت وانا اسمعهُ يتشيع للامام علي فانغرس حب هذا الامام في قلبي وما انا في حاجة الى امتداح والدي لهُ وهو ابن عم الرسول وصهرهُ ولكنني ذكرت لك امتداحهُ لاذكر لك التغير العجيب الذي طرأ عليهِ

« فما زلنا ندعو لعلي بالنصر حتى كانت واقعة صفين منذ بضع سنين فرأيت في والدي فتوراً من هذا القبيل ولكنهُ لم يذكر لنا شيئًا صريحًا بهذا الشان . على اني كثيرًا ما كنت اراه يختلي بجارٍ لنا من بني مراد كان يعلّم الناس القرآن وكنت احسبهُ من اهل التقوى . . . (قالت ذلك وتنهدت) ولكنني وجدتهُ وأسفاه من اهل العداء . وما زالا يتساران في امر هذا العداء ولا يجرآن على التظاهر بهِ لان مصر كانت لاتزال في حوزة الامام علي وعاملها محمد بن ابي بكر . فلما جاءنا ابن العاص بخيلهِ ورجلهِ وحارب دعاة علي فقتل ابن ابي بكر رحمهُ الله قتلة لم يسبق لها مثيل في الاسلام استقام الامر للامو يين فجاهر والدي بمعاداة علي وكان جارنا المرادي يزيدهُ كرهًا لهُ . فعلمت انهما تشيعا للخوارج فظللت مع ذلك صابرة كاظمة اذ لا سبيل لي الى شيء اعملهُ وانا فتاة ضعيفة كما ترى . وكان والدي يظنني على دعوتهِ . ففي ذات يوم جاءنا ذلك المرادي خاطبًا ووافقهُ والدي ان اكون خطيبة لهُ فلم اجب لا حسنًا ولا قبيحًا خوفًا من اكراهي على الزيجة . ولكنني صممت في باطن سري اني اذا تحققت عزمهُ على الزواج فررت وتركتهُ وما زلت اماطل في كتابة العقد الى الآن »

الفصل التاسع والثلاثون

عبد الرحمن بن ملجم

وكانت في اثناء كلامها عن الزواج قد اطرقت حياء فلما بلغت الى هذا الحد رأت سعيدًا مصغيًا الى حديثها بكليتهِ وهي تعلم انهُ انما يشتاق الى آخر الحديث اكثر ما الى اولهِ فخافت ان يملّ فقالت « ولا اطيل عليك الحديث قبل ان اصل الى جوهرهِ فاقول ان ذلك كلهُ احتملتهُ بالصبر ثم علمت ان المرادي خرج الى مكة فظننتهُ يلتمس الحج ووددت ان لا يعود ولكنني ما لبثت ان رأيتهُ عائدًا

قالت ذلك وتنهّدت وسعيد يتطاول لسماع ما تقول وقد دهش لغرابة الحديث فقالت «عاد ذلك المرادي بهمة جديدة يا ليتني متُّ قبل ان سمعت خبرها . . . ولكنني اذا لم اجد من يتحمل المشقة في ملافاتها تلافيتها بنفسي . . . جاءنا هذا المرادي ثاني يوم وصولهِ الفسطاط فاختلى بوالدي الليل كلهُ يتكلمان وانا لا اعلم ما دار عليهِ حديثهما . ولكنني علمت بعد ذلك انهُ اوصى والدي ان يصنع لهُ سيفًا ماضيًا انفق عليهِ الف درهم وقضى مئة يوم وهو يشحذه فلم افهم معنى هذا الاستعداد ولا اهتممت بهِ وبعد ان شحذهُ كلف والدي فسقاه السم . وقد علمت انهُ انفق على سقايتهِ الفْ درهم ايضًا (١) . . . فويل لجسم يجرحهُ هذا السيف ولو جرحًا خفيفًا »

فملَّ سعيد ولم يعد يستطيع صبرًا على التصريح باسم ذلك الرجل والافصاح عن غرضهِ بسقاية السيف وهو لا يشك انهُ المؤامر على قتل الامام علي . وكان قد صبر نفسهُ حتى يسمع ذلك من فم الفتاة ولكنهُ ملَّ الانتظار فسألها قائلاً « وما هو اسم هذا الرجل »

فقالت ان اسمهُ عبد الرحمن بن ملجم المرادي

فلم يذكرانهُ يعرفهُ اما خولة فتنهدت وقالت « فلما رأيتُ منهُ هذا الاستعداد وهو كاتم خبره عني عمدت الى الحيلة فجاءني في صباح امس يودع والدي وقد عزم على الكوفة فقلت في نفسي سيذهب الرجل ولا ادري السر فتظاهرتُ باعجابي بشجاعتهِ واقدامهِ واطريت غيرتهُ على الاسلام ونحو ذلك وسألتهُ ان يريني السيف لأتأمل فرندهُ فجاء بهِ واوصاني ان اتقي حدَّهُ لان جرحهُ يميت حالاً فسللتهُ بحذر كلي فاذا هو يلمع لمعانًا تقشعر منهُ الابدان فارتعد جسمي ولكنني اظهرتُ الجلد وقلت « اراك انفقت مالاً كثيرًا على صقلهِ وما الفائدة من هذا اللمعان »

فضحك مستخفًّا وقال اتظنين اني انفقت كل هذا المال على مجرد صقلهِ

قلت وماذا اذًا اني لا ارى فيهِ غير اللمعان

فقال اني سقيتهُ السمَّ

فاظهرتُ الاستغراب وقلت ولماذا سممتهُ . وما زلت احاولهُ واجادلهُ حتى هان عليهِ التصريح فقال لي « اعلمي يا خولة اني سأقتل بهذا السيف رجلاً يزعمون انهُ

(١) ابن الاثير ج ٣

اكبر رجل في الاسلام ويقولون انهُ اقرب اقرباءِ الرسول » قال ذلك والشرُّ بادٍ في عينيهِ واصفرار الوجل يتخلل ما كان يحاولهُ من الابتسام . اما انا فلما سمعت قولهُ ارتعدت فرائصي واختلج قلبي واظنهُ قرأً ذلك على وجهي . كيف لا وقد ظهر لي انهُ يريد الامام عليًّا . ولكنني احببت تحقق الظن فقلت « ومن هو ذلك الرجل » . فقال « ألا تعلمين من هو ألا تعرفين سبب كل هذه الانقسامات واذا كنتِ لم تنتهي بعد فاقول لك انهُ علي بن ابي طالب الذي يسميهِ اشياعهُ امير المؤمنين » . قال ذلك واحمرَّت عيناه وتجلى الغدر في وجههِ وقال « احذري ان تبوحي بذلك لاحد والاَّ فانك تنالين جرحًا من هذا السيف » . قال ذلك وهو يمزج الجد بالهزل اما انا فتحققت انهُ يقتلني ولا يبالي لانهُ تجرأ على قتل امير المؤمنين فكيف لا يقتل فتاة مثلي

فلم استطع جوابًا وخفت اذا نطقت ان يبدو امري فصمتُّ وقد عوَّلت في باطن سري على السعي في ابلاغ امير المؤمنين ذلك على عجل لان موعد القتل قريب واظنهُ في ١٧ رمضان لاني كثيرًا ما كنت اسمعهُ يذكر هذا التاريخ ويعرض بذكر الكوفة ولم اكن افهم مراده بذلك . واما الآن فقد فهمت جيدًا انهُ عازم على قتل الامام علي في ١٧ رمضان ونحن في اواسط شعبان واخاف ان ينال هذا الرجل بغيتهُ قبل ان يبلغ الخبر عليًا . . آه ياليتني طيرٌ احمل هذا الخبر اليهِ

الفصل الاربعون

﴿ برح الخفاء ﴾

وكان سعيد لما وصلت خولة الى ذكر اسم الرجل وتصريحهِ بقتل الامام علي قد نهض وجعل يخطر في الغرفة ذهابًا وايابًا والحمية ملءُ راسهِ وندم على مجيئهِ قبل ان يخبر الامام عليًّا ولكنهُ تذكر انهُ لم يكن يعرف اسم المؤامر ولم تكن ثمت فائدة من اعلامهِ اما الآن فانهُ يذهب اليهِ بالخبر الصريح

وكان مع شدة تأثره من حديث خولة لا يغفل عما يتجلى في وجهها من ملامح الجمال وما في حديثها من صدق اللهجة وقد اعجبهُ منها بنوع خاص غيرتها على الامام علي

فشعر بانعطاف نحوها . ولكنهُ تذكر عهده لقطام وما يظنهُ من حبها لهُ فرأى ان لا يطلق لنفسهِ العنان في حب سواها . على انهُ لم يكد ذهنهُ ينصرف لحظة الى هذا الموضوع حتى عاد الى التفكر بعبد الله ومصيره وسبب وجود خولة في ذلك البيت المنفرد . فقال لها « لا ادري يا مولاتي ما الذي ساقني الى منزلك حتى حظيت بك وسمعت هذا الحديث الذي انما جئت الفسطاط من اجلهِ . ولا اخفي عليك اني كنت عالمًا بعزم بعضهم على الفتك بالامام ولكنني لم اكن اعلم اسم العازم ولا من هو فجئت الفسطاط ومعي رفيق من ذوي قرابتي كان قد سبقني في صباح هذا اليوم الى مجتمع العلويين في عين شمس على ان يعود اليَّ بخبر مكانهم فلما ابطأَ سرت في اثره وانا لا اعرف الطريق فضللت في الظلام حتى اهتديت بك ونعم الضلال ضلالي . ولكنني في قلق على رفيقي اذ يلوح لي ان الفرسان الذين شاهدناهم الليلة كانوا قادمين من عين شمس ويظهر انهم قبضوا على انصار علي هناك . . ألا تظنين ذلك ؟ »

فقالت خولة لو صبرت عليَّ لاتمام حديثي لكفيت نفسك مؤُونة الظن ويلوح لي انك تودُّ الاطلاع على سبب وجودي منفردة في ذلك البيت وقد أُوصدت الابواب دوني . فاعلم اني لما سمعتهُ حديث المرادي سكتُّ وكظمت فخرج الرجل واظنهُ شخص الى الكوفة ولبثت انا في حيرة لا ادري ماذا اعمل فقضيت نهار الامس في الهواجس والظنون وكلما تصورت عليًا مقتولاً بسيف هذا الغادر يقشعر بدني وكان والدي يخرج الى حانوتهِ في كل صباح ولا يعود الى المساء وعندنا في المنزل عبدٌ ربَّاني منذ حداثتي وهو يحبني ويكرمني وكنت قلما اكلمهُ فخطر لي ان اغتنم غياب والدي واكلم العبد عساه ان يطلعني على نبإ جديد او لعلي افهم شيئًا آخر . لان حديث ابن ملجم اتعبني واقلق راحتي وليس لديَّ من اشكو اليهِ امري او اكاشفهُ سري فخرجت من غرفتي لادعو العبد فلم اجده فناديتهُ باسمهِ فابطأَ ولم يجب فاطللت من الدار فرأيتهُ واقفًا مع عبد آخر يظهر انهُ غريب وكانا يتحادثان ويتساران . فلما رآني خجل واسرع اليَّ فدخلت غرفتي ودخل هو في أثري وعلى وجههِ امارات البغتة كأَنهُ سمع خبرًا غريبًا يريد قصهُ علي . فقلت اين كنت وقد دعوتك فلم تجب ؟

قال كنت واقفًا مع عبد قادم من الكوفة لمهمةٍ سرية الى الامير عمرو

فقلت لهُ وهل أطلعك على خبر تلك المهمة

الفصل الحادي والاربعون

اتمام الحديث

فسرَّ عبدنا لما آنسهُ من ملاطفتي واراد ان يبرهن لي ثقتهُ بي فقال « انهُ اطلعني على سرٍّ لا اظن احدًا يعرفهُ في كل الفسطاط سوى الامير وبعض شرطتهِ » ثم اخبرني ان ذلك العبد جاء الى الامير عمرو بان انصار علي يجتمعون سرًّا في عين شمس يوم الجمعة وان عمرًا عيَّن جندًا للقبض عليهم او قتلهم في ساعة الاجتماع . فلما سمعت ذلك لم اتمالك عن البكاء لشدة الغيظ ورأيت من أهم واجباتي ان ابلغ الجمعية تلك النية ليحذروا . ولكنني لم اكن اعرف احدًا اثق بهِ في انفاذ هذه المهمة فعوَّلت على الذهاب بنفسي في ساعة الاجتماع

فاصبحتُ في هذا اليوم وانا اتوقع خروج والدي الى حانوتهِ لأتنكَّر واسير الى عين شمس فاذا هو لم يخرج من البيت ورأيتهُ في اضطراب ووجل وما علمت ان العبد اخبره بالحديث وانهُ اطلعني عليهِ فخاف والدي ان ابوح لاحد قبل القبض على المجتمعين . فلازمني في البيت الى الظهر ثم دعاني للخروج من الفسطاط للنزهة فأتينا هذا البيت وهو بيت لشريك لنا في الفلاحة ولم يكن فيهِ احد فلم اظهر استغرابي ولا قلت شيئًا لاني كنت عالمة بان والدي سيكون في جملة السائرين الى عين شمس فلا بد من ان يتركني فاذا تركني خرجت وانا على مقربة من المكان . وما علمت ما اضمرهُ لي فاننا لم نكد نرى الشمس تميل حتى خرج والدي وتظاهر بامر هام يدعوه الى سرعة الذهاب وادعى انهُ اقفل الباب عليَّ خوفًا من الغرباء او ابناء السبيل سامحهُ الله وهو يعلم اني لا أستطيع النداء واستنجاد الناس لاني اذا تظاهرت بنصرة الإمام كنت من المغضوب عليهم . فظللت هناك حتى جئتَ انت ورأيتني في هذه الحال . فرفيقك لا شك انهم قبضوا عليهِ في جملة اولئك الانصار

قال سعيد هل تظنين عليهِ بأسًا

قالت لا اظنهُ الاَّ مسجونًا الآن حتى يسألوهُ اسئلة كثيرة ثم اذا رأوا قتلهُ قتلوهُ وكذلك يفعلون برفاقهِ . ولكن لا بأس عليهِ باذن الله وسنتدبر في امرهِ . وما العمل

الآن اني اخاف اذا عاد والدي ولم يرني في البيت ان تزيد نقمتهُ عليَّ فارى ان اذهب الى منزلنا في الفسطاط واتظاهر باني خفت من بقائي في البيت فتحت الباب باسلوب اكيّفهُ على شكل مقبول ولا بد من تجاهلي كل ما حصل لارى ما يكون . وما انت فاعلٌ ؟

قال اود ان اسرع الى الكوفة لارى ابن ملجم فاقنعهُ او اخبر الامام علياً

فقطعت عليهِ الكلام قائلة « وكيف تقنعهُ وهو لا يقنع بل قد يسرع في القتل وليس افضل من ان نطلع الامام علياً على سرّ الامر وهو يدبر بما يراه »

قال وكيف افعل برفيقي هل اتركهُ في السجن

قالت « واخاف اذا تأخرت هنا ان تفوت الفرصة والمسافة من هنا الى الكوفة بعيدة واني لاعجب منك كيف كنت عالمًا بخبر هذه المؤامرة ولم تخبر بها علياً وانت في الكوفة »

فتنهد وقال « كفي الملام قد وقع ما وقع وكنت اظن الكتمان يبعد المصيبة وفاتني ان اخبرك بان المؤامرة ليست على مقتل الامام علي فقط بل هي على مقتل عمرو ومعاوية ايضًا » . وقصّ عليها الخبر مختصرًا

الفصل الثاني والاربعون

❊ الحبُّ يعمي ويصمّ ❊

فاستغربت خولة الخبر وقالت « ما لنا ولهذين إنما نريد الدفاع عن علي الآن ولكنني لم افهم كيف انتقل خبر قدومكم الى هنا وانت تقول انهُ كان سرًّا مكتومًا لم يطلع عليهِ احد »

فكاد سعيد يسيء الظن بقطام ولكن الحب غشى بصيرتهُ فانتحل سببًا آخر وقال « لا ادري » وخطر لهُ ان يقصّ عليها حديثهُ مع قطام ثم امسك عن ذلك حفظًا لعهدها وهو كما قلنا غير مرة سليم النية لا يعرف الدهاء ولهذا السبب نفسهِ لم يطاوع لعواطفهِ الحرية في حب خولة مع ان الاحوال تقضي عليهِ بحبها بالنظر لما آنسهُ من جمالها وحميتها مع استهلاكها في نصرة الحق

على انهُ ادرك مع ذلك ان كتمان خبر المؤامرة عن علي الى ذلك الحين خطأ ولكنهُ حملهُ على غلط قطام لا على سوء قصدها ومع ذلك فقد رأى الامر سهل الملافاة ولا يزال ثمت باب مفتوح لانقاذ علي بمجرد اعلامهِ . ولكن ذلك يدعو الى السفر السريع وهو لا يعلم ما آل اليهِ حال عبدالله فقال لها « اني عازم على الكوفة باقرب وقت فما الذي افعلهُ برفيقي وانا لا ادري اذا كان حياً ام ميتاً »

قالت « غداً نعلم الحقيقة دعني اذهب الآن الى منزلنا بالفسطاط وامكث انت هنا الى الصباح »

قال « كيف استطيع البقاء هنا وحدي ولا صبر لي على استطلاع خبر عبدالله فارى ان ادخل الفسطاط واتردد الى المسجد ولا يعرفني احد هناك فاما ان اسمع خبراً ممن يفد على المسجد من المصلين او تعثي اليَّ بالخبر »

قالت لك الخيار في ذلك . ونهضت فنهض وخرجا فرافقها الى قرب منزلها وودعها وعاد يلتمس بيت الغفاري للمبيت وهو لا يدري ان الرجل في جملة المقبوض عليهم وقد اصبح بيتهُ موضع شبهة ولا كانت خولة تعلم ذلك

وكان الجند بعد القبض على اهل ذلك الاجتماع قد ساقوهم في الاغلال الى السجن وكان عمرو ينتظرهم في داره فلم يصبر على رؤيتهم الى الصباح فلما اخبروه بالقبض عليهم امر باستقدامهم اليهِ واحداً واحداً فرأى بينهم جماعة ممن لم يكن يخطر لهُ انهم على غير دعوة بني امية وخصوصاً الغفاري . ولما وصل الى عبدالله عرف انهُ من بني امية وتذكر قرابتهُ من ابي رحاب ولكنهُ تجاهل عن ذلك كلهِ وامر ان يسجن كل من هؤلاء في حجرة على حدة وبعث جنداً يفتشون منازلهم ويقبضون على من فيها من الرجال لعلهم يطلعون على شيء جديد وهو معوّل على اعدامهم بعد ذلك . ولم يكن الجند يحتاج الى امر للنهب وقد اصبحت منازل اولئك العلويين وما فيها مالاً حلالاً لهم . فما صدقوا ان أُمروا بالبحث فيها حتى حملوا عليها واوغلوا فيها سلبًا ونهبًا



الفصل الثالث والاربعون

البغتة

وكان سعيد قد نزل في بيت الغفاري فسأل عن صاحبهِ فأخبره اهل المنزل انهُ خرج من الظهر ولم يعد فلم يخطر لهُ انهُ في جملة المقبوض عليهم فالتمس الحجرة التي وضع فيها ثيابهُ وهمَّ بالرقاد ولم يكد يلقي رأسهُ على الفراش حتى تراكمت عليهِ الهواجس فاخذ يفكر في عبدالله وماذا عسى ان يفعل لانقاذه وخاف اذا ابطأ في المسير الى الكوفة ان ينفذ ابن ملجم نيتهُ فيذهب سعيهم عبثًا

وفيما هو في هذه الهواجس وقد طار نومهُ سمع لغطًا في الدار ولم تمض برهة حتى علت الضوضاء وضجَّ الناس فوقف وتنصت فاذا رجال عمرو قد دخلوا المنزل واوغلوا في النهب ومن تعرَّض لهم آذوه فايقن انهم آتون الى حجرتهِ وتحقق انهم مؤذوه فتقلد حسامهُ والتفت يمينًا وشمالاً لعلهُ يجد مخرجًا ينجو بهِ بنفسهِ فسمع صوتًا يناديهِ من وراء الحجرة فاستأنس بالصوت ثم عرف انهُ صوت خولة ولم يكن لهُ سبيل الى مشاهدتها غير نافذة عالية لا يشرف منها الاَّ اذا صعد على مرقاة فاحتال في الصعود اليها واطلَّ وكان الظلام حالكًا ولكنهُ رأى شبحًا وسمع صوت خولة تقول لهُ « ان الشرطة سيفتكون بكل من في المنزل واذا رأوك آذوك فاليك هذا الخمار والجلباب فالبسهما وافتح الباب واخرج فيظنوك امرأة فلا يتعرضون لك » فلم يصدق انهُ سمع ذلك حتى مدَّ يدهُ وتناول الخمار والجلباب وتنكر بهما وتخمر وهو يرقص من الرعشة مخافة ان يسبق اجلهُ فيدخل الشرطة قبل خروجهِ

فلم يكن الاَّ كلمح البصر حتى لبس وتلثم بالخمار وفتح باب الغرفة وخرج بزي امرأة فرأى الضوضاء لا تزال مرتفعة والنهب جاريًا فلم يتعرض لهُ احدٌ فالتمس الشارع وراء البيت حيث كانت خولة واقفة وهو مع دهشتهِ وبغتتهِ لم يتمالك عن الاعجاب بشهامتها والاقرار بفضلها عليهِ وفيما هو يفكر بها رآها تمشي امامهُ فاقتفى خطواتها حتى وصلا الى منفرد فوقفت وقالت لهُ « الحمد لله على سلامتك وسلامة الامام علي » فلم يفهم مرادها فابتدرتهُ قائلة « لا تعجب لقولي فان حياة الامام علي تتوقف على حياتك اذ ليس هنا من يعلم الخطر الذي يتهدده سواك نعم اني اعرفهُ »

ايضًا ولكنني لا اضمن اقتداري على الذهاب ولا آمن الاعتماد فيهِ على احد »

فقال « وانا انما ابغي البقاء حيًّا لاقوم بانقاذ هذا الامام من القتل والفضل بالحقيقة لك انتِ فاخبريني كيف عرفت بالخطر المحدق بي حتى جئت بهذه الحيلة »

قالت « علمت من والدي ان عمرًا امر بنهب منازل اولئك العلويين والقبض على من فيها من الرجال والمال واخبرني ايضًا ان هذا الغفاري كان في جملة المقبوض عليهم وقد علمت انك نازل في منزلهِ فجئت اليك بهذه الحيلة فالحمد لله على سلامتك »

فشعر سعيد بفضل خولة واحسَّ بانعطاف نحوها ولكن حبهُ قطامًا ما زال غالبًا عليهِ قابضًا على قلبهِ لا يترك لهُ سبيلاً الى سواها

وبعد التأمل برهة قال « وما العمل الآن اني عازم على الكوفة عاجلاً ولكنني لا ادري ما الم̃ بعبدالله ولا ما يأول اليهِ حالهُ هل علمت شيئًا عنهُ ؟ »

فتشاغلت خولة عن الجواب باصلاح ثوبها كأنها تحاول اخفاء ما تعلمهُ فظنها لم تسمع كلامهُ فاعاد السؤال · فقالت « لا يعلم المستقبل الاَّ الله »

فلم يعجبهُ جوابها فقال افصحي عما تعلمينهُ يا خولة

قالت اعلم ان عمرًا امر بقتل اولئك العلويين في فجر هذا الصباح ولكن من يدري النتيجة

فاختلج قلب سعيد ايَّما اختلاج وشعر كأنك صببت عليهِ ماء غاليًا وقال ماذا تقولين هل يقتلون عبدالله ما العمل كيف يقتلونهُ

فقالت « دع الامر لله واعذرني اني لا استطيع البقاء معك طويلاً لئلاَّ ينتبه والدي لغيابي فلا انجو من القتل · واما انت فحياتك في اشد الخطر فيجب عليك ان تخرج من الفسطاط حالاً »

فقطع كلامها وقال « كيف اخرج وعبدالله سيقتل غدًا انهُ صديقي وابن عمي واعزَّ من اخي كيف العمل يا رباه »

فقالت لهُ لا خيرة في الواقع فان شرًّا واحدًا اهون من شرّين ومع ذلك ان الوقت ضيق لا مجال فيهِ للسعي او البحث عن سبيل لانقاذ حياة عبدالله اذا قدَّر الله قتلهُ ونحن الآن في نحو منتصف الليل وسينفذ القتل عند الفجر ·· قالت ذلك وسكتت هنيهة

فابتدرها سعيد قائلاً يلوح لي ان اوح لعمرو بعزم بعض الناس على قتاله واحذره من الوقوع في الخطر الا تظنينهُ يعفو عن قتل عبد الله مكافأة لهذا الجميل

قالت « ربما عفا ولكنهُ لدهائهِ وشدتهِ يظن في قولك السوء فيقبض عليك ويؤجل قتل عبد الله حتى يأتي ١٧ رمضان فاذا لم يظهر صدق قولك قتلكما جميعاً . فهل انت ضامن ان المؤامر على قتل عمرو يأتي في الوقت المعين وخصوصاً اذا علم باطلاع عمرو عليهِ . فلا تكون النتيجة الا انك القيت بيديك الى التهلكة . ولكنني ارى ان نترك هذا الامر اليَّ لعلي اهتدي الى وسيلة استغفل بها والدي فاذهب بنفسي الى الامام واطلعهُ على هذا السرّ فاذا رأى ان يقبض عليَّ فليفعل والمستقبل في يد الله . اما انت فسر حالاً الى الكوفة قبل فوات الفرصة ان الوقت قصير . . . . ووقتي الآن اقصر منهُ . دعني اذهب الى والدي قبل ان يعلم بغيابي فيعرقل مساعيَّ ثم ارى ما يكون . وسر انت الى الدير الذي كنا فيهِ في اول هذا الليل وسآتيك بالخبر . وقبل ان تصل الدير انزع عنك النقاب والازار وادخل بثوب الرجال ورئيس الدير يعرفك فلا يستغشك » . قالت ذلك وانصرفت تلتمس منزلها وهو يود لو انها بقيت

الفصل الرابع والاربعون

الخلوة

فلما خلا بنفسهِ مشى وهو غارق في بحار الهواجس لا يدري الى اين يسير . فما شعر الاَّ وقد خرج من الفسطاط ووصل الى حافة ترعة ظنها لاول وهلة النيل . ثم ما لبث ان رأى ضيقها فعلم انها خليج . وكان الظلام حالكاً فوقف برهة وافكاره تائهة في عبد الله ومصيرهِ وكلما تصور ما هو فيهِ من الخطر هبَّ جسمهُ واقشعر بدنهُ

وظل واقفاً وقد نسي موقفهُ لاشتغال بالهِ فرأى بالقرب منهُ نخلة فاقترب منها وجلس على حجر تحتها واسند ظهرهُ اليها وجعل يفكر في حالهِ وحال عبد الله وما جرَّهُ الى تلك المدينة من البواعث الهامة . فتذكر قطاماً ووعودها وما مرَّ لهُ معها من الاحوال . وكان الجو هادئاً لا يكدره الاَّ نقيق الضفادع على شاطئ ذلك الخليج

فاتخذ نقيقها شؤماً على عبدالله وتصور انهُ لا يطلع النهار حتى يكون في عداد الاموات . فلما تخيل ذلك اقشعر بدنهُ فوقف بغتة وقال في نفسهِ «أأبقى انا هنا وعبد الله في حال الخطر الشديد . . . ما ذا تكون حالهُ مع عمرو . . هل يقتلهُ ام يستبقيهِ آه . . . ما ذا اعمل هل امكث في الفسطاط لانقذ عبد الله من القتل ام اسير الى الكوفة لانقاذ الامام علي . . . ولكن ما الفائدة من بقائي هنا وابن العاص قد عوَّل على قتل عبدالله في صباح الغد . . . لابد من المبادرة الى انقاذه » قال ذلك ومشى بجانب الخليج جنوباً وهو يفكر في مجرى الماء هناك ونقيق الضفادع يعترض مجرى افكاره . ثم تأمل في ذلك الخليج فتذكر انها خليج امير المؤمنين وقد حفرهُ عمرو بن العاص لما فتح مصر منذ عشرين عاماً لارسال المؤونة عليهِ الى الحجاز تلافياً لما كانوا يخافونهُ من القحط هناك . وكان قد حفره باشارة الخليفة عمر بن الخطاب[1] لما كان كرسي الخلافة في المدينة . فتذكر حال الاسلام في ذلك العهد وما كان فيهِ من اجتماع الكلمة وما فتحتهُ سيوف المسلمين من البلاد الواسعة في الشام ومصر والعراق في بضع عشرة سنة . وكيف تحولت تلك السيوف الباترة بعد مقتل الخليفة عثمان الى الفتنة فانقسم المسلمون فيما بينهم واشتغلوا عن تأييد سلطانهم بالحروب الاهلية حتى اصبحوا يقتلون خلفاءهم بتهمٍ ما انزل الله بها من سلطان . واقبح ما آلت اليهِ تلك الفتنة انهم تآمروا على قتل امرائهم وخصوصاً الامام علي وهو ابن عم الرسول وخيرة قواد المسلمين . ولا ذنب لهُ غير السعي في تأييد الكتاب . ولما تصور تلك الحال انقبضت نفسهُ وغلب عليهِ الكدر حتى كادت تخنقهُ العبرات وهو لا يدري أيبكي عبد الله ام يبكي الجامعة الاسلامية ام يبكي الامام علياً ام يبكي سوء بختهِ الذي جرَّهُ الى تلك المدينة حتى وقع في تلك الحيرة

الفصل الخامس والاربعون

خليج امير المؤمنين

ثم وقف بغتة والتفت الى ذلك الخليج وجعل يخاطبهُ قائلاً « ألستَ الخليج

(١) المقريزي ج ١

الذي اشار امير المؤمنين عمر بن الخطاب بحفرك ؟ قل لي بمائك الذي يجري فيك هل علم ابن الخطاب لما اذن بذلك ان دولة الاسلام سيقضى عليها بالانقسام حتى يحمل عامتهم على خليفتهم فيقتلوه ثم يختلفون على الخلافة فيقتسمونها ثم يختصمون على اقتسامها · هل خطر لابن العاص يوم نزل وادي النيل وحاصر هذا الحصن المنيع حصن بابل انهُ سيجرد سيفهُ على المسلمين و يقتل ابن ابي بكر حرقًا بالنار ثم ينقم على ابن عم الرسول فيستخرج الخلافة من يده بالحيلة ·· ابن انت يا عمر يا امير المؤمنين يا جامع كلمة المسلمين · كانت المدينة مقر الخلافة وانت على كرسيها فاصبحتْ منقسمة على نفسها يدّعيها غير اهلها ···· آه يا ربي ما هذه الحال يا ليتني متُّ قبل ذلك ···· هنيئًا لك يا ابا رحاب ان عظامك ساكنة في هذا التراب وروحك تنتظر لقاء ربها في يوم الحساب ·· اما انا الشقي فاني تائهٌ بعدك تتنازعني عوامل لا ادري مصدرها ولا اعلم مصيرها · أأبقى هنا لأرى مصير اخي عبد الله ام اسرع الى الكوفة لانبئ الامام بما تآمروا عليهِ؟ ·· ارشدني يا جدي و ياسندي ····ابقى هنا ؟ وما الفائدة من بقائي هل يعفو عمرو عن عبد الله فيبقى حياً فاراه ···· ؟ لا اظنهُ يفعل ·· اذًا ماذا يفعل ايقتلهُ ولا استطيع الدفاع عنهُ ؟؟

« آه يا خولة ··· يخيَّل لي انك ملاكٌ ارسلك ربك لترشديني الى سواء السبيل ···· فهل يتمُّ لي السعد على يدك فتنقذين عبد الله من القتل ···· »

الفصل السادس والاربعون

﴿ الإغراق ﴾

وفيما هو يحدث نفسهُ ويمشي الهوينا على تلك الضفة سمع لغطًا وحركة عن بعد فاجفل وتقدم نحو الصوت وهو يحدق بنظره فعلم انهُ بجانب فم الخليج عند اتصالهِ بالنيل ورأى في النيل سفنًا كبيرة وسمع لغطًا عميقًا كأن لصوصًا يهمسون فيما بينهم يحاذرون ان يسمعهم احدٌ · وكان هو لا يزال بلباس النساء فخاف ان يراه احدٌ فيتحرش بهِ فينكشف امره فانزوى وراء جميزة كبيرة بقرب الشاطئ ثم خاف ان

يدنو منهُ احدٌ فيراه ٠ فتسلق فرعًا من فروعها واختبأ بين الاغصان والاوراق وهو يحاذر ان يخفَّ الورق ٠ حتى اذا استكنَّ على غصن غليظ جعل يتفرس بما يراه فاذا هناك بضعة وعشرون رجلاً يحيطون ببضعة عشر آخرين كانهم اسرى مغلولون يسوقونهم الى قارب كبير وسمع بعضهم يقول « الى اين انتم ذاهبون بنا في هذا البحر أ لعلكم تريدون اغراقنا » فيجيبهُ احدهم قائلاً « وما علينا اذا اغرقناكم وانتم عصبة شريرة تآمرتم على نصرة رجل قتل الخليفة عثمان »

فصاح آخر « أهذه اعمال ابن العاص يقتل الرجال غيلة ٠ اما كفاهُ انهُ يلتمس الخلافة لصاحبهِ بالحيلة حتى يقتل نصراء الحق غرقًا ٠٠ اما تخافون الله الا تخافون يوم القيامة »

فصاح بهِ اخر وقال « لا تخف يا فلان اننا انما أُمرنا بنقلكم الى جزيرة الروضة تبقون فيها اياماً » ٠ ثم علت الضوضاء فعلم سعيد انهم انصار علي الذين قبضوا عليهم تلك الليلة في عين شمس ٠ فتحقق ان عمرًا اشار بقتلهم غرقًا في النيل فارتعدت اعضاؤهُ حتى كاد يقع من الجميزة وحدثتهُ نفسهُ ان ينزل لنصرتهم ٠ ولكن الخوف غلب عليهِ لعلمهِ انهُ اعزل وانهم جماعة كبيرة وكلهم مسلحون ٠ فلبث برهة كأنها سنة وهو يرتجف من شدة التأثر وتنصت لعلهُ يسمع صوت عبدالله او يراه فلم يُسمع شيئًا ولم يكن يطمع ان يرى احدًا لشدة الظلام ولا هو يأمن ان ينجيهُ من ايديهم لكثرتهم وانفراده

ولم يكن إلاَّ بضعة دقائق حتى اصبح الكل في القارب ثم اداروا الدفة وهو ينظر اليهم ولم يقلعوا حتى ندم على سكوتهِ وودَّ لو انهُ جاهر بنفسهِ لعلهُ يستطيع نجدة اولئك المظلومين او يُقتل ٠ ولكنهُ تذكر ان بقاءهُ حياً ضروري لانقاذ الامام علي فمكث برهة كأنهُ في حلم وهو يتردد بين الندم والاسف ويلتمس عذرًا لسكوتهِ حتى توارت السفينة عن بصره في لجج الظلام فأيقن ان عبدالله لا يلبث ان يبيت طعامًا للاسماك اذا كان بين اولئك ٠ وهو لا بدَّ ان يكون بينهم لانهم عصبة واحدة نالوا جزاء واحدًا ٠



الفصل السابع والاربعون

﴿ الندم ﴾

فلبث هنيهة يفكر بما مرّ به فاشتدت به هواجسهُ حتى بكى ونزل من الجميزة وهو يلطم وجههُ و يندب عبدالله و يبكي حالهُ و يوبخ نفسهُ لضعفهِ وتردده . فقال « أأرى عبدالله يساق الى القتل ولا انصرهُ يا للجبانة يا للخيانة ... كيف التخلّي عن رجل ذهب ضحية حبهِ لي ولولاي لم يأتِ هذه الديار ولا رأى ما رآهُ من البلاء ... آه ياربي ما الفائدة من حياتي .... » ثم سكت هنيهة وهو يستجمع حواسهُ ويتأمل في موقفهِ فرأى انهُ ارتكب خيانة عظمى . فقال « اني لا استحق البقاء حياً ولا بد من ان القي نفسي في هذا الماء لعلي القى فيهِ حبيبي عبدالله فتذهب بقايانا معًا » قال ذالك وهمّ ان يلقي نفسهُ في النيل فشعر بقوة اوقفتهُ بغتةً وقد فكر في الامام علي وما يحدق بهِ من الخطر فقال « اذا قتلت نفسي انما اقتل علياً معي ... نعم اقتلهُ لاني اذا لم التمس الكوفة وانبئهُ بعزم ابن ملجم ذهب قتيلاً بذلك السيف المسموم ... آه يا خولة ابن وعدك بانقاذ عبدالله ... ولكن ما ذنبك وانت لا تعلمين انهم سيرعون في اغراقهِ قبل انبلاج الصباح .. انهُ دهاء ابن العاص ومكرهُ ... ولكنهُ سوف ينال نصيبهُ من اولئك المؤامرين ... يا ليتني انبأتهُ بالمؤامرة وجعلتها فديةً لعبدالله ... ولكن قضي الامر ولا خيرة في الواقع »

الفصل الثامن والاربعون

﴿ خولة ﴾

ثم سكت وجعل يتأمل في ما حولهُ ولا يطاوعهُ قلبهُ ان ينظر الى جهة مسير القارب . فاراد ان يتحول الى المكان الذي اتى منهُ فرأى شبحًا مسرعًا نحوهُ فخاف وتهيأ للدفاع اذا رآهُ يقترب منهُ . فلما اقترب الشبح اذا هو امرأة فعجب لقدومها وحدها في

ذلك الليل ولكنهُ ما لبث ان تفرس في قيافتها حتى علم انها خولة فخفق قلبهُ في صدره وغلب الخجل عليهِ لما رآهُ من جرأتها وقدومها في ذلك الليل وهي فتاة لعلمهِ انهُ لا يحملها على القدوم الاَّ السعي في انقاذ عبدالله · فحدثتهُ نفسهُ ان يختبئ خجلاً ولكن البغتة غلبت عليهِ فدنا منها وناداها · فحالما عرفت صوتهُ صاحت فيهِ « ابن عبدالله »

فأراد ان يجيبها فاختنق صوتهُ وسبقتهُ العبرات

فدنت منهُ وهي تقول « سعيد ··· هل رأيت احدًا جاء الى هذا المكان وما الذي جاء بك الى هنا »

قال « نعم اني رأيتهم يحملون اولئك الاسرى في قارب »

قالت « واين هم ··· اين ذهبوا بهم ··· هل رأيت عبدالله ··· هل هو معهم ··· »

قال « لقد حملوهم في القارب ولا ادري اذا كان عبدالله معهم لاني لم اسمع صوتهُ ولا رأيتهُ »

فصفقت بكفيها وقالت « لابد من ان يكون معهم · آه ما الحيلة الآن ·· ما كنت اظن ابن العاص يعجل بقتلهم على هذه الصورة ·· وكيف لم تحاول الدفاع عنهم ··· »

فأجابها والاعتذار والخجل يتنازعانهِ وقال « لم اكن اعلم ان عبدالله معهم وهبي اني علمت فكيف استطيع انقاذه وانا فردٌ اعزل وهم جماعة مسلحون ····· »

فصمتت خولة برهة ثم قالت « لقد فعلت حسنًا فأبقيت على نفسك لانقاذ الامام علي لان حياتهُ موكولة الى سرعة رجوعك »

فقال بلهفة « وانت ما الذي جاء بك وكيف عرفت بسيرهم »

قالت « علمت ذلك من عبدنا وكنت قد دبرت حيلة ادخل بها على عمرو لأستمهلهُ في قتل عبدالله باطلاعهِ على سرّ المؤامرة فعلمت انهُ بعث بهم هذه الليلة لاغراقهم في النيل مخافة ان يترتب على قتلهم جهارًا فتنة وهو يعلم ان انصارهم كثار في الفسطاط · فاسرعتُ لعلي استطيع انقاذ عبدالله بحيلة ··· فلم يساعدني القدر ··· وا أسفاه عليك يا عبدالله ·· آه من اهل الظلم ··· ان عمرًا قد غلب عليًّا بحيلتهِ فاخرج الخلافة من يدهِ لجهل ابي موسى الاشعري ولكنهُ لن ينجو بنفسهِ من غائلة

المؤامرين ... »

ثم دنت من سعيد وقالت « انا اعلم ان فقدان عبدالله مصيبة علينا لانهُ شهم ولكنهُ قضى ضحية واجباته على اننا نرجوان نعوض عن خسارته بانقاذ الامام علي من خطر القتل فاركب الى الكوفة على عجل وتمم المهمة التي جئت من اجلها . فها قد عرفت اسم المؤامر وانهُ سار الى الكوفة فاسرع ما استطعت قبل فوات الفرصة »

وكان سعيد مع شدة تأثره مما رآه تلك الليلة من الاهوال لا يغفل عما ابدتهُ خولة من الحمية والجسارة وقد ازداد حباً لها واعجاباً بشهامتها ..

وفيما هو يفكر في ذلك ابتدرتهُ قائلة « اعلم يا سعيد اني خرجت الليلة من بيت والدي تحت خطر القتل وانا احسبك في الدير كما تواعدنا وكنت عازمة على الذهاب اليك لأستحثك في سرعة المسير ثم اعود الى والدي انتحل لهُ سبباً في خروجي . اما وقد التقينا هنا فاني استودعك الله والتمس منك ان تسرع في الذهاب واني عائدة الى بيتنا وسأرسل اليك جملاً مع عبدنا وآمرهُ ان يسير في ركابك الى الكوفة »

الفصل التاسع والاربعون

السفر العاجل

فأعجب سعيد بتدبيرها وثبات جاشها ورأى نفسهُ ضعيفاً بين يديها ولم يستطع مخالفتها فقال لها « لا نلبث ان يتبين لنا الخيط الابيض من الخيط الاسود . وها اني خارج الى جبل المقطم فهل يوافيني عبدك وجملك الى هناك »

قالت « انهُ سيوافيك حالاً سر بحراسة الله واحذر ان تفوتك الفرصة . ان ابن ملجم قد سبقك الى هناك .. هل فهمت ذلك ؟ » قالت ذلك ومدت يدها اليهِ فصافحها ويده ترتعش وقد نسي حالهُ لحظة ثم تذكر ما هو فيهِ من الامور الهامة . وربما اضطرب قلبهُ بين يدي خولة ولكن حبهُ قطاماً ما زال غالباً عليهِ على انهُ عوّل في باطن سره اذا نجح في مهمتهِ ان لا يدع خولة تخرج من يده فيجعل لها مقاماً في قلبهِ . فقال لها « ارجوان تذكريني وتدعي لي بالتوفيق »

فقالت وقد فهمت مراده « سر اني معك وان كنت في الفسطاط وارجو ان يجمعني بك يومٌ ينجو بهِ الامام من ايدي الظالمين وينال ما يستحقهُ من الاستقلال بالخلافة »

فاتخذ قولها تعنيفًا لهُ لافتكاره بالحب ونحوه وهو في مهمة ارفع منزلة من ذلك

اما هي فاسرعت في وداعهِ والحّت عليهِ في سرعة المسير واكدت لهُ ان يلاقي عبدها والجمل وراء المقطم ثم تحوّلت بسرعة الى الفسطاط

فلما تركتهُ وحدهُ حوّل وجههُ الى النيل حيث كان القارب . وتأوه وتحسر وقال « استودعك الله ايها الصديق الحميم استودعك الله ايها الاخ الحبيب لا غرو اذا ذهبت ضحية في سبيل نصرة امير المؤمنين اليك اذًا قضيت عزيزًا وانت حيٌّ ستلقى ربك باسماً مفتخرًا فادع لي ان القاهُ منتصرًا على القوم الظالمين »

قال ذلك وتحوّل يلتمس جبل المقطم ولم يدركهُ حتى انبلاج الصبح فلقي العبد قد سبقهُ الى هناك ومعهُ الجمل وسائر معدات السفر

الفصل الخمسون

تمام الحيلة

فلنتركهُ سائرًا يطوي البيداء ولنعد الى قطام في الكوفة وما كان من دهائها ومكرها بعد سفرهِ . فقد ذكرنا ارسالها عبدها الى الفسطاط للوشاية بسعيد وعبدالله ثم خلت بلبابة فقالت لها « لقد تمت لنا الحيلة في قتل هذين المغرورين فانهما مقتولان لا محالة . بقي علينا ان نعلم من هو المؤامر على قتل علي فاذا عرفناه نشطناه على قتلهِ وساعدناه فان قبيلتي كلها تنصرهُ في ذلك »

فضحكت لبابة وقالت « انهُ امر سهل فان عبدك ريحان ماهر باساليب الدهاء مثل سيدتهِ ولا نظنهُ الاّ عائدًا الينا بالخبر اليقين واما تحريض ذلك المؤامر على القتل فهو اسهل وخصوصًا اذا رأى هذا الوجه الجميل فانهُ مفتتن بهِ لا محالة فما عليك حينئذٍ الاّ ان تعديهِ بالزواج وتجعلي قتل علي مهرًا حلالاً لك . . . كيف رأيتِ رايي ؟ »

فقالت قطام بورك فيك ياخالة والله انك معبّرة عن احساسي . اما وعده بالزواج فهو امر سهل عليّ . ولا نظننا نحتاج في البحث عن ذلك الرجل الى كبير مشقة فانهُ اذا دنا الميعاد المضروب لا بد من قدومهِ الى الكوفة واذا جاءها فلا بد من ان يطلع احداً من اهلي على عزمهِ املهِ اننا على دعوتهِ . فاذا عرفناه هان عليّ كل عسير

صدق القائل « كل سرجاوز الاثنين شاع » فلم يدخل شهر رمضان حتى تحدث اهل الكوفة في حادث فظيع يخافونهُ على حياة امير المؤمنين وكان الناس يتداولون ذلك الخبر همساً وهم لا يعبأُون بهِ لانهُ غير مسند الى شاهد ولا احد عرف القائل . فضلاً عن علم العقلاء منهم ان امثال تلك الاشاعات جائزة في مثل ما كان فيهِ الامام علي يومئذٍ . ولم يفت الامام واهل حاشيتهِ شيءٌ من تلك الاشاعة ولكنهم لم يعبأُوا بها وحملها اهلهُ واصحابهُ على اشاعات ينشرها ذوو الاغراض . ومما تحسن الاشارة اليهِ انك قلما ترى حادثاً فظيعاً لم تتقدمهُ الاشاعات المنبئة بقرب وقوعهِ . وهو سرٌّ لا نفهمهُ ومهما يكن من الامر فان اهل الكوفة كانوا يتحدثون بسلاء يخافونهُ على امير المؤمنين ولكن اكثرهم كانوا لا يكترثون

ومضت ايام ودخل شهر رمضان فاصبحت قطام قلقة لتعرف من هو المؤامر على قتل الامام علي لتنصرهُ او تحرضهُ . فلما اقترب نصف الشهر ولم يأْت احد ولا سمعت باحد ظنّت المؤامرين عدلوا عن عزمهم تهيباً وفرقاً واستبطأَت عندها ريحان وقد كانت في انتظار قدومهِ لعلها تسمع منهُ شيئاً عن اولئك المؤامرين ولكي تسأَلهُ عما آلت اليهِ حال سعيد وعبد الله . على انها لم تكن تشك في وقوعهما في الفخ

الفصل الحادي والخمسون

﴿ عود ريحان ﴾

واصبحت قطام في الخامس عشر من رمضان والباب يُقرع وكانت لبابة تبيت عندها بعد سفر ريحان . فنهضت لبابة فسمعت جعجعة جمل عرفت انهُ جمل ريحان فاسرعت الى الباب ففتحتهُ فاستقبلها ريحان فقبّل يدها وهو لا يزال بلباس السفر ودخل .

توًّا الى غرفة سيدتهِ فلما رأتهُ ابتسمت لهُ ابتسامة عوضت عليهِ كل شقائهِ · فتقدم لتقبيل يدها وهو مشرق الوجه اشارة الى نجاح مسعاه · فقالت اني اقرأ آيات البشر على وجهك وان كان اسود اللون فاقصص عليَّ تفصيل ما أتيتهُ من آيات الدهاء والمهارة

فقال وهو ينفض الغبار عن لحيتهِ ووجههِ « ركبت الى الفسطاط فوصلتها يوم الخميس قبل وصول سعيد وعبد الله بيوم فسرت توًّا الى الامير عمرو بن العاص وقصصت عليهِ خبر القادمين وان في الفسطاط جماعة من انصار علي يجتمعون في عين شمس كل جمعة · فأمر رئيس شرطتهِ ان يتهيأ للوقت المعين وخمت ان يهاجموا المكان قبل وصول سعيد وعبدالله ولكنهما وصلا في اليوم التالي وذهبا الى المجتمع وقبضت الشرطة عليهم جميعًا ولكني لم ار سعيدًا في جملة الاسرى »

فقطعت قطام كلامهُ قائلة وهل قبضوا على جماعة كبيرة من اولئك الانصار

قال قبضوا على نحو عشرين وعبد الله معهم

قالت وسعيد ؟

قال لم ارهُ واظنهُ تأخر عن الاجتماع فلم يحضر فنجا بنفسهِ

قالت وماذا فعلوا بالاسرى

قال ساقوهم الى النيل واماتوهم غرقى في الليلة التي قبضوا عليهم فيها

فاشرق وجه قطام ثم انقبض بغتة ولبابة تنظر اليها كأنها تتلذذ بالتأمل في ملامحها · فلما رأتها انقبضت همت بها وقالت ما بالك ؟ ما الذي كدرك

قالت ان سعيدًا لا يزال باقيًا فاخاف ان يعرقل مساعينا

قالت لبابة لا خوف منهُ لانهُ كما تعلمين بسيط القلب سهل الانقياد تنطلي عليهِ الحيلة بسهولة · واما عبد الله رفيقهُ فقد رأيت فيهِ دهاء ومكرًا فالحمد لله على نجاتنا منهُ

قالت صدقتِ ولكن سرّ المؤامرة عند سعيد فاخاف اذا جاء واماً علياً بهِ ان يحتفظ عليٌّ بنفسهِ فيذهب سعينا هباء منثورًا

فاطرقت لبابة برهة ثم التفتت الى ريحان وقالت « هل عرفت الرجل المؤامر على قتل علي »

قال علمت انهُ من بني مراد واسمهُ عبد الرحمن بن ملجم

فبغتت لبابة وصاحت أ ابن ملجم هو . . ؟ لقد هان الامر

فقالت قطام وهل تعرفينهُ

قالت اعرفهُ جيداً وهو جريء قلَّ ان يقدم على مثل هذا العمل سواه واذا كان عبد الرحمن بن ملجم هو المؤامر فقد نلنا المرام فانهُ يحب الحسان ويستهلك في سبيل مرضاتهنَّ ثم ادنت فمها من اذن قطام وقالت ولا اشك اذا راك الاَّ خاطبك. ثم تحولت الى ريحان فقالت وهل رأيتهُ قبل مجيئك

قال لا ولكنني سمعت انهُ سافر الى هنا يوم وصولي الفسطاط وكنت اظنهُ وصل اليكم ولا اشك انهُ اذا جاء قدم اليكم لأني آنست من خبر حزبنا هناك ما يدلُّ على ذلك فهم يعتقدون فينا الكره الشديد لعلي واننا نريد قتلهُ وخروج الامر من يده. ولذلك فانا لا اظن المؤامر اذا اتى الكوفة الاَّ مكاشفًا بعض اسيادي من اخوتك او اعمامك

فقالت بالله ألا سرت الى اهلي وبحثت عن الرجل فاذا سمعت بخبره إئتني على عجل واحذر ان يعلم بانكَ مرسل من قبلي لهذه الغاية وانت فطين عاقل فلا توقع نفسك في ما تلام عليهِ

وخرج ريحان ولم يبدل ثيابهُ فتبعتهُ لبابة الى حديقة البيت فوقفت بهِ في ظل نخلة وهمست في اذنهِ قائلة « اذا لقيت الرجل قل لهُ ان خالتك لبابة هنا وهي تريد ان تراك لامر هام » وعجّلهُ بالمجيء واذكر لهُ اني مقيمة في منزل سيدتك قطام واحتل في حديثك بحيث يفهم منك ما عليهِ سيدتك من الحسن والجمال واني ربما ساعدتهُ على الزواج بها . وانت فطن عاقل لا تحتاج الى تدريب في ذلك . فقبل ريحان يدها وهو يضحك ويهز رأسهِ كأنهُ يقول « يظهر انك لا تعتقدين فطانتي ولولا ذلك لم يكن ثمت داع لهذا التصريح »

الفصل الثاني والخمسون

﴾ لبابة وابن ملجم ﴿

وانصرف ريحان وعادت لبابة الى قطام وملامحها تدل على اعجابها بدهاء قطام وابتسمت وهي تقول لاريب عندي اننا فزنا بما نريد وقلبي يحدثني ان علياً سيُقتلُ ويشفي غليلنا منهُ على اهون سبيل

اما قطام فظلت صامتة وقد اقطبت حاجبيها كانها تفكر في امر ذي بال فقالت لها لبابة ما بالك يا قطام ما الذي حدث لك فاوجب هذا الاهتمام

قالت اني خائفة ياخالة

قالت ما الذي يخيفك

قالت اني خائفة من سعيد فقد قال لنا ريحان انهم لم يقبضوا عليهِ في الفسطاط ولا يبعد انهُ اطلع على اسم المؤامر وميعاد القتل ولا اخالهُ الاَّ قادماً بخبرهِ الى علي فاذا اخبرهُ بامرهِ تعرقلت مساعينا وذهب سعينا عبثًا

فقالت لبابة وما الرأْي يا بنيَّة

قالت لا بدَّ لنا من تدبير الامر بالحكمة وتدارك الحادث قبل وقوعهِ

قالت هاتِ رايك

قالت ارى اَولاً ان نسعى في امساكهِ عن الذهاب الى علي · اذ قد يتراءى لهُ ان يسير اليهِ حال وُصولهِ الكوفة

فقالت وهذا سهل فاننا نبعث ريحان فيلاقيهِ في مكان خارج الكوفة لا بد لهُ من المرور فيهِ فاما ان يؤخرهُ عن دخول الكوفة او ان يدعوهُ الينا بحجة اشتياقك الشديد اليهِ !! ولا اشك انهُ اذا سمع بشوقك نسي كل شيءٍ وطار اليك · ومتى جاءنا أستبقيناه باي حيلة كانت واذا لم يبق مختاراً ابقيناهُ مجبوراً · ما قولك ؟

قالت ارى مثل رأيك ولكننا الآن في الخامس عشر من رمضان ولم يبق الاَّ يوم واحد قبل اليوم المعين فلا بد من المبادرة في ارسال من يوقفهُ خارج الكوفة او يستقدمهُ الينا وريحان قد سار الى اهلي وربما ابطأ علينا

قالت لبابة دعي هذا اليَّ ها اني ذاهبة في اثر ريحان فابعثهُ الى خارج الكوفة

وابحث عن ابن ملجم بنفسي وذلك سهل عليّ لاني اعرفهُ شخصيًّا . قالت ذلك وتبرقعت وتناولت عكازها وخرجت تعدو ولا عدو الشباب

وخلت قطام بنفسها فتأملت بما هي فيهِ من الامور وراجعت في مخيلتها ما دبرتهُ من الحيل في سبيل قتل الامام فرأت انها احسنت بارسال ريحان فاذا نجح في ايقاف سعيد ونجحت لبابة في استخدام ابي ملجم وتمّ لها اغراءهُ وتشجيعهُ نالت هي بغيتها وانتقمت لابيها واخيها . ولما تصورت وقوع ذلك انقبضت نفسها لفظاعة ذلك الامر ولكن شوقها للانتقام هوّن عليها كل صعب

وكانت قطام زكية الفؤاد متوقدة الذهن ولو انها كانت حسنة الخلق رقيقة العواطف واستخدمت ذكاءها وفطنتها في سبيل الخير لأتت باعمال يعجز عنها اعاظم الرجال ولكنها خُلقتْ شريرة شديدة الانتقام فاستخدمت تلك الجوهرة الثمينة في سبيل الاذى . وذلك كثيرًا ما يحدث بين الناس اليوم وغدًا . فترى اناسًا خصتهم العناية بذكاء ومهارة وصفاء ذهن فيصرفون تلك القوى في سبيل الشر ويوجهونها الى الاضرار بالناس طوعًا لمطامعهم او رغبة منهم في انتقام او نحو ذلك

فأعملت قطام فكرتها بعد ما تهيأ لها من ضروب الحيل فوجدت انهُ لا يزال ينقصها احتياط واحد لا بد من تداركهِ . وذلك ان سعيدًا ربما لا يلتقي بريحان لاختلاف في الطريق او ربما التقى بهِ ولم يصغ ِ الى قولهِ والتمس الذهاب الى الامام علي فأطلعهُ على سرّ المؤامرة . فلما تصورت ذلك خفق قلبها واضطربت حواسها ونهضت للحال وجعلت تمشي في غرفتها ذهابًا وايابًا وتخرج منها الى الغرفة الأُخرى وهي تود ان تعود لبابة لتتداول وإياها في هذا الامر وندمتْ على ارسالها في تلك المهمة قبل الافتكار في ذلك

ولما تعاظم بلبالها خرجت الى حديقة النخيل وكانت الشمس قد تكبدت السماء وانحسرت الاظلال واتفق وقوع شهر رمضان في تلك السنة (٤٠ هـ) في ابان الشتاء لانهُ يبدأ في العاشر من يناير (ك ٢) (١) وكان يوم خروج قطام الى الحديقة يومًا صحا جوّهُ فحسن الخروج بهِ الى الخلاء في ساعة الظهر للاستدفاء بأشعة الشمس . فمشت بين النخيل مبتعدة عن السور الذي يلي الطريق الى ما يلي البحيرة وهي لا تنتبه لما حولها من صرير او تغريد او نقيق ولم يكن همها الاّ اتمام مرامها

---

(١) التقويم العام

الفصل الثالث والخمسون

﴿ لقاء ابن ملجم ﴾

قضت في الحديقة ساعة وهي وحدها في كل تلك الدار فملّت الشمس وحرارتها فعادت نحو البيت . وفيما هي عائدة سمعت اناسًا يتكلمون عن بعد فوقفت على ارومة نخلة كانوا قد قطعوها للوقود منذ عامين والتفتت نحو الطريق فرأت شبحين ولم تلبث ان عرفت انهما لبابة ومعها رجل غريب الزي علمت انهُ عبد الرحمن ابن ملجم . فحوّلت انتباهها الى اتمام هذه الحيلة فدخلت البيت على عجل وكانت قد رأت لبابة تكلم عبدالرحمن وتشير اليها باصبعها . ولما دخلت الغرفة عمدت الى النقاب فارسلتهُ على رأسها وجلست على وسادة تعوّدت الجلوس عليها اذا استقبلت الزائرين من الغرباء . ولبثت صامتة تنتظر دخول لبابة وما عتم ان سمعت صوت ضحكتها قبل سماع خفق نعالها . وبعد قليل دخلت لبابة وحدها فاستقبلتها قطام استقبال المشتاق ودعتها الى الجلوس

فقالت لا اجلس قبل ان ادعو رفيقًا لي صحبتهُ لزيارتك

فقالت اهلاً بك وبرفاقك اجمعين فليدخل .

فصاحت لبابة بالخال ادخل يا عبدالرحمن

وما اتمت كلامها حتى وقف في الباب رجل طويل القامة نحيف البدن خفيف اللحية اشمطها براق العينين بحيث يكاد الشرر يتطاير منهما وعليهِ العباءة والقفطان والعمامة وآثار السفر لا تزال بادية على نواتئ . وجههِ وخصوصاً الانف فقد كان شديد الاحمرار . فخلع عبد الرحمن نعالهُ خارج الباب وحيَّا ودخل . فردّت قطام التحية وهي تهمُّ بالوقوف واشارت اليهِ ان يجلس فجلس الاربعاء وسيفهُ مستعرض على حضنهِ وظهر من كيفية جلوسهِ انهُ شديد الحرص على ذلك السيف كأنهُ يخاف عليهِ الضياع

ففتحت قطام الكلام قائلة الى من ينتسب ضيفنا

قال الى بني مراد

قالت والنعم والبركة

فقالت لبابة وهو عبد الرحمن ابن ملجم من القراء المشهورين قرأ على معاذ بن جبل [(١)] . اظنك سمعت به

قالت انت تعلمين حالي يا خالة بل انت ادرى مني بما هو شاغل بالي من الاحزان والمصائب فلم يبقَ لي عقل اذكر به شيئاً غير مقتل اخي وابي . . آه من الظلاّم اهل العدوان . قالت ذلك واجهشت بالبكاء وما اسهل ما تستنزل به الدموع

الفصل الرابع والخمسون

خطبة جديدة

وكان عبدالرحمن ينظر اليها من طرف خفي و يلاحظ ملامحها فافتتن بها ايما افتتان وكان قد سمع بجمالها وودّ لو انها تكون له . ولما لقيته لبابة لم تذكر له شيئاً مما عرفوه عن عزمه ولكنها قالت له علمت بمجيئك الكوفة واعلم انك تحب الحسان واعرف واحدة منهنّ ليس اجمل منها في العراق . فجاء ولما رآها تحقق ما سمعهُ فانشغف بها ومن عجيب امر هذا الرجل انهُ مع عظم ما انتدب نفسهُ له من الامر الهائل بقتل امير المؤمنين وقرب اليوم المعين لم يشغلهُ عن مغازلة الحسان شاغل . فلما سمع كلام قطام ورأى اجهاشها قال وما الذي يحزن مولاتي ؟ ألا استطيع تفريج كربتها

فقالت لبابة لا يخفى عليكَ ما اصابها على اثر واقعة النهروان فقد قتل فيها والدها واخوها رحمها الله وهي لا يمضي يوم لا تذكر تلك المصيبة وتبكي ذينك الفقيدين ولكنني اريد ان اشغلها عن هذه الاحزان بمن يليق بها . . .

ففهم عبدالرحمن انها تلمح الى خطبتها له فقال اني والله اكون اسعد حظا من الجميع اذا تمّ لي ذلك

فتجاهلت قطام وقالت وما الذي تتمناه يا سيدي

قال لقد جئتك خاطباً وانت في احزانك عساي ان استطيع تفريجها فاطلبي مني ما تشائين مما تقر به عيناك

فتنهدت قطام ثم قالت اني لأعجب من تسرعك في الطلب ونحن لم نلتق قبل الآن

---

(١) ابن دقماق ج ٤

فقطعت لبابة كلامها قائلة « نعم انكما لم تلتقيا قبلُ ولكن لبابة تعرفكما جيداً واذا اذنت مولاتي بكلمة فأقول انكما انما خلقتما لتعيشا معاً »

فسكتت قطام فقال ابن ملجم « ومع ذلك فاطلبي ما تشائين فيكون لك »

فظلت قطام ساكتة برهة تتظاهر بالحياء والتردد اتماماً للحيلة . ثم التفتت الى لبابة كأنها تقول لها « اني استحيي ان اقول » فقالت لبابة انا اقول . . اجعل مهرها ثلاثة آلاف دينار وعبداً وقينة

ولم تتم لبابة قولها حتى صاحت قطام « لا . لا يرضيني ذلك ولا مطمع لي في المال كما تعلمين » فقال عبد الرحمن « اطلبي ما تريدين »

فتظاهرت بالتمنع وصبرت هنيهة كأنها تستخف بما اقترحتهُ عليها من الطلب ثم قالت « ان مهري انما هو قتل علي بن ابي طالب قاتل ابي واخي »

فابتسم عبد الرحمن ونظر اليها ويدهُ على قبضة سيفهِ وقال « ان ذلك وما قالتهُ هذه الخالة سيكونان لك : ثلاثة آلاف دينار وقتل ابن ابي طالب وعبد وقينة . فان مثلك لا يعز في سبيل نيلها مهر . واعلمي اني انما جئت الكوفة لهذه الغاية انظري الى هذا السيف (وجردهُ فلمع نصالهُ لمعاناً شديداً) اني اشتريتهُ بالف وسممتهُ بألف لاقتل علي بن ابي طالب به

فابتسمت وقالت ولكنني ارجو ان يكون ذلك عاجلاً لئلاَّ تفوت الفرصة

فقال ان موعدنا قريب لم يبق منهُ الاَّ يوم وليلة سأقتلهُ في صباح ١٧ من هذا الشهر المبارك اي بعد غد فاطمئني

قالت وكيف عينت اليوم والساعة الا يستحسن ان يكون ذلك غداً

قال ان لذلك سبباً ساذكرهُ لك بعدئذ ولكنني اقول الآن اني مقيدٌ في انفاذ مهمتي في صباح ذلك اليوم

فسكتت قطام وهي تتجاهل ما علمتهُ من امر المؤامرة

وكانت لبابة عالمة بغياب ريحان وان لا بد من زاد يتناولهُ الضيف فاستدعت عبدها في اثناء قدومها فجاء واعدَّ لهم طعاماً تناولوه

وما صدقت قطام ان خلت بلبابة لحظة فاشارت اليها انها تحب مخاطبتها في امر ذي بال على انفراد فاحتالت هذه على عبدالرحمن حتى التمس الخروج الى السوق في شغل له وخلت قطام بلبابة للبحث في تمام الحيلة

الفصل الخامس والخمسون

﴿ مهمة ريحان ﴾

اما ريحان فان لبابة ادركتهُ في الطريق قبل عثوره على عبدالرحمن فأمرتهُ ان يسرع في ملاقاة سعيد خارج الكوفة والقت اليهِ من اساليب المكر والدهاء ما يكفل نجاح مهمتهِ . فسار اولاً الى ساحة كبيرة في وسط الكوفة تجتمع فيها الدواب من القوافل وغيرها . ولا بد للقادم الى تلك المدينة من المرور بها او النزول فيها

وقبل وصولهِ اليها سمع جعير الجمال وصهيل الخيل ولما وصل رأى الساحة غاصة بالدواب وبينها الناس في هرج بين راكب ونازل ورأى الاحمال ملقاة هنا وهناك فجعل يتفرس بالوجوه لعلهُ يرى سعيداً او احداً من خدامهِ.فلم يرَ احداً . فجاء بيت سعيد فسأل عنهُ فعلم انهُ لم يأتِ بعد.فخرج يلتمس الطريق خارج الكوفة وهو ينظر الى الافق لعلهُ يرى هجاناً او فارساً . فمشى ساعتين ولم يرَ احداً فوصل الى شجرة كبيرة يستظل بها المسافرون للراحة قبل دخولهم المدينة ولا بد لمن كان قادماً من الشام او مصر من المرور بها . فجلس هناك وعيناهُ شائعتان الى عرض الافق يفكر في حيلة تطلى على سعيد فيستبقيهِ هناك او يسير بهِ الى بيت قطام . فغربت الشمس ولم يأت احد وكان القمر بدراً فلم تكد تغرب الشمس حتى طلع البدر وانعكست الاظلال من الشرق نحو الغرب . فاتكأ على حجر وعيناه تنظران الى الافق

قضى ريحان هناك اوائل الليل وعيناهُ شاخصتان وقلبهُ يخفق وكلما رأى شبحاً ظنهُ سعيداً فاشتد بهِ البرد وهو يكابر ويتجلد . وحدثتهُ نفسهُ ان يرجع فخاف ان يأتي سعيد في اثناء غيابهِ فيذهب سعيهُ هباء منثوراً فالتف بثوبهِ . وبعد نصف الليل غلبهُ النعاس وهو يتجلد ولكنهُ لم يقوَ على سلطان النوم فاغمضت عيناهُ على انهُ لم ينم طويلاً فاستيقظ مبغوتاً فاسف لما تولاهُ من الرقاد فنهض وهو يخاف ان يكون سعيد قد مرَّ ولم يرهُ . فوقف برهة يفكر في ماذا يعمل فصبر نفسهُ الى الصباح فلم يأتِ احد فخيل لهُ ان سعيداً مرَّ في اثناء نومهِ فعاد الى الكوفة باسرع من لمح البصر فبحث في ساحتها وسار الى بيت سعيد فتحقق انهُ لم يأتِ بعد فرجع الى الشجرة وقضى معظم النهار تحتها

او حولها كأنهُ على جمر الغضا . وهو مع ذلك صابر لا يتذمَّر ولا يتضجَّر حتى غابت الشمس وطلع القمر . فقال في نفسهِ لم يبق الاَّ هذه الليلة فاذا لم يصل الرجل لم يبق ثمت حاجة الى بقائي اذ يكون قد نفذ السهم وقتل عليٌّ . فازداد اضطرابهُ وتمنَّى ان لا يأتي سعيد فيتخلص هو من تدبير الحيل في اخذه الى قطام وهو مع ذلك لا يرجو ذهابهُ معهُ لقرب ميعاد القتل

ولم يدن العشاء حتى رأى جملين قادمين عن بعد وعليهما راكبان فاختلج قلبهُ واصطكت ركبتاه وزاده البرد ارتعاشاً . فلما اقتربا وقف وتقدم نحوهما فاذا هما سعيد وبلال عبد خولة وكانا ملثمين فعرف سعيداً من قيافتهِ واما بلال فلم يعرفهُ

الفصل السادس والخمسون

﴿ ريحان وبلال ﴾

وكان سعيد قد قضى مسافة الطريق في قلق على الامام وما صدق انهُ اطلَّ على الكوفة فانفرجت ازمتهُ وعوَّل ان يسير توًّا الى منزل علي . فلما وصل الى تلك الشجرة ترجَّل وترجل عبدهُ على نية الاستراحة هنيهة ثم المسير . فاستقبلهُ ريحان وسلَّم عليهِ فلما رآه سعيد استأنس بهِ وردَّ السلام ثم قال لهُ ما الذي جاء بك يا ريحان

قال « ان سيدتي منشغلة الخاطر لطول غيابك » واشار اليهِ ان يدنو منهُ ليبث اليهِ ما اؤتمن عليهِ من السر . فدنا منهُ على انفراد وانشغل بلال بسياسة الجملين

فقال ريحان « ان سيدتي قطاماً تقريك السلام وتقول لك لقد اطلت الغيبة عليها انت وسيدي عبدالله »

فتنهد سعيد وقال « لا تذكر عبدالله فقد تركناه في مصر » قال ذلك وهو لا يريد ان يطارح العبد في مثل هذه الشؤون انفةً وترفعاً فاكتفى بالسكوت فسكت ريحان عن سؤالهِ وهو يعلم ان عبدالله أُغرق في جملة من اغرقهم عمرو بن العاص في النيل ولكنهُ قال « وماذا اقول الآن لسيدتي هل انت قادم للمبيت عندنا الليلة فانها قد اعدت لك كل وسائل الراحة »

فلبث سعيد برهة تتنازعهُ عوامل الشوق الى قطام وبواعث العجلة الى علي فرأى

ان ميعاد القتل قد آن فاذا بات تلك الليلة في منزل قطام تمتع برؤيتها ويشف سماعهُ بحلو حديثها اصبح في الغد وقد قتل عليًّا لان المؤْمر لا يتأخر عن فعلتهِ الى ما بعد صباح السابع عشر فقال « اذا ذهبت اليها الليلة اراها برهة ثم اسير الى علي » قال ذلك والتفت الى بلال فرآه مهتماً في اعداد العشاء فناداه باسمهِ فجاء فلما سمع ريحان اسم بلال اختلج قلبهُ في صدره ولما دنا منهُ وتفرس فيهِ عرف انهُ عبد خولة وكان قد لقيهُ في الفسطاط وباح لهُ بهمهِ ولم يكن يخطر ببالهِ يومئذٍ انهُ سيأتي مع سعيد . فارتبك في امره وحاول اخفاء حالهِ لئلاَّ يراه بلال فيعرفهُ . اما بلال فلما دعاه سعيد اسرع الى ما بين يديهِ فقال سعيد « ألا ترى ان نسير توًّا الى الكوفة »

قال بلال « الامر لمولاي ولكنني اعددت لك طعاماً ألا تتناولهُ ونستريح هنيهة ثم نسير الى حيث تشاء »

قال « ولكن بعض اهلي بعثوا في استقدامي للعشاء ».

والتفت بلال الى ريحان فرآه قد تقهقر الى جزع الشجرة يستتر بظلها فلم ينتبه لهُ وكان سعيد قد أنس ببلال في اثناء الطريق واطلعهُ على حديث المؤامرة . فاغتنم بلال تلك الخلوة فقال لسعيد « ألا ترى يا مولاي ان نتم مهمتنا التي جئنا بها من الفسطاط قبل كل شيء اني أخاف ان يكون ذهابنا الى اهلك سبباً في التأخير وهم ربما لا يعلمون الغرض الذي يدعونا الى الاسراع وربما حدث لك بعد العشاء ما يؤخرك عن تلك المهمة اما اذا انفذنا مهمتنا واطلعنا الامام على ما خبأهُ لهُ اهل البغي نمضي الى حيث تشاء هذا ما اراه والامر لك . على اني قد اعددت لك الطعام الآن فاذا شئت اكلت ثم فعلت ما يتراءى لك »

فارتاح سعيد لهذا الرأي ولكنهُ اراد ان يخبر بلالاً باطلاع ريحان على سرّ الامر فقال لهُ « ولا اخفي عليك ان هذا الهمام (واشار الى ريحان) من جملة الساعين في ما نحن فيهِ »

فقال بلال « فهو يعذرنا اذًا اذا رأى اننا نفضل المسير الى منزل الامام . تفضل الآن الى المائدة وانا اشتغل معهُ في تهيئة الجملين فاذا فرغت من الطعام سرنا جميعًا »

الفصل السابع والخمسون

انكشاف الخديعة

قال ذلك وتحوّل نحو ريحان وكان ريحان واقفاً بجانب الشجرة وهو يود ان لا يخاطبهُ احد . وحدثتهُ نفسهُ ان يرجع الى الكوفة لئلاَّ يراهُ بلال فينكشف امرهُ . ولكنهُ ما لبث ان رأى بلالاً يدنو منهُ ويكلمهُ فردَّ عليهِ بصوت منخفض وهو يتشاغل باصلاح نعليهِ وشملتهِ لا يرفع نظره اليهِ . فاستغرب بلال ذلك فتقدم اليهِ وناداه وقال « تعالَ يا اخي نمكث هنيهة ريثما يتناول مولاي طعامهُ ثم نسير معاً »

فسكت ريحان ولم يجب ولكنهُ تظاهر بانهُ اضاع عصاهُ وتحوّل للبحث عنها وبلال يتبعهُ ويعجب لما يبدو منهُ . فلما بعد ريحان عن ظل الشجرة بانت سحنة فتذكر بلال انهُ يعرفهُ وفطن للحال انهُ هو الذي اسرَّ اليهِ خبر مهمتهِ الى الفسطاط . فانتبه ان في الامر خديعة وخصوصاً لما رآهُ يحاول اخفاء وجههِ . فتقدم اليهِ وامسكهُ بيدهِ وقال « تعال يا صاحبي نمكث هنا ريثما ينهض مولانا فنسير معاً » فلم يرَ ريحان خيراً من ان يجتذب يدهُ ويتظاهر بالغضب فتبعهُ بلال وهو يقول « يظهر انك لم تعرفني يا صاح الا تذكر اننا التقينا في الفسطاط »

فصاح بهِ ريحان « واي فسطاط . . اني لا اعرف الفسطاط ولا اعرفك قبل الآن وليتني لم اعرفك فقد اضعت عصاي بسببك »

فسمع سعيد صياحهُ وكان قد جلس الى الطعام فنظر اليهما عن بعد فرآهما يتحاوران فوقف ونادى عبد قطام قائلاً « لا تغضب يا ريحان ان بلالاً على دعوتنا »

فلم يتهيأ لريحان غير السكوت والمجيء اليهِ لئلاَّ تتأكد الشبهة عليهِ . ولكنهُ اصرَّ على نكران ذهابهِ الى مصر

فلما دنا من سعيد قال لهُ « ما بالك تخاصم بلالاً »

قال « اني لا اخاصمهُ ولكنني اضعت عصاي وفيما انا ابحث عنها جاءني بحديث لا اعرف لهُ اصلاً »

قال سعيد « وما ذلك يا بلال وما الذي قلتهُ لهُ »

قال « لم اقل لهُ شيئًا ولكنني تذكرت اني رأيتهُ في الفسطاط منذ بضعة عشر يومًا وهو ينكر ذلك كل الانكار »

فلما سمع سعيد ذلك استغربهُ وقال « يحق لهُ ان ينكر عليك ذلك لانهُ لم يبرح الكوفة منذ اشهر »

فاعاد بلال النظر الى ريحان وتفرس في وجههِ وقال « بل انا على يقين مما اقول وقد لقيتهُ هناك غير مرة ولكنهُ معذور في انكاره لان وجودهُ هناك عاد باشر العواقب على سيدي ورفيقهِ »

فبغت سعيد وكانت اللقمة في فيهِ فلم يعد يستطيع ازدرادها وكاد يغص بريقهِ ووقف للحال وقال « ما تقول يا بلال اظنك تخلط في القول ان ريحان عبد قطام بنت شحنة وقد تركتهُ هنا يوم سفري وانا واثق بانهُ لم يبرح الكوفة ولعل الذي رأيتهُ في الفسطاط عبد آخر يشبههُ »

الفصل الثامن والخمسون

﴿ يحاول عبثًا ﴾

فلما سمع ريحان ما التمسهُ سعيد من العذر عنهُ اطمأن بالهُ وقال بصوت هادئ « يظهر انهُ غلطان كما قلت لان البشر يتشابهون ولكنهُ سامحهُ الله جاءني مغضبًا وانا افتش عن عصاي فاغاظني حتى سمع مني كلامًا مؤلمًا فانا اطلب اليهِ ان يعذرني على ما فرط مني » والتفت الى بلال وهو يبتسم ايهامًا بسلامة نيتهِ

اما بلال فكان في اثناء ذلك ينظر الى ريحان ولا يزداد الاَّ اعتقادًا بانهُ هو الرجل الذي خاطبهُ في الفسطاط وبادتهُ سيدتهُ خولة في اثناء خطابهِ وقصَّ عليها خبرهُ كما مرَّ . فلما آنس منهُ ذلك اللين ظلَّ يتفرس فيهِ وهو صامت فلما اتمَّ ريحان كلامهُ قال لهُ بلال « ربما كنت مخطئًا في ظني ولكني اسألك سؤالاً ارجو ان تجيبني عليهِ »

قال « قل ما بدا لك »

قال « ألا تذكر انك رأيت هذا الوجه » (واشار الى وجههِ هو)

فتفرس فيهِ ريحان وهو يظنهُ يتول ذلك بسذاجة ثم قال « لا يا اخي لا اذكر اني رأيتك قبل الآن »

فقال « يا للعجب ولكنني واثق باني لقيتك وخاطبتك فرأيت هذا الوجه وسمعت هذا الصوت . فالظاهر انك سرت الى الفسطاط قبل هذا العام »

قال « نعم اني سرت اليها منذ بضعة اعوام »

فضحك بلال وقال « ولكنك قلت الآن انك لا تعرفها »

فارتبك ريحان في نفسهِ وعمد الى المغالطة فقال « دعنا من هذه الاوهام ولا نشغل بالنا بما لا طائل تحتهُ »

وكان سعيد في اثناء ذلك يسمع كلامهما والاخلاص لا يزال غالبًا عليهِ

اما بلال فخاف ان يترتب على سكوتهِ ذهاب سعيد مع ريحان . فقال لريحان « اذا كان الحال على ما تقول فعليك ان تساعدنا في انفاذ المهمة التي نحن قادمون بها دعنا نذهب الى منزل الامام الآن »

قال « انا اكثر رغبة منك في هذا السبيل ولكن الليل طويل فاذا ذهب معي مولاي الى سيدتي قطام فتراه ثم يذهب الى حيث شاء كان ذلك اوفق »

قال « فليذهب هو معك وانا امضي الى منزل الامام بالنيابة عنهُ »

فضاق ريحان ذرعًا وظهرت البغتة على وجههِ ولم يرَ لهُ مخرجًا من ذلك غير التظاهر بالغضب فقال « ولماذا هذه الظنون ألعلك تسيء الظن بنا ونحن اولى منك بهذا الامر »

فتحقق بلال حينئذٍ ان ظنهُ في محلهِ فقال « نعم اني اظن السوء بك وبسيدتك بعد هذا »

فخاف ريحان ان يفضي الامر الى انكشاف امره فتظاهر بالغضب وقال « اني لأعجبُ من هذا الاحمق ويظهر ان مولاي صار على وقاحتهُ فانا ذاهب منذ الآن وأفعلا ما تشاآن »

قال ذلك وتحوّل يعدو نحو الكوفة وظل سعيد وبلال صامتين كأن على راسيهما الطير

الفصل التاسع والخمسون

انقشاع الغشاوة

مضى ريحان وهما ينظران اليهِ لا يفوه احدهما بكلمة . فلما توارى قال سعيد « ما الذي اراهُ يا بلال اني احسب نفسي في حلم ? ما الذي تقولهُ عن هذا العبد هل انت متحقق انك رأيتهُ في الفسطاط ? »

قال « نعم يا مولاي اني شديد الوثوق بذلك وقد زادني وثوقًا تناقض اقوالهِ وتستره بعد ما اقترحنهُ عليهِ »

قال « فلو كان قدم الفسطاط ما الذي يدعوهُ الى التستر »

قال « يدعوه الى التستر ما ارتكبهُ من الخيانة هناك . آه من هذا النذل يا ليتني قبضت عليهِ واهرقت دمهُ قبل فرارهِ من بين يديَّ . انهُ وشى بكما لعمرو ابن العاص »

فبغت سعيد وبدأت الغشاوة تحسر عن بصيرتهِ وتذكر ما قصتهُ خولة عليهِ من حديث عبدها مع عبد آخر وشى بهما الى ابن العاص . وانهُ استغرب يومئذٍ ان يتصل خبرهما الى الفسطاط وهما انما قدما اليها سرًّا لا يعلم بهما احد غير قطام ولبابة وهذا العبد . فانجلت لديهِ الواقعة وخطر لهُ ان ريحان لا يسير الى الفسطاط الاَّ بايعاز سيدتهِ وتذكر ما كان يؤاسهُ في ابن عمهِ عبدالله من الشك في قول قطام فندم على استسلامهِ لها وعض على سبابتهِ وظل واقفًا لا يبدي حراكًا وبلال واقف بين يديهِ صامتًا . ثم قال سعيد آه يا بلال بورك بخولة وبورك بلبنٍ رضعتهُ انها والله كانت ملاكًا سماويًّا بعثهُ الله لكشف تلك الخديعة . ولكن يا ويلاه قد نفذت حيلة قطام على عبد الله فمات غريقًا . . . . ولكنها لن تنفذ على الامام علي فاحمد الله على انكشاف امرها قبل انقضاء اجل المؤامرة

ثم صمت وتذكر حبهُ قطامًا وما بذلهُ لها من الاخلاص وما اجرتهُ عليهِ من الحيل فعظم الامر لديهِ وامست عواطفهُ تتراوح بين ما انغرس في قلبهِ من الحب وما انكشف لهُ من الخديعة فلم يتمالك عن البكاء . ولكنهُ خجل ان يذرف الدمع بين

يدي بلال فاشار اليهِ ان يهيء الجمال وحوّل وجههُ الى الخلاء ومشى وقد اطلق لنفسهِ عنان البكاء وهاج بهِ الاسف لما اصاب ابن عمهِ عبد الله من البلاء بسببهِ فجعل يندبهُ ويندب سوء حظهِ ويقول

« تبًّا لك يا قطام . اصحيح انك انفذت عبدك للوشاية بنا الى ابن العاص ليقتلنا . . . ابن عهودك واين وعودك ابن ما سمعتهُ منك من الرجوع عن قتل الامام علي . . . وا اسفاه عليك يا اخي وحبيبي عبد الله انك ذهبت ضحية جهالتي ودهاء هذه المرأة . . . . آه يا قطام . . . . . هل يوجد في الدنيا اناس قساة القلوب الى هذا الحد (قُتِل الانسان ما اكفره) اتسمحين بقتل محبٍّ استهلك في سبيل هواك وتقتلين بريئًا حملتهُ غيرتهُ على السعي في انقاذ امير المؤمنين . . . . . وتسمحين مع ذلك بقتل امير المؤمنين وانت تنظرين . . .

« آه لا يسمح لي الوقت ان اسير اليك فانتقم منك قبل الذهاب الى الامام . . . »

ثم وقف بغتة وانتبه لنفسهِ كأنهُ افاق من رقاد ونظر الى ما حولهُ فاذا هو في ليلة مقمرة صفا هواؤُها ورقَّ نسيمها فجعل يراجع ما مرَّ بهِ من الاحوال والاهوال وتذكر حبهُ قطامًا فغلب عليهِ حسن الظن بها فقال في نفسهِ « ولعل قطامًا بريئة وربما كان ريحان صادقًا وبلال مخطئًا » فلما تصور ذلك انبسطت نفسهُ . والمحب الغيور كثير الظنون الاّ في ما يأول الى الاضرار في حبيبهِ . على انهُ ما لبث ان تدبر القرائن والحوادث حتى رجح التهمة

وفيما هو يناجي نفسهُ التفت فرأى بلالا قد اعدَّ الجملين وهمَّ بالقدوم اليهِ فمسح دموعهُ وتحوَّل نحوهُ وهو يقول في نفسهِ « لقد نفذت حيلتكِ في اخي عبد الله ولكنها لن تنفذ في الامام علي . ها انني سائر الساعة الى بيتهِ وسأستعين بهِ على قتلك وقتل تلك العجوز المحتالة وذلك العبد الشرير . . »

قال ذلك وركب جملهُ وركب بلال في اثرهِ وسارا يلتمسان منزل الامام علي

الفصل الستون

منزل الامام علي

وكان منزل الامام علي بجانب المسجد بينهما باب السدّة يدخل منهُ الامام للصلاة . وكان للمنزل دار واسعة فيها المقاعد والمجالس لمن يفد عليهِ من العمال واهل الامصار . وبجوار المنزل ساحة واسعة فيها مرابط للخيل ومواقف للجماعات لا تبرح غاصة بجماهير الناس من دعاة الامام وكلهم مستهلكون في نصرتهِ معترفون بامامتهِ لا يرون احداً اولى بها منهُ . وكان اهل العراق وغيرهم قد اجمعوا في تلك السنة على نصرتهِ فبايعهُ منهم اربعون الفًا على الموت (١) . ولعلهُ كان ينتظر الفراغ من صيام رمضان ليحمل على معاوية بذلك الجند العظيم لا يغتر بمثل ما مرَّ بهِ من الحيل في صفين وغيرها بعد ان رأى ما آل اليهِ ذلك من تأييد سلطان معاوية

وكنت اذا دخلت مجلس الامام في تلك الاثناء رأيت رؤساء القبائل يترددون عليهِ ولا حديث لهم الا ما كان من اجتماع كلمتهم وما يتوقعونهُ من النصر وما يرجونهُ من احقاق الحق وكبح جماح الطامحين للخلافة من غير اهل البيت

ذلك كان شأن الكوفة في ذلك الشهر المبارك اما علي فلم يكن يشغلهُ عن فروض الصوم والصلاة شاغل فاذا دنت الساعة واذن المؤذنون تكاثف الناس في صحن المسجد لسماع كلامهِ بما فطر عليهِ من البلاغة وشدة الغيرة على الاسلام والمسلمين . فاذا وقف على المنبر رأيت الناس سكوتًا كأن على رؤوسهم الطير اعجابًا بما يسمعونهُ من درر الفاظهِ وبديع حكمهِ وبليغ آياتهِ وهم يعجبون لما قام في أنفس المعارضين ممن تخلفوا عن بيعتهِ وخصوصًا الخوارج الذين اختلقوا لمعاداتهِ اسبابًا ما انزل الله بها من سلطان

فاذا فرغ من صلاة الغروب تحوَّل الى داره ومعهُ جماعة من الامراء يتقدمهم اولاده وسائر اهلهِ فيجلسون الى الاسمطة للافطار والقراء يتلون القرآن في جوانب الدار والكل يسبحون ويهللون حتى يخيل لك انهم في موقف يتوقعون فيهِ الحساب

(١) ابن الاثير ج ٣

وما فيهم من يخاف عقاباً لما يعتقدونهُ من صدق دعوتهم وقيامهم بالحق المبين

وكان الامام اذا فرغ الناس من الافطار وجلسوا للاحاديث رأيتهُ اقلهم كلاماً واقصرهم عن التهديد · وربما مكث ساعة او بضع ساعات لا ينبس ببنت شفة كأَنهُ يفكر في امر ذي بال وربما كان تفكيرهُ في ما يخشاه من سفك الدماء اذا حمل برجالهِ على الشام ونفوس الناس وديعة عنده يضنُّ بها ان تذهب ضياعاً ولا يضنُّ بها اصحابها في سبيل نصرتهِ

الفصل الحادي والستون

ضمير ابن ملجم

كان ذلك شأْنهُ خصوصاً في اواسط رمضان وعلى الاخص في ليلة السابع عشر منهُ وهي الليلة التي بات فيها ابن ملجم يترقب انبلاج الصبح ليفتك بابن ابي طالب · وفي تلك الليلة اسرع سعيد وعبده الى منزل الامام لينبئاه بعزم ذلك الرجل

وما ظنُّك بابن ملجم تلك الليلة · · هل تظنهُ بات ساكن الجاش مطمئن الخاطر · · · هل عرف الكرى جفناه · · · كلاَّ · لا محالة قضى ليلتهُ الاَّ قلقاً مضطرباً لهول ما عوَّل عليهِ من الامر العظيم · وما اعظم من ان يسفك دماً بريئاً دم رجل جمع الى كرامة الخلافة شرف النسب واحرز من العلم ما لم يحرزه احد من المسلمين في ذلك العهد ؟ اليس هو ابن عم الرسول وخليفتهُ وصهره · أَليس هو ذلك العالم التقي العادل المخلص الغيور على الاسلام والمسلمين ؟ لا نظن ابن ملجم والحالة هذه قضى ليلتهُ الا على شوك القتاد لم يغمض لهُ جفن وقد طال ليلهُ · وربما حدثتهُ نفسهُ بالرجوع عن عزمهِ فغلب عليهِ عهده لرفقائهِ وتعهده لخطيبتهِ قطام بنت شحنة وخصوصاً بعد ان اشركت معهُ في ذلك الفعل ابن عم لها يقال لهُ وردان حرضتهُ على الاخذ بناصرهِ · ولقي هو رجلاً من اشجع يقال لهُ شبيب استحثهُ على ركوب ذلك المركب الخشن معهُ · فتواعد الثلاثة على العمل معاً في فجر الغد · فهل تظنهُ بعد تلك العهود والمواثيق يصغي لنداءِ ضميره اذا كان لهُ ضمير · ولو اصغى لما ارتكب ذلك المنكر

على انك لو سبرت غوْر قلبهِ في تلك الليلة وهو ينقلب على فراشهِ وسيفهُ المسموم الى جنبهِ لرأيتهُ يناجي نفسهُ و يدفع تبكيت ضميره بحجة انهُ انما عمد الى ذلك دفعاً لفتنة كان سببها تنازع علي ومعاوية وعمرو على السلطة والفتنة شرٌ من القتل

وكأن نفس الامام علي حدثتهُ نحو ذلك الزمن بخطر يتوقعهُ على حياتهِ . فكان مذ دخل رمضان يتعشى ليلة عند الحسن وليلة عند الحسين وليلة عند جعفر لا يزيد على ثلاث لقم ثم يقول « احبُّ ان يأْتيني امر الله وانا خميص » (١) واما في تلك الليلة فانهم تعشوا جميعاً في منزل الامام وهو جالس على المائدة لا يأْكل الاَّ قليلاً واولاده بين يديهِ ينظرون اليهِ و يعجبون لحالهِ

وكان حاجبهُ قنبر رجلاً من اهل الحبشة كهلاً اذا نام عليٌّ بات عند بابهِ وكان في تلك الليلة اشد الجميع قلقاً لم يتناول الافطار ولا هدأَ لهُ بال . اكل الناس وهو جالس القرفصاء عند الباب وعيناه شاخصتان الى الفضاء كأنهُ يتوقع قدوم قادم وهو لا يكلم احداً ولا انتبه احد لحالهِ ولو سأَلهُ بعضهم عن سبب قلقهِ لباح لهُ بما اطلع عليهِ من الاسرار التي ظن نفسهُ اكتشفها وهم يبحثون عنها عبثاً

وبعد صلاة العشاء ارفضَّ المجلس فذهب كل الى منزلهِ . وناموا جميعاً الاَّ قنبر فانهُ لبث ساهراً وقد اخذ الاضطراب والقلق منهُ مأْخذاً عظيماً . وما جلس للحراسة وهو يعلم ان الامام لا يلتمس حرساً يحرسهُ (٢) ولكنهُ جلس يفكر في امر أذهب رقاده والقاهُ في حيرة

الفصل الثاني والستون

﴿ فخٌّ جديد ﴾

اما سعيد وبلال فانهما دخلا الكوفة واسرعا يلتمسان دار الامام علي وكان القمر بدراً (او حوالي البدر) وقد تكبّد السماء فارسل اشعتهُ على ابنية الكوفة وقد انقشعت الغيوم عن السماء على غير المعتاد في ذلك الفصل . فلما دخلا الكوفة رأياها

(١) ابن الاثير ج ٣ (٢) الخميس ج ٢

ساكنة هادئة لانقضاء ميقات السهر . وقد نام الناس وهم يتوقعون اذان السحر لينهضوا للسحور

سار سعيد وهو يستحث جملهُ وقلبهُ يرقص طرباً لما يتوقعهُ من نجاح مهمتهِ وقد شكر الله لاطلاعه على حيلة قطام قبل فوات الوقت . فلما دنا من المسجد ترجل وقال لبلال خذ الجمل وسر بهِ الى ساحة الكوفة وامكث حتى آتيك

فلم يسع بلالاً غير الطاعة فتحوّل نحو الساحة . ومشى سعيد على قدميهِ وركبتاه تصطكان من شدة الاضطراب . وما صدق انهُ اقبل على دار الامام ولكنهُ رأى السكون سائداً عليها . فوقف هنيهة يفكر في السبيل الذي يدخل بهِ الدار واهلها نيام فلبث برهة يتردد وهو يخاف ان يستغشهُ احد لقدومهِ في ذلك الوقت وهو لم يدخل تلك الدار من قبل ولا لقي الامام علياً لقاء اهل الولاء . ولكنهُ لم يرَ بدًّا من الاقدام فمشى بخطوات المتردد حتى دنا من باب الدار فرأى شبحاً جالساً لم يعرفهُ ولكنهُ سرَّ بهِ لعلمهِ انهُ لايخلو ان يكون من بعض رجال علي فيساعده في مهمتهِ . على انهُ لم يكد يقبل عليهِ حتى وقف ذلك الشبح بغتة وتقدم نحوه وهو يقول « من القادم »

فقال سعيد وهو يتلجلج بكلامهِ « اني رسول الى الإمام علي . ومن انت ؟ »

قال « اني قنبر حاجب الامام ومن انت »

قال « اني سعيد الاموي اريد مقابلة الامام علي »

فصاح قنبر قائلاً « أأنت سعيد تعال معي . . »

فسرَّ سعيد لسرعة الاجابة ومشى في أثر قنبر حتى دخلا باب الدار وتحولا الى حجرة فيها مصباح فدخل قنبر اولاً واقيظ اثنين كانا نائمين هناك وسعيد يتبعهُ بسذاجة ولم يكد يدخل الحجرة حتى رأى الرجلين قد اطبقا عليهِ وقيدا يديهِ ورجليهِ وهو واقف لايبدي حراكاً من شدة البغتة فلما رآها يغلانهِ وقنبر واقف وقد تغيرت سحنتهُ قال لهُ « ما الذي تفعلهُ ماهذه الوقاحة اين الامام علي »

قال « لقد كذب فألك ايها الوغد اللئيم انك لن ترى علياً حتى ترى الموت قبلهُ »

فبغت سعيد وهو لا يعلم سبباً لذلك العمل فقال « ما بالكم تستغشونني وقد جئتكم في مهمة انقذ بها الامام علي من القتل »

قال « اخسأ ولا تطل الكلام انك اموي وتطلب ان ترى الامام لتقتلهُ . انظن قتلهُ امرًا هينًا »

فقال « وكيف اريد قتلهُ وانا انما جئت لانقاذه من القتل »

فامسكهُ قنبر بيده ويداه ترتعدان من شدة التأثر وقال لهُ « اتظن حيلتك تنطلي علينا ؟ أَما كفى بني امية ما فعلوه حتى جئتم تقتلون الامام في منزلهِ »

فبهت سعيد وقد جمد الدم في عروقهِ وقال « ما بالكم تسيئون بي الظن وانتم لم تروا مني خيرًا ولا شرًّا ألا تسمعون قولي ثم ترون رأْيكم »

فقال قنبر « وما الذي نسمعهُ من قولك وانت اموي وقد تعهدت بقتل الامام علي مهرًا لفتاة خطبتها من اهلها على هذا الشرط »

فانذهل سعيد واراد ان يدافع عن نفسهِ فرأى قنبر يستخرج من جيبهِ رقًّا ولما استخرجهُ دفعهُ الى سعيد وجذبهُ بيده الى المصباح وهو يقول لهُ « اقرأْ . . اليس هذا خطك ؟ »

فلما وقع نظر سعيد على الرق علم انهُ الصك الذي كتبهُ لقطام يوم خطبها فايقن ان قطامًا هي التي ارسلت هذا الرق الى دار الامام لتوقع بهِ . ورآها لفرط حيلتها قد محت اسمها عنهُ ووضعت اسم فتاة اخرى فصمت ولم يجب . فاتخذ قنبر سكوتهُ حجة عليهِ فصاح فيهِ « اجب قل . . . اليس هذا خطك ؟ »

فارتبك سعيد في امره ولكنهُ ما زال يرجو التخلص بما يجهلهُ من النبإِ الاكيد عن مكيدة ابن ملجم فقال لهُ « هب انهُ خطي ولكنني جئتكم بخبر المكيدة التي كادها بعض الناس على الامام ألا تمهلوني ريثما اخبركم »

فلم يصبر قنبر على سماع كلامهِ وصاح فيهِ قائلاً « واي مكيدة اعظم من ان تتعهد بقتل الامام . . . امكث هنا الليلة وغدًا لناظره قريب »

قال ذلك وخرج واغلق الباب عليهِ



الفصل الثالث والستون

بلال

فلما خلا سعيد في تلك الحجرة ظن نفسهُ في منام وجعل يفكر في امره وفي دهاء قطام وكيف اوصلت هذه الورقة الى هذا الرجل لاتمام حيلتها ولكنهُ لم يكترث بما عاملهُ بهِ قنبر وعوَّل على مقابلة الامام في الصباح باكرًا واطلاعهِ على سر الامر

واما ايصال ذلك الصك الى قنبر فانما سعت فيهِ لبابة المحتالة باشارة قطام بعد ان تداولتا في اتمام الحيلة مخافة ان يطلع سعيد على مكيدتها قبل وصولهِ اليها او ان يذهب الى منزل الامام قبل المرور بها . فاستخرجت ذلك الصك وغيرت فيهِ الفاظًا رفعت بها الشبهة عنها وكلفت لبابة فاتت منزل قنبر في صباح ذلك اليوم بدعوى انها دلالة تبيع الاقمشة والقت الى قنبر حديثًا لفقتهُ بحيث تثبت الشبهة على سعيد فلا يصغي احد الى كلامهِ . وكان انصار علي قد سمعوا طنينًا عن عزم بعض الناس على قتل الامام . فلما رأى قنبر الصك وعلم ان صاحبهُ امويٌّ ربي في بيت عثمان وقام بنصرتهِ لم يبق عنده شك بتهمتهِ وخصوصًا بعد ان رآهُ قادمًا قدوم اللص بعد منتصف الليل . فلما قبض عليهِ حبسهُ في تلك الحجرة الى صباح الغد ليرى رأي الامام بهِ بعد ان يعود من صلاة السحر . وما علم ما خبأتهُ الاقدار للامام قبل اتمام تلك الصلاة

اما بلال فانهُ مكث بالجبانين في ساحة الكوفة ينتظر قدوم سعيد . فلما ابطا عليهِ انشغل بالهُ ولكنهُ لم يظن سوءًا لما يعلمهُ من سلامة نية سعيد . وفيما هو جالس يفكر في ذلك سمع آذان السحر فعلم ان عليًّا يخرج في تلك الساعة للصلاة فهرول نحو المسجد وهو على مقربة منهُ فدخلهُ فرأى فيهِ قبة مضروبة علم انها قبة بعض النساء ممن يجلسن لسماع الصلاة . فوقف وعيناه شاخصتان لعلهُ يرى سعيدًا . فاذا برجالٍ دخلوا وفيهم رجل ملثم وقد التف بعباءة يخفي تحتها سيفًا فتفرس فيهِ عن بعد فرأى على جبهتهِ اثر السجود فعلم انهُ ابن ملجم (١) فارتعدت فرائصهُ

---

(١) الخميس ج

وحدثتهُ نفسهُ ان يصيح بهِ ولكنهُ خاف على نفسهِ وهو لايشك مع ذلك ان علياً اطلع على مكيدتهِ ولايلبث ان يدخل المسجد حتى يأمر بالقبض عليهِ ثم رأى ابن ملجم مشى ومعهُ رجل آخر هو شبيب نحو تلك القبة وكلما من فيها وكان فيها قطام بنت شجنة [١] ثم مشى ابن ملجم حتى اقترب من السدة وبلال يراعيهِ بنظرهِ ويتوقع سماع الامر بالقبض عليهِ حالما يدخل عليٌّ

وبعد هنيهة فتح باب السدة ودخل منها عليٌّ يمشي الهوينا . وعمامةُ على رأسهِ تغطي صلعتهُ وكان ذا بطن ولحية كثيرة الشعر ضخم العضل [٢] وفي يدهِ درة (سوط) كان يوقظ الناس بها للصلاة كل صباح . فمشى الامام وابن النباح المؤذن بين يديهِ والحسن بن علي خلفهُ . فلما دخل انصت الناس وبلال ينظر اليهِ ولا يشكُّ في انهُ سينادي من يقبض على ابن ملجم . فاذا بهِ قد وقف ونادى « ايها الناس الصلاة الصلاة »

الفصل الرابع والستون

مقتل الامام

والتفت بلال الى ابن ملجم فاذا هو لايزال واقفاً لكن رفيقهُ (شبيب) تقدم مسرعاً وسيفهُ بيدهِ ضرب بهِ الامام علياً فاصاب عضادة الباب وسقط السيف من يدهِ فاجفل بلال وهمَّ ان يسرع الى علي يخبرهُ بامر ابن ملجم فاذا بابن ملجم قد اقبل على علي باسرع من لمح البصر والسيف يبرق بين يديهِ وضربهُ على جبهتهِ وهو يقول « الحكم لله يا علي وليس لك ولاصحابك »

فصاح علي « فزتَ ورب الكعبة » ثم قال « لا يفوتنكم الرجل »

فتكاثف الناس على ابن ملجم فدفعهم بسيفهِ ففرجوا عنهُ فهجم عليهِ المغيرة بن شعبة وتلقاه بقطيفة فرماها عليهِ واحتملهُ وضرب بهِ الارض وقعد على صدره وانتزع السيف منهُ واما شبيب فافلت في الغلس وخرج من باب كندة

(١) تاريخ الخميس ج ٢ (٢) ابن الاثير ج ٣ (٣) الخميس ج ٢

وانفرط عقد الناس ونظر بلال الى القبة المضروبة فرأى امرأة خرجت من تحتها واذا هي قطام اسرعت وفرت في غمار الناس . فانذهل لما رآه ولكنهُ رجا ان لا تكون الضربة قاضية ثم تذكر ان سيف ابن ملجم مسموم فيئس من حياة الامام . وجعل يتفرس في الناس لعلهُ يرى سعيدًا فلم يقف لهُ على اثر فتقدم في جملة من تقدم الى السدة حيث كان علي مطروحًا فاذا هو يقول « احضروا الرجل عندي » فاحضروهُ

فقال لهُ علي « اي عدو الله ألم أُحسن اليك »

قال بلى

فقال « فما حملك على هذا »

قال « شحذت سيفي هذا اربعين صباحًا وسألت الله ان يقتل بهِ شر خلقهِ »

فقال علي « لا اراك الاَّ مقتولاً بهِ ولا اراك الاَّ شر خلق الله » ثم التفت الى من حولهُ وقال « النفس بالنفس ان هلكتُ فاقتلوهُ كما قتلني وان بقيت رأيت فيهِ رأيي . يا بني عبد المطلب لا الفينكم تخوضون دماء المسلمين تقولون قد قتل امير المؤمنين ألا لا يقتلن الاَّ قاتلي . انظر ياحسن ان انا متُّ من ضربتي هذه فاضربهُ ضربة بضربة ولا تمثلنَّ بالرجل فاني سمعت رسول الله صلى الله عليهِ وسلم يقول اياكم والمثلة ولو بالكلب العقور »

قال ذلك وابن ملجم مكتوف وكانت ام كلثوم ابنة علي واقفة بجانب ابيها فقالت لابن ملجم « اي عدو الله لا بأس على ابي والله مخزيك »

قال « على من تبكين والله ان سيفي اشتريتهُ بالف وسممتهُ بالف ولو كانت هذه الضربة باهل مصر ما بقي منهم احدٌ »

ثم تقدم جندب بن عبد الله الى علي وقال « ان فقدناك ولا نفقدك فنبايع الحسن »

قال علي « ما آمركم ولا انهاكم انتم ابصر »

الفصل الخامس والستون

لات ساعة مندم

ولما علم الناس ان سيف ابن ملجم مسموم تحققوا دنوّ الاجل وخافوا الفتنة في من يخلف الامام · فسأَلهُ جندب بن عبد الله ما سأَلهُ عمن يخلفهُ فاجابهُ علي بأَنهُ لا يأْمرهم ولا ينهاهم كما تقدم

ثم نقلوه الى دارهِ ماشياً وهو يتوكأُ على ولديهِ الحسن والحسين والدم يغشى جبينهُ وكان السم لم يفعل فعلهُ بعد

اما ابن ملجم فكان لثامهُ قد وقع عن وجهه وبانت سحنتهُ وكان اسمر ابلج في جبهتهِ اثر السجود (١) فساقوه الى السجن ولو لم يوصِ امير المؤمنين بان لا يقتلوه الاَّ اذا مات هو اثر الضربة لقطعوهُ ارباً اربًا · ولكنهم اضطروا امتثالاً لامر الامام ان يسوقوه الى السجن ريثما تظهر لهم عاقبة ذلك الجرح

اما بلال فانهُ سار في اثر الجمع الى منزل الامام علي وقد تولتهُ الدهشة لهول ما رآه في تلك الساعة ومما زاد اسفهُ وضاعف حزنهُ ما اصابهُ من الفشل بحبوط مسعاه ومسعى سيدتهِ لانهُ انما كان يودُّ نجاة الامام من تلك المؤامرة اكراماً لمولاتهِ خولة وخصوصًا بعد ان صحب عبدالله وسمع منهُ في اثناء الطريق ما حدثهُ بهِ جده ابو رحاب من فضائل الامام علي التي يندر اجتماعها في رجل · وقد وردت في كلام ابي رحاب

على انهُ كان مع ذلك في شاغل عما كان فيهِ الناس بالغوغاء والانهماك بامر الامام وجرحهِ والتفكر بسعيد وحالهِ وقد عجب لفشل مهمتهِ مع علمهِ انهُ انما اسرع بعد طول شقة السفر والسعي في منتصف الليل لينبئ القوم بذلك الخطر · فمشى بلال وهو يتفرس في الناس واحدًا واحدًا لعلهُ يرى سعيدًا بينهم فلم يقف لهُ على اثر · على انهُ ما لبث ان رأى الجمع دخلوا المنزل وادخلوا الامام محمولاً الى غرفتهِ وتفرق الباقون في صحن الدار جماعات تتحدث كل جماعة منهم بحديث ذلك الصباح

(١) تاريخ الخميس ج ٢

ومدار ابحاثهم ما اصاب الاسلام في تلك الساعة مما لم يكن في الحسبان وما فيهم الاَّ من يقول « ليتني اشفي غليلي بضربة في عنق ذلك الباغي »

وفيما هو ينظر في وجوه الناس لعلهُ يرى سعيداً اذا بقنبر حاجب الامام علي قد خرج من الغرفة والدمع ملء عينيهِ وهو يقول « اقتلوني ايها المسلمون اقتلوني اني جنيت على امير المؤمنين »

فنهض الناس والتفتوا اليهِ وهم لا يفهمون مراده فاذا بهِ قد اخترق الجمع ومشى الى الحجرة التي كان سعيد مسجوناً فيها وفتحها واخرج سعيداً منها وهو لا يزال مغلولاً

الفصل السادس والستون

الوصية

وكان سعيد لا يزال في تلك الحجرة وقد اقفلوها عليهِ ولم يدرِ ما اصاب الامام علياً . فلما اخرجهُ قنبر على تلك الصورة ورأى الجمع متكاثفاً هناك ظنهُ يريد بهِ سوءا . فقال أروني الامام علياً فأُطلعهُ على دسيسةٍ دبرها لهُ اهل البغي ولا تفعلوا بي سوءا

فعلا صوت قنبر بالبكاء وقال « لقد نفذ السهم يا سعيد انهم فتكوا بامير المؤمنين »

فصاح سعيد « ومن فتك بهِ »

قال « ان ابن ملجم ضربهُ ضربة قاتلة قتلهُ الله »

فصاح سعيد « ويلاه واحسرتاه كيف يقتلهُ وقد قطعتُ البراري والقفار سعياً في تلافي ذلك المصاب . . ألم اقل لك ذلك يا قنبر »

قال « انك لم تفصح المقال وقد نفذ السهم وجُرح الامام جرحاً لا اظنهُ ينجو منهُ ولو اصغيتُ لمقالك لنجا امير المؤمنين ولكن وقع القضاء ولا مرد لقضاء الله »

ولم يتم قنبر كلامهُ حتى بكى سعيد وبكى الناس وعلا الصياح وهم مبهوتون ينظرون الى قنبر يتوقعون منهُ تفصيلاً

اما هو فاشتغل بحل قيود سعيد بيدهِ وهو يقول « قاتل الله تلك العجوز المحتالة

انها اغرتني بك وقد نجحت حيلتها »

فهمّ سعيد ان يقص عليهم حديثهُ على أثر ما رآه من رغبتهم في ذلك واذا ببعض الناس يقول « ان الامام قد شعر بالراحة وهو يخاطب ابنيهِ الحسن والحسين »

فتحول الجمع الى غرفتهِ كالسيل واغتنم بلال تلك الفرصة فدنا من سعيد كأنهُ يستفهمهُ عن سبب ذلك الفشل . فقص عليهِ الخبر باختصار ووعدهُ باتمام الحديث في فرصة اخرى . وسار مع الجمع الى غرفة الامام فلم يستطع الدخول اليها لتزاحم الاقدام . فاطل من نافذة فرأى عليًّا متوسدًا فراشهُ وهو معصوب الرأي بمنديل يغطي الجرح وكانوا قد غسلوا الدم عن وجههِ ولكن آثارهُ ما زالت ظاهرة على بعض لحيتهِ

فتذكر سعيد جده ابا رحاب وما اوصاه بهِ فلم يتمالك عن البكاء على انهُ ما لبث ان سمع عليًّا يتكلم فوجه اليهِ انتباههُ فرآه يخاطب ولديهِ الحسن والحسين وهما جاثيان عند رأسهِ وامارات الكآبة والحزن ظاهرة عليهما وهما يتجلدان تجلد الرجال وقد اصاخا سمعهما وحوّلا اعينهما الى وجه والدهما الجريح والناس سكوت وكلهم آذان يسمعون ما يتلوه الامام من الآيات البينات وهي آخر خطابة القاها . فاذا هو يقول

« اوصيكما بتقوى الله ولا تبغيا الدنيا وان بغتكما ولا تبكيا على شيءٍ زوى عنكما وقولا الحق وارحما اليتيم واعينا الضائع واصنعا للاخرق وكونا للظالم خصماً وللمظلوم ناصرًا واعملا بما في كتاب الله ولا تأخذكما في الله لومة لائم »

ثم نظر الى محمد بن الحنفية فقال « هل حفظت ما اوصيت بهِ اخويك »

قال « نعم »

قال « فاني اوصيك بمثلهِ واوصيك بتوقير اخويك العظيم حقهما عليك وتزين امرهما ولا تقطع امرًا دونهما » ثم قال « اوصيكما بهِ فانهُ شقيقكما وابن ابيكما وقد علمتما ان اباكما كان يحبهُ » وقال للحسن « اوصيك اي بني بتقوى الله واقامة الصلاة لوقتها وايتاء الزكاة عند محلها وحسن الوضوء فانهُ لا صلاة الاَّ بطهور واوصيك بغفر الذنب وكظم الغيظ وصلة الرحم والحلم عن الجاهل والتفقه في الدين والتثبت في الامر والتعاهد للقرآن وحسن الجوار والامر بالمعروف والنهي عن المنكر واجتناب الفواحش » (١)

---

(١) ابن الاثير ج

الفصل السابع والستون

﴿ موت الامام ومقتل ابن ملجم ﴾

وما اتمَّ وصيتهُ حتى تعب من الكلام وما عهدناهُ يتعب من امثالهِ في الوعظ والخطب ساعات متوالية · ثم امر بتلك الوصية فكتبت ودُفعت الى الحسن ولم ينطق الامامُ بعد ذلك الاَّ بقولهِ « لا اله الاَّ الله » حتى مات (١) فعلا الضجيج وزاد العويل والبكاء · ثم غسلهُ الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر وكفن بثلاثة اثواب ودفن

واما سعيد فلما تحقق وقوع المصاب بموت علي تذكر قطاماً وخبثها وقال في نفسهِ والله لم يقتلهُ الاَّ هي ولولاها لم يقتل امير المؤمنين

وفيما هو يفكر في ذلك ويبكي جاء قنبر فقبض على يده وجرَّه فسار في اثره وهو لا يدري ما يريد منهُ · وسار بلال في اثرهما حتى دخلوا سجن ابن ملجم وكان مغلولاً هناك · فلما دخلوا عليهِ همَّ سعيد بالكلام فقال قنبر تمهَّل لنرى ما يقول هذا القاتل · فلما رآهم ابن ملجم قادمين عليهِ ظلَّ جالساً ولم يعبأ بهم ولكنهُ خاطب قنبر قائلاً « اظنك جئت تدعوني الى القتل لان صاحبكم مات »

قال « الى ذلك جئت ولكنني اسألك عن هذا الرجل هل تعرفهُ » (واشار الى سعيد) فقال « كلاَّ »

وكان قنبر قد اراد ان يتحقق براءة سعيد وقد شك في اشتراكهِ مع ابن ملجم في تلك المؤامرة · فقال لهُ « الم يكن لهذا الاموي شركة معك في القتل »

فتبسم ابن ملجم وقال « انهُ اضعف من ان يقدم على ذلك · اني لا اعرفهُ »

---

(١) هذا ما رواه ابن الاثير من امر مقتلهِ . وذكر صاحب تاريخ الخميس انهُ توفي في صبيحة يوم ١٧ رمضان مثل صبيحة بدر. وقيل ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة منهُ سنة اربعين(عن ابي عمر وابن عبد البر) وفي الصفوة قال العلماء بالسير ضربهُ عبد الرحمن بن ملجم بالكوفة يوم الجمعة لثلاث عشرة بقيت من رمضان وقيل ليلة احدى وعشرين منهُ سنة اربعين فبقي الجمعة والسبت ومات ليلة الاحد وقيل يوم الاحد وغسلهُ ابناه وعبدالله بن جعفر وصلى عليهِ الحسن ودفن في السحر. وقالوا غير ذلك ما ليس هنا مكان تحقيقهِ وذكروا انهُ دفن في مسجد الكوفة وقيل حمل الى المدينة ودفن عند فاطمة وقيل غير ذلك (عن تاريخ الخميس)

فقال بلال « ولكنك ألا تعرف قطامًا بنت شحنة ؟ »

قال « اعرفها وهي خطيبتي ودم ابن ابي طالب مهرٌ لها »

فلم يتمالك قنبر عن ان صاح فيهِ « اخسأ يا لئيم انك ستلقى حتفك قريبًا قم الى الموت »

فوقف لساعتهِ ومشى وهو لا يكترث بما يتهدده من الاجل العاجل

اما سعيد فلما سمع قولهُ ان قطامًا خطيبتهُ خفق قلبهُ غيظًا من تلك المرأة وقال في نفسهِ اني والله سآخذ بالثار منها بيدي

وكان الحسن هو الذي امر باحضار ابن ملجم ليقتلهُ عملاً بوصية ابيهِ فلما حضر بين يديهِ نظر الى ماحولهُ فرأى الناس ينظرون اليهِ باعين تلتهب حنقًا وكلٌّ يود ان يقتلهُ بيدهِ فلم يعبأ ابن ملجم بما رآه ولم يصبر حتى يخاطبهُ احد منهم فنظر الى الحسن وقال « هل لك في خصلة اني والله قد اعطيت الله عهدًا ان لا اعاهد عهدًا الاَّ وفيت بهِ واني عاهدت الله عند الحطيم ان اقتل عليًا ومعاوية او اموت دونهما فان شئت خليت بيني وبينهُ . فلك عهد الله عليَّ ان لم اقتلهُ ثم بقيت ان آتيك حتى اضع يدي في يدك »

فقال لهُ الحسن « لا والله حتى تعاين النار (١) »

وكان الناس قد جاؤُا بالنفط والبواري والنار وقالوا « نحرقهُ »

فقال عبدالله بن جعفر وحسين بن علي ومحمد بن الحنفية دعونا نشتفِ أنفسنا منهُ . فقطع عبدالله بن جعفر يديهِ ورجليهِ فلم يجزع ولم يتكلم ثم كحل عينيهِ بمسمار محمى فلم يجزع وجعل يقول « انك لتكحل عيني عمك بمكحول ممض » . وجعل يقرأ « اقرأ باسم ربك الذي خلق » حتى اتى على آخر السورة وان عينيهِ لتسيلان على خديهِ ثم أُمر بهِ فعولج على لسانهِ ليقطعهُ فجزع فقيل لهُ « قطعنا يديك ورجليك وسملنا عينيك يا عدوّ الله فلم تجزع فلما صرنا الى لسانك جزعت » . قال « ما ذاك من جزع الاَّ اني اكره ان اكون في الدنيا فواقًا لا اذكر الله » . فقطعوا لسانهُ ثم جعلوه في قوصرة فأحرقوه بالنار (٢)

---

(١) ابن الاثير ج ٣ (٢) تاريخ الخميس ج ٢

الفصل الثامن والستون

﴿ سرٌّ جديد ﴾

ولما اشتمَّ سعيد رائحة القتار المتصاعد عن بقايا ابن ملجم اشتفى غليله ولكنهُ ما زال قولهُ « ان قطامًا خطيبتي وانَّ قتل علي مهر لها » يرنُّ في اذنهِ وازداد تعجبًا من دهاء تلك المرأة واستغرب ان يكون في النساء واحدة في مثل ذلك الدهاء وتذكر ما مرَّ لهُ معها من الوعود وما ارتكبتهُ في سبيل الانتقام لوالدها واخيها من الجرائم وكم قتل بسببها من الرجال وعبدالله ابن عمهِ في جملتهم . فلما تصور ذلك كاد يتقد غيظًا وظلَّ برهة وهو غارق في مثل هذه الهواجس لا ينتبهُ لما دار حولهُ من الاحاديث ولا فقه لاشتغال الناس في مبايعة الحسن . ولم ينتبه حتى ناداه بلال فلباه فقال « ألا تخرج بنا يا مولاي من هذا المكان ان لي كلامًا اقولهُ لك »

قال « هيَّا بنا » وتحولا ولم ينتبه لهما احد لاشتغال الناس بالمبايعة

وعادا توًّا الى ساحة الكوفة حيث تركا الجملين وسارا من هناك الى منزل سعيد وكانا في اثناء الطريق يلتقيان باهل الكوفة مسرعين زرافات ووحدانًا الى منزل الامام علي على اثر ما سمعوه من مقتلهِ وهما لا يكلمان احدًا

وكان سعيد لم يدخل منزلهُ منذ ذهب الى الفسطاط فلم يجد فيهِ احدًا لان الخدم ساروا في جملة من سار الى منزل الامام . وكان التعب قد اخذ منهُ مأخذًا عظيمًا لطول ما قاساه من السهر والقلق بعد سفرهِ الطويل . فدخل الدار من باب خصوصي كان مفتاحهُ معهُ وترك بلالاً يهتم بالجملين . وبدَّل ثيابهُ وهو غارق في بحار الهواجس يفكر في ما رآه من الاهوال وما يتوقعهُ بعد موت الامام علي من اختلاف الاحوال

ولما فرغ من تبديل ثيابهِ توسد وسادة يلتمس الاستراحة وهو يفكر في ما يتوقع سماعهُ من بلال ولكن التعب تغلب عليهِ وغلب عليهِ النعاس فنام . ودخل بلال عليهِ فرآهُ نائمًا فتوسدَ مقعدًا في غرفة اخرى وجعل يستعد لمكاشفة سعيد بما يجول في خاطرهِ من الشؤون حتى نام

الفصل التاسع والستون

﴿ خولة وابن ملجم ﴾

وظلا نائمين الى الغروب فأفاق سعيد من صوت الخدم وهم يفتحون الباب بعد عودتهم الى البيت وقد بغتوا لما رأوا سيدهم هناك على غير انتظار .

اما هو فعذرهم لغيابهم ودعا بلالاً فوقف بين يديهِ فدعاه للجلوس فاستأذن في اغلاق الباب والاختلاء . فأمر بعض الخدم فأضاء لهُ مصباحًا وضعهُ على مسرجة وخرج فاغلق بلال باب الغرفة وجلس الى سعيد والاهتمام بادٍ على وجههِ

فقال سعيد « تكلم يا بلال ما بدا لك »

قال « ايأذن لي سيدي ان اسألهُ اولاً ما الذي دعا الى فشل مهمتهِ »

فتنهد سعيد وقال « ان السبب قديم يا بلال لم اكن لأقصهُ عليك لولم اوآنس منك ما آنستهُ من الغيرة والشهامة »

قال بلال « ولم يكن من شأني ان اسألك عنهُ لولم ألحظ من خلال الوقائع ما يشف عن حقيقة السر ولعلي اذا اطلعت على حقيقة الحال ان آتيك بخبر جديد »

قال « لا اخفي عنك بعد ذلك ان السبب في فشلي امرأة اظنك سمعت اسمها في هذا الصباح من فم ابن ملجم » .

قال « اظنها قطام بنت شحنة »

قال « نعم هي قبحها الله من داهية محتالة . فانها كانت سببًا في قتل ابن عمي وقتل الامام وابن ملجم . ولا يخفى عليك ان قتل الامام لا يقتصر شره على مجرد قتل النفس ولكننا نخاف منهُ الفتنة . ولا ريب انها ارادت ايضًا ان تقتلني بوسيلة دبرتها » وقص عليهِ حديثهُ مع قطام مختصرًا من اول معرفتهِ بها الى تلك الساعة

فلما فرغ من كلامهِ عض بلال على انامله وتحرق ثم تنهد وسكت

فقال سعيد « ما يخطر لك يا بلال وما الذي يدعوك الى التنهد »

قال « يدعوني اليهِ ندمي على ما فاتني من القبض على هذه المرأة في صباح هذا اليوم لاني رأيتها في قبتها بالمسجد وقد مرَّ بها ابن ملجم ورفيقهُ فكلماها قبل اقدامها على تلك

الفعلة الشنعاء ولكنني كنت اظن علياً والهفي عليهِ قد علم منك بما ينويهِ ابن ملجم فلا يترك لهُ فرصة لارتكاب ذلك المنكر . . . . وقد رأيت بنت شحنة خارجة من المسجد بعد ان تحققتُ نيل بغيتها بقتل الامام فيا ليتني قبضت عليها . . . ولكن ما قدّر فقد كان . وقد قتل الامام وقتل قاتلهُ والامر في ذلك لله . على انني اذا عشت فاني منتقم لك وللاسلام من هذه الفاجرة . ومن غريب الاتفاق ان ابن ملجم هذا كان قد خطب سيدتي خولة من والدها ولكنها لم تكن تحبهُ ولا ترضى بهِ »

ولم يكن بلال عارفًا باطلاع سعيد على ذلك الخبر من خولة فلم يشأ سعيد ان يعترف لهُ بهِ فتجاهل وظل صامتًا ليسمع بقية الحديث

فقال بلال « ولا شك ان سيدتي خولة اذا سمعت بقتل هذا الغادر فرحت لتخلصها من شراكهِ »

فقال سعيد « وما الذي كان يحملها على القبول بهِ ألم يكن لها ان ترفضهُ »

قال « كلاَّ يا مولاي لان سيدي والدها هو الذي اطمعهُ بها ووعده بزفافها اليهِ واما هي فقد تحققتُ من قرائن مختلفة انها كانت مصممة على رفضهِ ولو جرّ كلها ذلك من العناء »

الفصل السبعون

﴿ قلب خولة ﴾

فتذكر سعيد حديث خولة وتمثلت لهُ صورتها كالملاك وتذكر ما آنسهُ فيها من الحمية والانفة والشهامة وما شعر بهِ نحوها من الميل يوم لقيها في الفسطاط . وهو لا يزال مخدوعًا بمواعيد قطام ومشغولاً بامر الامام علي فلم يترك لقلبهِ يومئذٍ مجالاً للحب فلما سمع ذكرها الآن تجددت ذكراها في ذهنهِ فمال لسماع اخبارها فظل على تجاهلهِ فقال « وهل انت متحقق انها كانت مصممةً على رفضهِ ولو اغضبت والدها »

قال « نعم اني واثق بما اقول وقد لحظت شيئًا آخر . . . » وسكت وهو يبتسم

قال « وما هو »

قال « ألم تلحظهُ انت »

قال « كلاَّ وما هو . قل »

قال « لحظت انك وقعت من نفسها موقعاً عظيماً . ولحظت ايضاً انك لم تجهل ذلك

قال « كيف عرفت اني لم اكن اجهلهُ »

قال « عرفتهُ مما رأيت من خروجها اليك غير مرة بالليل التماساً لنجاتك وهي تستجهلني ولا تنتبهُ لملاحظتي . ولكنك كنت منشغلاً يومئذٍ بلهمتك على انقاذ الامام علي من مخالب الموت . . . »

فعجب سعيد لما ظهر لهُ من اطلاع بلال على سرّهِ وتذكر انهُ شعر بشيءٍ معهُ يوم كان في الفسطاط وان انشغالهُ بلهمتهِ على الامام وخوفهُ عليهِ مع تعلقهِ بقطام وعهودها حال بينهُ وبين تمكين علائق المودة مع خولة . فلما سمع ما سمعهُ من بلال ساعتئذٍ احب ان يستطلع جلية الخبر فقال لهُ « افصح عما في نفسك اني لم افهم مرادك »

فقال بلال « ان مرادي واضح مما ذكرتهُ لك واقول بالاختصار ان سيدتي اسرّت اليَّ يوم امرتني ان اسير في ركابك اننا اذا اتممنا مهمتنا بكشف دسيسة ابن ملجم وانقذنا الامام عليًّا ان اطلعك على رغبتها في عودك الى الفسطاط لانها تكون قد نجت من خطبة ابن ملجم وتكون انت قد فرغت من مهمتك ولا ادري ما تنويهِ هي في رجوعك ؟ »

ففهم سعيد ما وراء ذلك فقال لهُ « اما رجوعي الى الفسطاط فلا يخلو من الخطر عليَّ لاني انما جئت منها فرارًا من القتل . فاذا عدتُ انما اعرض نفسي لما هو شرٌّ من القتل وابن العاص لا يعفو عني على اني اكره ان ارى الفسطاط بعد ان فقدت فيها ابن عمي رحمهُ الله . . . » وسكت هنيهة وتنهد ثم قال « هل انتَ واثق بميلها اليَّ فاني والحق يقال قد آنست في خولة من الحمية وعزة النفس مع الاستهلاك في نصرة الامام ما جعل لها في نفسي مقامًا رفيعًا . ولا اكتمك ما خالج ضميري يومئذٍ من الميل اليها ولكنني كنت عالق القلب بقطام اخزاها الله انها خدعتني . . . »

فقطع بلال الكلام عليهِ قائلاً « لا تذكر هذه الخائنة يا مولاي اني والله اكره ان اسمع ذكرها لاني اشعر بقصوري وجهلي اللذين سببا نجاتها وهي والحق يقال اصل هذا الشر العظيم . . . ولكنها انتقمت لوالدها واخيها فارتكبت اعظم اثم حدث في الاسلام فقتلت ابن عم الرسول (صلعم) ولكنني سوف اذيقها حتفها واسفك دمها

ولو كلفني ذلك بذل النفس » قال ذلك وهو يحرق اسنانهُ حنقًا واسفًا

فقال سعيد « وما ظنك بها الآن . هل هي باقية في الكوفة ؟ »

قال « لا اظنها تبقى هنا بعد ما ارتكبتهُ وقد فضح امرها وعلم الخاص والعام انها شريكة في القتل »

قال « والى اين تظنها خرجت »

قال « لا ادري وسابحث عن ذلك في صباح الغد اما الآن فلنعد الى ما كنا فيهِ فانك اذا لم ترجع معي الى الفسطاط احسبني مقصرًا بالواجب عليَّ . وخولة يامولاي يندر مثالها بين البنات جمالاً وتعقلاً وانفة ولولا والدها وتشيعهُ لمعاوية لأَتت بما لم يأتهِ اعاظم الرجال . ولكنهُ كثير التشيع لابن ابي سفيان كما قد علمت وهو وسيدتي خولة يحسبانني ساذجًا لا افهم الامور ولذلك فكثيرًا ما كانا يختلفان امامي ويختصان على امور استدل منها على ذلك »

الفصل الحادي والسبعون

﴿ حب جديد ﴾

فاحسَّ سعيد بتجدد عواطفهِ نحو خولة وتاقت نفسهُ الى الحصول عليها ولكنهُ استثقل الذهاب الى الفسطاط مخافة الوقوع في قبضة عمرو بن العاص . ثم تذكر بغتة ان المؤامرين كانوا قد اقروا على قتلهِ وقتل معاوية في مثل ذلك اليوم فقال « أَلم اخبرك ان اثنين آخرين تآمرا على قتل ابن العاص ومعاوية ايضًا »

قال « بلى اخبرتني ولكنني لا اخاف على ابن العاص الوقوع في تلك الشراك »

قال « وما الذي ينجيهِ منها وهو لا يدري بما نووه لهُ ... فاذا كان المؤامر على قتلهِ قد قتلهُ هان عليَّ الدخول الى الفسطاط ويكون ذلك اهون اذا قتل ايضًا معاوية في الشام »

فقال بلال « ان البحث عن ذلك يحتاج الى وقت ولا بد لنا من التربص ريثما نسمع الاخبار او أن نسير للبحث عنهُ بانفسنا »

قال سعيد « لا صبر لي على التربص ولا اظنك تصبر عليهِ . فارى ان نسير انت

على عجل الى الفسطاط تستطلع جلية الواقع وتعود بالخبر اليقين · واذا جعلت طريقك بالشام جئت بالخبرين معًا »

قال « ذلك اليك يا سيدي · وانت ماذا تعمل ؟ »

قال « اني اود البقاء هنا للبحث عن تلك الخائنة قطام لعلي اتوفق للانتقام منها واذا لم اتوفق الى ذلك عشت منغص العيش طول عمري · آه كيف يهنأ لي عيش وهذه المرأة حية وقد فعلت ما فعلتهُ معي · · · قتلت ابن عمي وامير المؤمنين وكادت تقتلني ! »

قال « بالله دع امر الانتقام اليَّ فاني اريد ان اشفي غليلي منها ومن عبدها الذميم ريحان لا اراحهُ الله · · · ولكنني ارى سفري الى الفسطاط ادعى الى العجلة · · · فما العمل »

فاعجب سعيد بحماسة بلال وزاد ميلاً اليهِ والى سيدتهِ ولبث برهة يفكر في حالهِ وهو يزداد شعورًا بالانعطاف الى خولة ويردد في ذاكرتهِ ما آنسهُ فيها من الخلال الحميدة والغيرة نحوهُ وكيف كان التفاؤُل بها سببًا في نجاتهِ من القتل ليلة ذلك الاجتماع · فضلاً عما رآهُ فيها من الغيرة على امير المؤمنين · ولكنهُ لم يكد ينتقل بفكره الى عاقبة ذلك السعي وحبوط تدابيره في انقاذهِ حتى هبَّ جسمهُ وتمرمر في داخلهِ على انهُ لم يرَ حيلة في ما مضى فقال « لقد قضي الامر يا بلال ولم تبقَ لنا حيلة في ملافاة ما مضى فاذهب انت الى الفسطاط وعرج في طريقك الى الشام ثم عد اليَّ بالخبر اليقين عن عمرو ومعاوية · واما انا فاني باقٍ هنا ابحث عن قطام وعجوزها وعبدها واذا انت عدت من سفرك افتقدني في هذا المنزل وسنرى ما يكون »

قال « وخولة ؟ ماذا اقول لها »

قال « قل لها اني لا اقدر اصف شوقي اليها وان ما عندي اضعاف ما عندها ولها مني عهد الله ان هي رضيت بي ان لا التفت الى سواها والايام بيننا »

قال « اما رضاها فانا الضمين لك بهِ · · · » وسكت بلال وقد ابرقت اسرتهُ سرورًا بما سمعهُ · ثم اقطب وجههُ بغتة وقال « ولكن هب ان ابن العاص ما زال حيًا ووالدها كما تعلم شديد التشيع لهُ فلا اظنهُ يأذن بزفافها اليك اختيارًا فما الحيلة ؟ »

قال « ذلك راجع الى اختيارها ومتى عدت اليَّ بالخبر نتدبر الامر في حينهِ اما

الآن فينبغي ان لا نضيع الوقت . امضِ الى الفسطاط على عجل وعد اليّ بالخبر اليقين وعلى الله الاتكال »

فاخذ بلال يهتم بالرحيل وسعيد صامت يفكر في ما حدث له من الهواجس الجديدة . واصبح الحصول على خولة شغلهُ الشاغل ولكن فشلهُ في انقاذ الامام ثار في خاطره حب الانتقام من قطام . فصمم على الفتك بها اما بيده واما بمساعدة الحسن بعد تبوُّءِ عرش الخلافة

الفصل الثاني والسبعون

﴿ خولة في الفسطاط ﴾

فلنترك سعيداً و بلالاً في حالهما ولنعد الى خولة في الفسطاط . فقد تركناها عائدة في ذلك الليل الى منزلها وكان والدها كما علمت قد حبسها في ذلك البيت على طريق عين شمس . فلما اخرجها سعيد منهُ كما رأيت وسارا الى الدير ثم خرجت هي وحدها لم ترَ خيراً من ان تتظاهر بالبكاء والخوف . فرجعت الى منزل والدها باكية وكان هو لا يزال غائباً لاشتغالهِ بمقابلة عمرو بن العاص بشأْن الذين قبض عليهم في ذلك الدهليز . فلما فرغ من امرهم وحرَّض ابن العاص على اغراقهم سار الى محبس ابنتهِ فرأى الباب مفتوحاً وليس هناك احد . فاستغرب الامر وعاد توًّا الى منزلهِ فرأى خولة جالسة في غرفتها تبكي . فتجاهل سبب بكائها وقال لها « ما بالك يا خولة »

قالت « كيف تتركني وحدي في ذلك البيت أَلم تخف عليَّ ابناء السبيل »

قال « أَلم تري اني اقفلت الباب واوصدتهُ خوفاً عليك من ذلك »

قالت « كيف تفعل بي هذا الفعل العليَّ عاصية امرك » واستغرقت في البكاء

فتحركت فيهِ عاطفة الابوة وظنها تقول ذلك عن سذاجة فقال لها « وكيف خرجت »

قالت « لما رأَيت نفسي حبيسة هناك خفت على حياتي فجعلت اناديك واستغيث بك ثم سمعت قرقعة وضجيجاً ووقع حوافر كثيرة فازداد خوفي فصحت واستجرت فقيض الله لي بعض الناس فتح الباب بالعنف فخرجت وهرولت الى البيت وانا ارتعدت من

شدة الاضطراب »

فطيّب خاطرها ولامها على خوفها ولكنهُ سرّ لظنهِ بانطلاء حيلتهِ عليها . وما زال يهون عليها حتى تظاهرت بالرضاء فتركها وخرج وهو يظنها عازمة على الرقاد ثم سمعت خولة لغط الناس في المدينة فانتبهت ان الجند لا يلبثون ان يبغتوا بيت الغفاري فاذا رأوا سعيدًا هناك قبضوا عليهِ فخرجت لانقاذه كما تقدم . وقبل خروجها اوصت عبدها ان يوصد الباب واذا سأل والدها عنها ان يقول لهُ انها نامت واوصدت الباب وراءها لشدة ما اعتراها من الخوف في ذلك المساء . فبات والدها تلك الليلة وهو يحسبها نائمة اما هي فبعد انقاذها سعيدًا عادت الى غرفتها وهي لا تزال مضطربة فلم تستطع رقادًا وجعلت تفكر في طريقة تنقذ بها عبدالله ولم تمكث قليلاً حتى سمعت لغطًا في دار والدها وفهمت من خلال اللغط ان عمرًا عوّل على اغراق اسراه تلك الليلة في النيل وسمعت والدها يضحك سرورًا بذلك الاقرار . فاسفت اسفًا شديدًا ولبثت برهة تفكر في ماذا تعمل حتى حدثتها نفسها لشدة التأثر ان تخرج في اثر الخارجين لعلها تستطيع انقاذ عبد الله . فاستغفلت والدها وكان قد ذهب الى فراشهِ وخرجت واوصدت الباب وراءها كالمرة الاولى وبلال نائم امام عتبتهِ وسارت تلتمس ضفة النيل حيث ظنت انهم ساقوهم وهي عزلاء لا سلاح معها ولكنها انما اندفعت الى الخروج بحميتها . فالتقت هناك بسعيد ودار ما دار بينها وبينهُ ووعدتهُ بارسال عبدها لصحبتهِ الى الكوفة كما تقدم . ثم عادت وحدها

فلما اشرفت على المنزل رأتهُ هادئًا واهلهُ نيام فانسلّت الى الدار فرأت عبدها بلالاً نائمًا فايقظتهُ فهب من رقاده مذعورًا وكانت تعلم باستهلاكهِ في مرضاتها فدعتهُ الى غرفتها فتبعها فلما خلت بهِ قالت « اتدري لماذا دعوتك »

قال « كلاّ يا مولاتي ولكنني رهين اشارتك »

قالت « انطيعني يا بلال »

قال « كيف لا وانا عبدك ورهين اشارتك »

قالت « اعلمُ ذلك ولكنني اريد ان اعهد اليك امرًا خطيرًا فهل انت مستعد للقيام بهِ حتى الموت »

قال « ان الموت هين في سبيل مرضاتك . قولي يا سيدتي مري بما تشائين فقد

قضيت عمري في خدمتك وانا اتوقع مهمة ترضيك ولو الى القتل »

قالت « أسمعت ماحدث اليوم في عين شمس وما فعل ابن العاص بالمجتمعين هناك

قال « نعم وقد ارتكب اميرنا فيه امرًا عظيماً وقتل كثيرين »

قال « اما سرّك ما فعلهُ ابن العاص باولئك العلويين »

قال « اذا كان ذلك سرّك فانهُ يسرني »

قالت « وما ظنك بي »

قال « لا اظنك راضية عن ذلك لعلمي انك على غير دعوة الامويين وان يكن سيدي والدك مستهلكًا في سبيل التشيع لهم »

قالت « وكيف عرفت ذلك »

قال « انت تحسبينني ساذجًا وقد قضيت في خدمتك اعوامًا طوالاً واطلعت على مكنونات قلبك وانت لا تعلمين . واما الآن وقد دفعتني الى التصريح فاقول لك اني اعلم غرضك ولم يفتني شيء مما تقاسينهُ في سبيل الدفاع عن الامام علي . . . وخصوصًا في بالامس وانت لا تعلمين الاّ اني احرس هذا الباب الموصد واكتم خروجك منهُ عن والدك »

فاستغربت خولة قولهُ ولكنها سرت بما سمعتهُ منهُ وقالت « وما مرادك بما حدث بالامس »

قال « انظنين اني غافل عما قاسيتهِ في سبيل انقاذ ذلك الشاب الغريب الليلة وقد كان في جملة من خيف عليهم الوقوع في شراك ابن العاص فانقذتهِ بغيرتك »

فتحققت انهُ كان يراقب حركاتها وسكناتها . فتهلل قلبها سرورًا فقالت « اما والحال على ما ارى فاخبرك ان ذلك الشاب مسافر الآن الى الكوفة واريدمنك ان تذهب اليهِ بالجملين الى سفح المقطم فاذا التقيتَ بهِ هناك سر في ركابهِ الى الكوفة واحذر ان يدري بك احدٌ او ان تذكر ذلك لأحد »

ولم تتم كلامها حتى تحوّل مسرعًا يهمُّ باعداد الجملين فاسترجعتهُ وقالت « قف يا بلال بورك فيك واسمع كلمة اخرى اقولها لك »

فعاد وقال « لبيك يامولاتي قولي ما تشائين »

قالت « انك ذاهب مع هذا الشاب الى الكوفة لانقاذ الامام علي من القتل وستعلم

تنصيل ذلك منهُ . واما الآن فيكفيني ان اوصيك بهِ خيرًا واذا انتما فرغتما من تلك المهمة أرجع بهِ الينا فاني اكره ابن ملجم الذي يريد والدي ان يجعلهُ خطيبًا لي ... هل فهمت ؟ »

فضحك بلال وهز رأسهُ ولسان حالهِ يقول « فهمت »

فقالت « سر بحراسة الله وكنت اود ان ازيدك بيانًا ولكن الوقت ضيق فاذهب وعد سالمًا باذن الله واحذر ان تبوح لاحد بما سمعتهُ او رأيتهُ »

فخرج وهو يلتفت اليها كانهُ عاتب على ما ظهر من ضعف ثقتها بامانتهِ ولكنهُ كان يبتسم فرحًا بما كلفتهُ بهِ . فاعدَّ الجملين وخرج الى سفح المقطم وصحب سعيدًا كما تقدم

الفصل الثالث والسبعون

﴿ نفوذ الحيلة ﴾

اما هي فلما خرج بلال عادت الى غرفتها واوصدت الباب وراءها واستلقت في فراشها وقد تعبت مما قاستهُ في ذلك اليوم من المشاق وكان يجب ان تنام لولم يشغل خاطرها ما شغلهُ من الامور الهامة . ويتخلل ذلك شعور داخلي جديد لولا الحشمة واهتمامها بانقاذ الامام لصرحت بهِ . ألا وهو انعطافها الى سعيد لما آنست فيهِ من الرغبة في انقاذ الامام علي واستهلاكهِ في سبيل ذلك مع ما في قلبها من النفور الشديد من ابن ملجم حتى كرهت والدها من اجلهِ واجل تشيعهِ للامويين

وقضت بقية تلك الليلة لم يغمض لها جفن وهي تارة تفكر في سعيد وقلبها يخفق انعطافًا لهُ وخوفًا من فشل مهمتهِ . فجعلت تقدّر الوقت اللازم لسفرهِ الى الكوفة فرأت انهُ اذا اسرع لا يفوتهُ الوصول اليها قبل الاجل المسمى للقتل . وكان يعترض تسلسل افكارها خوف مما ربما يطرأ عليهِ في الطريق فيعيق وصولهُ فترتعد فرائصها فرقًا من قتل الامام . وفي قتلهِ ضربتان كبيرتان الاولى موتهُ والثانية عود ابن ملجم اليها . ولكنها كانت تتعزى بان ابن ملجم اذا ظفر بقتل الامام لا ينجو من القتل . ثم

تحول ذهنها الى والدها وخروج عبدها بالجملين واعدت اعذارًا تنحلها في سبب خروجهِ فلم تجد خيرًا من ان تدعي فراره الى حيث لا تعلم

وكان والدها قد افاق في اثناء الليل وهي غائبة فجاء غرفة ابنتهِ ليرى حالها فرأى الباب موصدًا فسأل العبد عن ذلك « فقال ان سيدتي باتت مبغوتة وقد تولاها الخوف على غير المعتاد في تلك الليلة فاوصدت الباب واوصتني ان انام خارجًا »

فقال والدها في نفسهِ « مسكينة خولة يظهر ان رعبها من ذلك الحبس لا يزال مؤثرًا عليها » وعاد الى فراشهِ وهو مقتنع بصدق ما قالهُ العبد

وفي الصباح جاء الغرفة فرأى الباب لا يزال موصدًا ولكن بلالاً ليس امامهُ فقرعهُ فنهضت خولة وفتحتهُ وهي تتظاهر بالذهول لطول استغراقها في النوم . فامسكها والدها بيدها ووضع يدهُ على كتفها وهو يقول « العلكِ لا تزالين خائفة يا بنية »

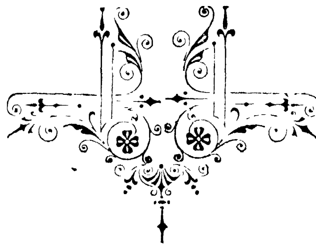
قالت « كلاَّ ياسيدي اني تحت جناحك في امن وطمأنينة »

فقال « بورك فيكِ تعالي نتناول الطعام » ثم نادى بلالاً فلم يجبهُ احد فقال « اين بلال »

قالت « لا أدري لعلهُ خرج الى السوق في غرض »

فصبر هنيهة فلم يحضر فارسل بعض الخدم في اثرهِ فلم يقف لهُ على خبر . ثم علم بضياع الجملين ولما انقضى معظم النهار ولم يعد بلال ولا الجملان اشكل عليهِ امرهُ

فقالت خولة « يظهر انهُ اخذ الجملين وفرَّ » فبعث الناس في اثرهِ الى ضواحي المدينة فلم ينبئهُ احدٌ بخبرهِ فصدق فراره



الفصل الرابع والسبعون

﴿ خولة ووالدها ﴾

أما خولة فلما تحققت انطلاء الحيلة على والدها عادت الى هواجسها وتذكرت المهمة التي سار فيها سعيد واخذت تفكر في امره وهي خائفة ان يتأخر في الطريق عن الوقت المعين لقتل الامام فيذهب سعيها هباء منثورًا . ولكنها كانت مع ذلك مطمئنة الخاطر بنجاتها من ابن ملجم لعلمها انه وان فاز بقتل الامام عليّ فلا ينجو من سيوف اشياعه – وهم كثار في الكوفة

على انها باتت منشغلة الخاطر على سعيد بعد ان فرغت من تدبير الحيل في ارساله لانها لم تحقق وقوعها من نفسه مثل وقوعه من نفسها وودت لو يسرع عبدها بلال بالرجوع لترى ما تمّ . ولكنها حسبت الايام الباقية ريثما يرجع فرأت الاجل لا يزال بعيدًا فصبرت نفسها ولبثت تنتظر ما يأتي به القدر

وبعد مضي ايام من ذلك جاء والدها ذات مساء بعد عودته من حانوته وعلى وجهه امارات البشر فتوسمت في طلعته خبرًا جديدًا فمالت الى استطلاع ما في خاطره لعلها تعلم منه شيئًا يهمها . فلما جلسا الى المائدة احتالت في اجتذاب حديثه فذكرت له ما مرّ في تلك الاثناء من القبض على اولئك العلويين وتفننت في استرضائه فابتسم واللقمة ملء فيه وكأنه يريد ان يقصّ عليها قصةً بعد ان يزدرد تلك اللقمة . فكفّت هي عن الطعام ولم تعد تستطيع صبرًا على سماع الحديث

فلما ابتلع اللقمة تنحنح ومسح شاربيه ولحيته والتفت اليها وقال وهو لا يزال يبتسم « لقد عودتني يا خولة ان احاذر الكلام بين يديك في ما اخشى افشاءهُ »

فتظاهرت بالاستغراب وقالت « اني لأعجب يا ابتاه من سوء ظنك بي مع علمك اني فتاة محتجبة في هذا البيت لا اعرف من اهل الدنيا احدًا سواك فكيف تقول انك تحاذر ان تذكر بين يديّ ما تخاف افشاءهُ . ايُّ سرّ بحت به اليّ فافشيتهُ »

قالت ذلك وكادت تجهش بالبكاء

فتأثر والدها من منظرها ولكنهُ عاد فابتسم وقال لها « لم اقل انك تبوحين

بالسر ولكنني . . » وسكت

فقالت « ولكن ماذا يا ابتاه انك والله ظالمي بظنونك ويسوءني ان لا يكون لي نصيب من الثقة حتى ولا من والدي الذي لا اعرف احدًا سواه »

قال « لا اخفي عنك ياولدي اني كنت ولا ازال اعتقد انك ميالة الى الاعداء . . . . . و . . . »

فابتدرته وهي تتظاهر بالبغتة والاستغراب وقالت « واي اعداء تعني . . . اعوذ بالله من هذه التهم . . . كيف تقول ذلك . . . » وتنحت عن المائدة وتظاهرت بالاعراض

فقال « اعترف لك اني اراك ميالة الى حزب العلويين وانت تعلمين ان عليًا حاربنا وقتل منا جماعة كبيرة في النهروان وغيرها . . ولا ألومك لانعطافك نحوه لانني كنت انا ايضًا مثلك وقد كنت في جملة المتشيعين له . ولكنني اصبحتُ بعد واقعة صفين ناقمًا عليه لما ارتكبه في مسألة الحكمين بحيث اخرج الخلافة من يده وجعل لمعاوية يدًا دونه . . . . »

الفصل الخامس والسبعون

خبر جديد

فادركت انها اذا اقرت بحقيقة ميلها القت نفسها في تهلكة فلم ترَ خيرًا من المبالغة في الانكار فقالت « وما ادراك اني ما زلت على القديم اذا كنتَ قد عدلت عنه ومن اكون انا حتى اخالفك في مثل ذلك »

قال او لم تكوني كذلك لما كان ثمت داع لتمنعك عن القبول بابن ملجم زوجًا وانت تعلمين ان هذا الرجل قد عاهد نفسه على القيام بعمل لم يقدم عليه احد غيره من المسلمين في هذا العصر . انهُ كما تعلمين قد تعهد بقتل علي . . . . »

فاجفلت عند سماعها ذلك التعريض وحدثتها نفسها ان تبوح بحقيقة ميلها ولكنها خافت ضياع الفرصة وهي انما افتتحت الحديث لتستطلع ما في نفس والدها فانكرت تهمته كل الانكار وقالت « ان ما تنسبني اليه من امر ابن ملجم ظلم يا مولاي فاني لم

ارفض هذا الرجل وهو لا يزال خطيبي متى عاد من رحلته هذه · وكيف تقول اني لم اقبل به وانا لم افه بكلمة في هذا الموضوع »

فضحك والدها وهو يتشاغل بتقطيع فخذ من الضأن بين يديه وقال وهو ينظر الى تلك الفخذ « نعم انك لم تفوهي بكلمة ولكنني فهمت من مجمل حالك انك غير راضية به » وكان قد اتمّ تقطيع اللحم فقدم لها قطعة فابت ان تتناولها واعرضت دلالاً وحنقًا

فقال لها « خذي كلي يا خولة ولا يسوءك قولي اذا كان صحيحًا »

« قالت وهو انما ساءني لاني اراني به مظلومة واظنك بناء على هذه الظنون قد عاملتني معاملة العدوّ فحبستني في ذلك البيت المظلم سامحك الله »

قال لقد اذكرتني حديث تلك الليلة وما كان فيها من الاهوال وهو الامر الذي جئت لاقص خبره عليك ولكنني لا اقول كلمة قبل ان تصدقيني الخبر هل انت على ولاء والدك تأتمرين بأمره · ام ماذا »

فتظاهرت بالغضب وقالت « اني لا اراك بهذه الظنون الاّ تريد ان تعنتني على الشكوك وتلجئني الى الانحراف وانا لا علم لي بما وراء هذا البيت ولا ابغي من هذه الحياة غير مرضاتك »

فمدّ يده وهو لا يزال قابضًا على قطعة اللحم وقال لها « خذي اذًا هذه اللقمة واصغي لما اقوله لك »

فتناولت خولة اللقمة من يده وقالت « تفضل » ووضعت اللقمة في فيها وهي لا تعرف كيف تمضغها لانشغال خاطرها بما ترجو سماعهُ من والدها فاذا هو يقول « اعلمي ياخولة ولا ازيدك علمًا ان اميرنا حفظهُ الله علم منذ ايام باثنين اتيا من الكوفة لمخابرة بعض كبار العلويين الذين كانوا يجتمعون سرًّا في خرائب عين شمس فبعث جندًا من شرطته فقبض عليهم وهم في مجتمعهم تحت الارض الا تعلمين ذلك ؟ »

قالت « لحظت شيئًا منهُ بعد حدوثهِ »

الفصل السادس والسبعون

عبد الله حيٌّ

قال « فاعلمي انما وجدنا في جملة المقبوض عليهم في تلك الليلة واحدًا من ذينك الاثنين اسمهُ عبدالله . واما الثاني فانهُ نجا ولا ندري من هو والظاهر انهُ لم يكن في ذلك الاجتماع لانهُ عمره كان طويلاً . اما الاول فانهُ سيق في جملة من سيق تلك الليلة الى دار الامارة . وربما بلغك ان الامير عمرًا رأى ان يقتل اولئك المقبوض عليهم وقد كنت انا في جملة من اشار عليهِ بذلك مخافة الفتنة اذا ظلوا أحياء . فأمر عمرو باغراقهم في النيل وعبدالله معهم وقد عدت انا من حضرة الامير وهم يتهيأ ون لارسالهم الى النيل وعلمت في الغد انهم اغرقوهم »

فلم ترَ خولة بحديثهِ شيئًا لم تكن تعرفهُ ولكنها علمت ان الحديث لم يتم فصبرت نفسها وتظاهرت بخلو الذهن من هذا الموضوع وهي تبدي الاستغراب

اما هو فقال « وما زلت اعتقد انهُ اغرقهم جميعًا الى اليوم وانا في منزل الامير فرأيت في بعض جوانبهِ غرفة مقفلة كنت كلما جئتهُ في هذه الاثناء اراها مغلقة فلم اهتم بشأنها فلما كان عصر هذا اليوم دخلت على الامير وانا عائد من عملي فذكرت لهُ امر ابن ملجم وتهمتهُ وطفقنا نتحدث في ما عسى ان يكون من امره في الكوفة . فلما وصلنا الى ذلك رأيتهُ يبتسم وتوسمت في وجههِ خبرًا فرغبت اليهِ ان يطلعني على ما حدث وانت تعلمين مالي من الدالة عليهِ . ولكنني رأيتهُ يتردد في الامر فالححت عليهِ فقال لي « انعلم من هو المقيم في هذه الغرفة »

قلت « لا يا مولاي لا اعلم وليس من شأني السؤال عما في منزل الامير »

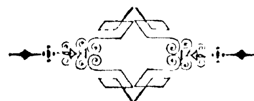
فضحك عمرو حتى رقصت لحيتهُ وقال « اني حبست فيها رجلاً سينقذ حياتي من القتل »

فعجبت لقولهِ واستغربت ما يشير اليهِ ولبثت انتظر الافصاح فقال لي « اعلم يا صاحبي اني حبست في هذه الغرفة عبدالله الاموي الذي كان قدومهُ سببًا بقتل العلويين منذ ايام »

فلما سمعت خولة ذكر عبدالله علمت انهُ رفيق سعيد وخفق قلبها فرحًا بنجاتهِ من القتل ولكنها استغربت سبب تلك النجاة على انها ظلت متجاهلة وهي تتوقع سماع تتمة الحديث ووالدها يتشاغل عن اتمامهِ بالمضغ والابتلاع وكان اكولاً

فلما خلا فمهُ من الطعام عاد الى الحديث فقال « فاستغربت ما يقولهُ وقلت ما الذي عساه ان ينجيك بهِ من الموت » فاخبرني قائلاً « ان ابن ملجم خطيب خولة الذي قلت لي انهُ عازم على قتل علي انما هو موَّامر رجلاً آخر على قتلي وانهما تواعدا على قتل علي وعمرو في يوم واحد » . قال عمرو — « فلما قال لي عبدالله ذلك استغشيتهُ ولم اصدِّق قولهُ لغرابتهِ ولعلمي ان ابن ملجم من رجال دعوتنا وخصوصًا بعد ان خطب ابنتك فقلت في نفسي لو صح حديث هذا الاموي لما خفي ذلك الحديث عنك وانت لو علمتهُ ما كتمتهُ عني فلم ارَ خيرًا من ان استبقيهُ واحبسهُ في منزلي ريثما يأتي الاجل المضروب لقتل هذين الاثنين وهو يوم ١٧ رمضان فاذا تحققنا قولهُ افرجنا عنهُ والاَّ ضربنا عنقهُ »

قال والد خولة « فلما سمعت قول عمرو استغربتهُ كل الاستغراب وخفت ان يكون عمرو قد ساء الظن بي فاقسمت لهُ الايمان المغلظة اني لم اكن عالمًا بغير عزم ابن ملجم وسأَلت عمرًا هل عرف اسم الموَّامر على قتلهِ . فقال ان ذلك الاموي لم يكن يعرف الاسم . ولم اعد اعرف يا خولة كيف اوَّكد لهُ صدق اخلاصي لهُ مخافة ان يبقى على سوء ظنهِ بي فبالغت في اظهار الغضب من ابن ملجم وقلت لهُ اني لو عرفت خداع هذا الرجل مارضيت بهِ صهرًا وانا منذ الآن محرمهُ من خولة فلما قلت لهُ ذلك التفت اليَّ وقال « لا يكفيني هذا الوعد وانا اعرف خولة واعرف مقامها وطالما كنت اريدها لاحد اولادي واما الآن فاني اطلب اليك اذا صدق هذا الأَموي بقولهِ ان تكون ابنتك خولة عروسًا لهُ لان الرجل اموي وكان على دعوتنا ولكن بعض الناس اغروه على التشيع لعلي »



الفصل السابع والسبعون

عريس جديد

فلما وصل الى ذلك الحد علمت خولة ان عبد الله لا يزال حياً واطمأن بالها عليهِ وعلمت انهُ لم يذكر خبر المؤامر الثالث على قتل معاوية مخافة ان يرسل عمرو بخبرهِ الى الشام فينجو معاوية منهُ

ولكنها لما سمعت ذكر خطبتها لهُ اطرقت حياء وتظاهرت بالسكوت وقلبها يختلج فرحاً بنجاتها من ابن ملجم . ولكنها تذكرت حبها سعيداً وما بعثت اليهِ مع عبدها بلال فاحتارت في امرها . على انها لم يسعها الاَّ كتمان كل ذلك والتظاهر بالاستغراب فقالت وهي تهز راسها استغراباً « اصحيح انهم تآمروا على قتل عمرو ايضاً انها لصدفة غريبة »

قال « بالحقيقة انها صدفة يندر مثالها ولكن ما قولك باقتراح عمرو علك »

فسكتت ولم تجب

فقال « ما معنى سكوتك وانت تعلمين انا لا نستطيع رد ذلك الاقتراح »

قالت دع ذلك الآن فانهُ ليس بالامر المهم وما خولة الاَّ جارية حقيرة لا تستحق هذا الاهتمام ولنصبر الى الاجل المسمى لنرى ما يكون .»

فقال « انا صابرون ولكنني ارجو ان يكون خطيبك الجديد اهلاً لك وليس مثل ابن ملجم الخائن على اني ادركت من خلال حديث عمرو ان عبد الله رجل صادق وهو مع ذلك اموي ربي في منزل الخليفة عثمان ولكنهم اغروه على التشيع لعلي ثم عاد الى ما كان عليهِ . واذكر اني رايتهُ ليلة قبضوا عليهِ فاذا هو شاب في مقتبل العمر واظنك سترتاحين اليهِ »

فظلت خولة ساكتة فحسب والدها سكوتها قبولاً فسكت وكانوا قد فرغوا من الطعام فنهض ونهضت خولة فغسلت يديها والتمست غرفتها وهي تفكر في ما سمعتهُ من والدها وتحسب نفسها في حلم

فلما خلت بنفسها تذكرت سعيداً وحبها لهُ وجعلت تتقاذفها الهواجس وهي

تخاف ان يحملها عمرو على الاقتران بعبد الله قبل ان تعلم مصير سعيد في مهمته الى الكوفة وقد اعجبت بدهاء عبد الله لانهُ باح بخبر المؤامر على قتل عمرو وكتم امر المؤامر الثالث . وهو معذور في ما اباح بهِ انقاذاً لحياتهِ . ولكنها خافت ان لا تتم نبوتهُ فلا يأتي المؤامر في الاجل المعين فيقتل عبد الله . على انها كانت اذا تصورت صدق نبوتهِ ونجاتهُ من القتل يخفق قلبها لاضطرارها عند ذلك الى القبول بعبد الله زوجاً لها وهي تحب سعيداً . فهاجت اشجانها وارتبكت في امرها وجعلت تبحث عن طريقة تنجو بها من هذا التردد فلم ترَ خيراً من الصبر لما يأتي بهِ القدر

الفصل الثامن والسبعون

﴿ نجاة عمرو ﴾

اما عبد الله فكان قد جنح الى هذه الحيلة املاً بالحياة وهو مع ذلك يخاف ان لا يتأخر المؤامر عن الوقت المعين لسبب من الاسباب فيذهب سعيهُ عبثاً

وظل عمرو اياماً لا يخرج للصلاة فلما كان فجر ١٧ رمضان شكا من بطنهِ فلم يخرج واتفق خروج خارجة بن ابي حبيبة صاحب شرطتهِ للصلاة وهو لا يعلم بخبر المؤامرة ولا امر عمرو بالخروج ولو علم بخروجهِ لمنعهُ . على انهُ لم يكن يحسب المؤامر يأتي لقتلهِ في الفجر وهو يصلي بل كان يحسب انهُ يراقب خروجهُ في اثناء النهار الى بعض الاماكن . ولكن منية خارجة عاجلتهُ فخرج في فجر ذلك اليوم الى الجامع ليصلي في الناس ولم يكد يبدأ بها حتى همَّ بهِ رجل من الوقوف وهو يحسبهُ عمراً فضربهُ بالسيف فقتلهُ (١) فقبضوا عليهِ وساقوه الى عمرو فلما رآه عمرو بغت وصاح بهِ « ويلك قد قتلت صاحب شرطتي قتلت خارجة بن ابي حبيبة » فاجابهُ الرجل بقلب لا يهاب الموت « والله اني كنت احسبهُ انت »

فقال لهُ عمرو « اردتني واراد الله خارجة . من انت يا غادر »

---

(١) ابن الاثير ج ٣

قال « اني عمرو بن بكر »
قال « وممن انت »
قال « من تميم »
فقال اقتلوه فقتلوه وقد اسفوا لمقتل خارجة ولكن المقدر كائن لا يمحى

اما خولة فانها باتت ليلة ١٧ رمضان على مثل الجمر وهي تتوقع ان تسمع خبراً جديداً في اليوم التالي ولم تكن تتوقع ان يفعل المؤامر فعلتهُ في الفجر فاصبحت وقد ضجت الفسطاط بخبر خارجة وجاءها ابوها فاخبرها بهِ ولسان حالهِ يقول « لقد صحت اقوال عبد الله فتأهبي للاقتران بهِ »

اما هي فانها تحققت وقوع المحذور ولم تعد تدري ماذا تفعل وندمت لانها لم تخرج من بيت والدها سرًّا قبل ذلك اليوم على انها لم تكن من الجهة الاخرى موقنة ببقاء سعيد على عهدها او انهُ رضي بها . وكانت لما لقيتهُ في الفسطاط لم تحقق ميلهُ نحوها . فوقعت في حيرة ولكنها كانت من الجهة الاخرى في قلق على الامام علي لا تدري هل نجا كما نجا عمرو ام ذهب فريسة ابن ملجم وودت لو ان عبدها يعود في ذلك اليوم بالخبر اليقين لتعلم كيف تتصرف

الفصل التاسع والسبعون

﴿ ضياع قطام ﴾

فلنعد الى سعيد وبلال في الكوفة فقد تركنا بلالاً يتأهب للقدوم على الفسطاط وسعيد يفكر في ماذا يفعل بعدهُ وكان قد امرهُ بالذهاب الى الفسطاط على ان يبقى هو هناك حتى يعود اليهِ بالخبر عن عمرو . ثم رأى ان المسافة بعيدة ربما لا يصبر عليها . فقال لهُ « لقد امرتك بالرجوع الى الكوفة ولكنني ارى الاجل بعيداً فاني شاخص الى دمشق فاذا سرتَ الى الفسطاط واطلعت على ما جريات الاحوال وافني الى دمشق فاني اكون هناك في انتظارك في المسجد بعد عشرين يوماً سواءٌ تمكنت من الفتك بقطام الخائنة ام لا ولكنني اكون قد اطلعت على مصير معاوية »

فودعهُ بلال ومضى وصبر هو الى الغد فخرج الى الكوفة يلتمس بيت قطام فرآه مقفرًا ليس فيهِ احد فوقف عند باب الحديقة وجعل يتأمل بخلاتها وطرقاتها ويفكر في ما مرَّ لهُ هناك من الاهوال وما طلي عليهِ من خيانة قطام غير مرة فشعر بضعفهِ وتذكر آخر مرة زار بها في ذلك المنزل ومعهُ ابن عمهِ عبد الله فاسف لفقدهِ وازداد بهِ الميل للانتقام من قطام ففكر في امرها وفي المكان الذي عساها ان تكون قد انصرفت اليهِ فخطر له ان تكون قد سارت الى اهلها في جوار الكوفة فخرج للبحث عنها فلم يقف لها على خبر فملَّ البحث وخاف ان ينقضي الاجل الذي ضربهُ لبلال فيعود اليهِ في دمشق ولا يجدهُ فخطر لهُ ان قطامًا ربما سارت الى دمشق تلتجئ الى معاوية بعد ان نجحت في قتل مناظرهِ علي فسار يلتمس دمشق على ناقة تسابق الرياح

اما قطام فكانت في الليلة التي وصل بها سعيد الى الكوفة قد علمت بقدومهِ من ريحان اذ عاد اليها بما دار بينهُ وبين بلال عند خولة واحكى لها ما فضحهُ بلال من سره وكيف كان ذلك سببًا في انكشاف امره لدى سعيد فلم يعد يصدقهُ ويذهب معهُ الى منزلها فحنقت على بلال وعلى سيدتهِ ومازج ذلك الحنق غيرة من خولة . لان قطامًا اللعينة مع كرهها لسعيد لم تكن تصبر على من يحبهُ وخصوصًا لما علمت ان خولة كانت عونًا على عرقلة مساعيها في قتل الامام علي فاصمرت لها السوء ولكنها شغلت عنها تلك الليلة بما كانت فيهِ من انتظار الفتك بعلي وكان ابن ملجم بائتًا عندها . فلما كان الفجر خرجت هي وعجوزها وعبدها وضربت قبتها في المسجد كما تقدم وفي ذلك من الجرأة والوقاحة ما فيهِ ولم تكن تخاف انكشاف حيلتها ولو تعمد سعيد ان يكشفها لما دبرتهُ من الحيلة في ايصال الصك بعد تحويره الى قنبر حاجب الامام علي مع لبابة المحتالة كما علمت

الفصل الثمانون

﴿ نجاة معاوية ﴾

فلما قُتل الامام علي على ما تقدم ورأت ابن ملجم مقبوضًا عليهِ وكانت تتوقع لهُ

ذلك من ذي قبل فرّت بعبدها وعجوزها الى مكان خارج الكوفة وقد شفت غليلها بقتل الامام · ولكنها مازالت ناقمة على سعيد وزادت نقمتها عليهِ بعد ما علمتهُ من امر خولة فعوّلت على اللحاق بالفسطاط لتشي بها الى عمرو بن العاص لاعتقادها انهُ يقدّر خدمتها لهُ حق قدرها لانها انبأتهُ بتجمع العلويين · وهي لا تشك انها بمجرد وشايتها على خولة وانها من انصار عليّ يقتلها عمرو واذا كان لا يزال حياً · واذا كان قد قتل فتدبر حيلة اخرى · فلما خطر لها ذلك استشارت الماية سرًّا فاستحسنت رأيها وحرضتها على المسير الى الفسطاط واستشارت ريحان فقال لها اني في ركابكِ رحلت او اقمتِ فاثنت على غيرتهِ بالفاظ ملؤها التمليق والرياء واصبحت في اليوم التالي تلتمس الفسطاط على ان تمرّ بدمشق وتستطلع حال معاوية وما كان من امره بعد ١٧ رمضان حتى اذا كان قد نفذ السهم وقتل معاوية تحمل ذلك الخبر الى عمرو وتحرضهُ على التماس السلطان لنفسهِ

فلما وصلت دمشق سمعت ان المؤامر على قتل معاوية واسمهُ البرك بن عبد الله التميمي الصريمي قعد لمعاوية في فجر ١٧ رمضان في مسجد دمشق · فلما خرج معاوية للصلاة شد عليهِ بالسيف فوقع السيف في اليتهِ (١) فسيق البرك الى معاوية فقال لمعاوية ان عندي خبرًا اسرّك بهِ فان اخبرتك فنافعي ذلك

فقال لهُ معاوية نعم

قال ان أخًا لي قد قتل علياً هذه الليلة

فقال « فلعلهُ لم يقدر على ذلك »

قال « بلى ان علياً ليس معهُ احد يحرسهُ »

فأمر بهِ معاوية فقتل وجعل يطبب جرحهُ

فلما علمت قطام بنجاة معاوية لم يبق لديها الاَّ الشخوص الى الفسطاط للايقاع بخولة



(١) ابن الاثير ج ٣

الفصل الحادي والثمانون

﴿ عبد الله في دار الامير ﴾

اما عبد الله فانهُ مكث في محبسهِ وقلبهُ واجف مما قد يطرأ من تغيير خطة المؤامرة وقد خطر له الاحتياط من ذلك فلما باح لعمرو بالسر اشترط عليهِ ان لا يطلع احداً عليهِ لانهُ اذا شاع وعلم المؤامر بهِ ربما غير خطتهُ فيقدم الميعاد او يؤخرهُ فيظهر بذلك من عبد الله مظهر الكذب . وهذا الذي دعا عمراً لكتمان امر المؤامرة عن كل واحد حتى عن صاحب شرطتهِ . واما والد خولة فقد كان من اكثر الناس تقرباً من عمرو واعظمهم غيرة عليهِ فكان عمرو يسارُّه في مثل هذه الشؤون ولولا رغبتهُ في معاتبتهِ على خيانة صهره ابن ملجم ما كشف لهُ الامر

فلما كان ليل ١٧ رمضان اخذ القلق من عبد الله مأخذاً عظيماً لعلمهِ انهُ ليلتئذ بين الحياة والموت . فاصبح ذلك اليوم وهو لا يزال محبوساً لا نافذة في محبسهِ يطلُّ منها او يسمع ما يجري على انهُ سمع لغطاً لم يفهم منهُ شيئاً صريحاً فتربص حتى جاءه الخفير بالطعام على مجاري العادة فاستفهمهُ فطمأنهُ باختصار فسرَّ ولبث الى مساء ذلك اليوم

وبعض العشاء جاء بعض رجال عمرو الى محبس عبد الله ففتحهُ ودخل عليهِ فحلَّ قيودهُ ودعاهُ الى الامير فمشى في اثرهِ وقد انبسط وجههُ لما كان من نجاتهِ بعد ان كان في عداد الاموات . فقاده الرجل الى قاعة في صدرها عمرو بن العاص على وسادة وفي يده درة (سوط) يلاعبها بين أصابعهِ وليس في القاعة احد سواه . فلما اشرف عبد الله على القاعة نزع حذاءهُ في الخارج ودخل تواً الى مجلس الامير وهمَّ بتقبيل يده باحترام فامسكهُ ابن العاص بيمينهِ واجلسهُ الى جانبهِ وهو يقول بصوت منخفض " لقد كانت نجاتنا على يدك فوجبت علينا كرامتك ولكن للاسف ان صاحب شرطتنا وقع في الشراك التي كانت منصوبة لنا ولو علمنا الساعة او المكان المعينين لتلك الفعلة الشنعاء لاستطعنا تداركها او لو اطاعتُ خارجة على سر الامر فربما كان نجا بنفسهِ ولكني لا اظنهُ كان يستطيع ذلك وهو لا يعلم الزمان والمكان المعينين »

فقال عبد الله « اعلم يا مولاي ان كتمان هذا الامر تتوقف عليهِ حياتي اذ لو شاع خبر اطلاعك على هذا السر لغيَّر المؤامر خطتهُ فربما أخر موعده اسبوعًا او شهرًا فكنت انا المقتول بدلاً من خارجة لانك تسيء الظن بي فتقتلني . ومع ذلك فهو القضاء يجري الى حيث لا نعلم » .

ولم يتم كلامهُ حتى دخل بعض الخدم يقول « ان في الباب ابا خولة »

فقال عمرو « ادخلوهُ »

فرجع الخادم ودخل ابو خولة وهو صاحبنا والد خولة ولم يكن هو من مصاف الامراء ولا من القواد الانداد حتى تكون لهُ تلك المنزلة عند عمرو ولكنهُ نال تلك الحظوة خصوصًا بعد ان اطلع عمرًا على عزم ابن ملجم على قتل علي . ثم ما زال يتردد على دار عمرو ويبذل ما في وسعهِ لخدمتهِ فعدَّه عمرو من اصحابهِ

فلما دخل ابو خولة القاعة حيى وقبل ان يجلس قال لهُ عمرو اغلق الباب ومر الخدم اننا لا نريد احدًا يدخل علينا . ففعل ودخل . فدعاه عمرو الى جانبهِ وعرَّفهُ بعبدالله واعجب ابو خولة بعبدالله لانهُ كان شابًّا جميلاً مع نباهة وذكاء وسرَّ لما دعاهُ عمرو من مصاهرتهِ لهُ . واما عبدالله فكان لا يزال خاليَ الذهن من ذلك

فلما جلس الثلاثة التفت عمرو الى عبدالله وقال لهُ « لقد عرفتك بصاحبنا ابي خولة ولم أُتم لك المعرفة فاز يدك علمًا انهُ من اعز اصدقائي وقد كتمت امر المؤامرة عن كل أحد سواه ولكنني اشترطت عليهِ شرطًا اظنهُ يعود عليك بالمنفعة وقد فعلتهُ مكافاةً لك على خدمتك لي »

فوقف عبدالله متأدبًا وقال « يأذن لي مولاي بكلمة »

قال قل

قال « لا ارجو ان تحسب لي فضلاً بما بحت لك بهِ فاني والحق يقال انما فعلتهُ استبقاءً لحياتي فلا تظنني اغشُّ نفسي »



الفصل الثاني والثمانون

﴿ عبد الله وخولة ﴾

فأعجب عمرو بحرّية ضمير عبدالله وقال له « لم تزدني بهذا التبرؤ الاّ رغبة في مكافأتك ان ابن العاص لا يجهل قدر الرجال ولا هو سادج لا يفهم انك لولم تقع بين يديهِ وتشعر بقرب الاجل ولا ترى لك مخرجاً بغير هذا الافشاء لما فعلتهُ . ولكنني مع ذلك اشعر بجميل لك عليّ فأُريد مكافأتك عليهِ وخصوصاً بعدان رأيت من صدق لهجتك ما اكد لي انك لو كنت من انصارنا لكان لنا بك نعم النصير وانت على ما بلغني اموي فليس تشيعك للعلويين معقولاً . . » قال ذلك وفي صوتهِ غنة استفهام كأنهُ يستفهم عن سبب تشيعهِ فسكت عبدالله . ففهم عمرو انهُ يريد الكتمان فغير الحديث وقال لهُ « ولكنك لم تسألني عن المكافأة التي اعددتها لك »

قال « قلت لك اني لا استحق مكافأة فمهما اكرمتني بهِ كان فوق ما استحق »

قال عمرو « هل انت مزوج » .

قال كلاّ يا مولاي

قال اعلم ياعبدالله ان في الفسطاط فتاة يتحدث بجمالها وتعقلها اهل هذه المدينة هي ابنة صاحبي هذا (واشار الى والد خولة) ولا اخفي عنك انها كانت مخطوبة لعبد الرحمن بن ملجم وهو احد المؤامرين على قتل عمرو وعلي ولا ندري ما كان من امره اليوم فانهُ موعد القتل . . . »

ولما قال عمرو ذلك تذكر عبدالله ما كان قادماً من اجلهِ مع سعيد وكيف فشلت مهمتهما فاحسّ كأنك نصب ماء غالياً على ظهرهِ ولكنهُ تجلد وصبر نفسهُ الى آخر الحديث

فاتمّ عمرو كلامهُ قائلاً ان خولة هذه كانت مخطوبة لابن ملجم على ان يقترن بها بعد عودتهِ من الكوفة ولا ريب ان ذلك الخائن كان عالماً بتواطىء عمرو بن بكر على قتلي فكتم ذلك في قلبهِ وسار ولم يطلعني على شيء منهُ فاعتبرتهُ شريكاً في قتلي فاحرمتهُ من خولة ولي دالة على والدها لانها بمنزلة ابنتي وقد طلبت منهُ ان تكون لك عروساً ومتى رأيتها تحقق اننا قد ازوجناك زهرة الفسطاط وخيرة بناتها . ثم التفت

عمرو الى ابي خولة وقال « ولا تظننا فرطنا بخولة فان هذا الشاب من سلالة الامراء ويكفي انهُ اموي وبينهُ وبين الخليفة معاوية نسب قريب . اما ابن ملجم الخائن اذا عاد الينا فلا أبقاني الله ان ابقيتهُ حياً . ولكنني لا اظنهُ الاَّ مقتولاً في دار ابن ابي طالب فاز في مهمتهِ اولم يفز » قال ذلك والغضب بادٍ على وجههِ

ففرح عبدالله بما نالهُ من الحظوة في عيني عمرو وارتاح لما بلغهُ عن خولة ولكنهُ مازال منشغل الخاطر على ابن عمهِ سعيد وما كان من امرهِ بعد ان فارقهُ في مسجد الفسطاط يوم اجتماع عين شمس . وحدثتهُ نفسهُ ان يسأَل عمرًا عنهُ مخافة ان يكون قد وقع في ايدي رجالهِ ولكنهُ لبث ساكتًا يتردد وقد نسي اقتراح عمرو . فظنهُ عمرو غير راض بهِ فقال لهُ « ما بالك لم تجب العلك لم ترض خولة والله اني ارضاها لاعزّ ابنائي »

فابتدرهُ عبدالله قائلاً « عفوك يامولاي كيف لا ارضى بما رضيتهُ انت لي وما سكوتي الاَّ لاني اعتبرت اقتراح الامير امرًا نافذًا لاخيرة لي فيهِ فماذا اجيب . اما اذا تعطفت في سؤَالي فاني راضٍ ولكنني ارجو ان تكون هي راضية بهذا الرجل الغريب »

فقال ابو خولة « ان خولة جارية بين يدي مولانا الامير وما يرضاه لها لا مندوحة لها عنهُ وانا وهي طوع ارادتهِ »

الفصل الثالث والثمانون

تتمة الحديث

واستولى السكون على تلك الجلسة لحظة ثم التفت عمرو الى عبد الله فقال « وقد كنت اظنكما اثنين جئتما معًا الى الفسطاط ولكنني لم ارَ سواك »

ولم يتم عمرو كلامهُ حتى علت البغتة على وجه عبدالله ونظر الى عمرو قائلاً « وهذا هو الامر الذي شغل بالي في اثناء حديث مولاي . ان رفيقي هو ابن عمي بل هو اخي وقد كلفت برعايتهِ جئنا معًا الى هذه المدينة ولكنني يممت عين شمس وحدي وتركتهُ في المسجد على ان استطلع المكان واعود اليهِ فقبضوا عليَّ ولم اعد اعرف شيئًا عنهُ الى الآن فهل عثر احد من الشرطة عليهِ فقتلوه »

قال عمرو « لم اسمع عنهُ شيئًا ولا اخبرني احد بخبرهِ والظاهر انهُ نجا بنفسهِ لما سمع بما وقع لكم في ذلك الاجتماع »

فاطمأنَّ بال عبدالله على سعيد ولكنهُ ظلَّ مشتاقًا لاستطلاع حقيقة حالهِ . فودَّ لو انهُ يسير حالاً الى الكوفة فيستطلع كل شيء ويتحقق ما وقع للامام علي ولكنهُ خجل من ابداء رأيهِ وهو في مجلس عمرو فكيف يظاهر برغبتهِ في شؤون علي مع علمهِ بما بينهما من المنافسة . فرأى ان يجعل السبب في اسراعهِ البحث عن ابن عمهِ فقال « لقد اوضحت لمولاي ما انا فيهِ من اشغال البال على ابن عمي هذا فهل يأذن لي الامير بالانصراف الى الكوفة استطلع حالهُ ثم اعود واكون في خدمتك الى الممات فقد اوليتني جميلاً لا انساهُ لك »

قال عمرو « ويكون ذلك بعد كتابة الكتاب . واذا عقدنا لك على خولة وصرت من اصهارنا سر الى حيث شئت »

وكان عمرو لفرط دهائهِ وحسن سياستهِ قد ادرك ان رجلاً حرًّا صادقًا مثل عبدالله لا يفرّط فيهِ . لانهُ اذا اخلص الخدمة كان نفعهُ عظيماً . ولم يرَ لتقييد قلبهِ خيرًا من ان يبادئهُ بالجميل وان يزوجهُ بنت صاحبهِ وهو يحسب خولة على دعوتهِ فاذا كانت هي زوجتهُ حببت اليهِ الرجوع الى حزب الامويين . لا سيما وهو لا يعلم بعد هل نجح ابن ملجم بمهمتهِ في الكوفة ام لا . فلما اقترح على عبدالله كتابة الكتاب قبل السفر قبل عبدالله واطاع فضرب عمرو اجلاً لذلك اسبوعًا وقال « فنقيم عندنا في اثناء ذلك ضيفًا كريمًا فاذا آن الزمن عقدنا لك على خولة ثم تنصرف للبحث عن ابن عمك »

فوقف عبدالله ثم جثا بين يدي عمرو يهمُّ بتقبيل يدهِ وقال « لقد غمرتني بفضلك فما انا مستطيع الشكر على نعمتك » والتمس الخروج فاذن لهُ

وخرج ايضًا ابو خولة وهو يكاد يطير فرحًا لما آنس من كرامة عمرو . وسره النصيب الجديد لابنتهِ فسار توًّا الى المنزل وكانت خولة جالسة هناك على مثل الغضى تتقاذفها الهواجس بعد ان تحققت نجاة عمرو وعلمت بما فرضهُ من زواجها بعبدالله وهي مع حبها لهُ تفضل البقاء على حب سعيد وهو اول من وقع في نفسها موقع الحبيب في احوال قضت بذلك . فلما كان المساء وابطأ والدها في الرجوع الى البيت انشغل بالها ولبثت تنتظر عودتهُ بفارغ الصبر لعلمها انهُ لابد من مرورهِ بعمرو وعلى اثر ما

كان من نجاته في ذلك اليوم . وحسبت لابطائهِ الف حساب . واشد ما خافتهُ من ذلك الابطاء ان يكون سببهُ المداولة في امرها وامر عبدالله وهي لا تريد ذلك

الفصل الرابع والثمانون

البشارة غير السارة

فلما انقضى العشاء ومضى بعده ساعتان سمعت قرع الباب وعلمت انهُ قرع والدها فدقَّ قلبها دقات متسارعة وعلت وجهها صفرة الوجل فظلت مستلقية على الوسادة في غرفتها ولم تمض برهة حتى فتح باب الدار . فتحوَّل والدها توًّا الى غرفتها فقرعها فنهضت لتفتح لهُ وركبتاها تصطكان من الاضطراب . فلما فتحت لهُ الباب دخل والمصباح في يده فوضعهُ على مسرجة وجلس اليها وعلى محياه امارات البشر والسرور وهو يحسب نفسهُ جاءها ببشرى عظيمة . ورآها مضطربة الحواس قلقة الخاطر مع انها كانت تحاول التجلد ولكن القلق والاضطراب غلبا عليها فقال لها « ما بالك يا بنيَّة ما الذي يزعجك »

قالت « لا يزعجني شيء ولكنني قلقت لغيابك وانا وحدي في هذا البيت لا ارى فيهِ احدًا غير الخدم »

قال وهو يبتسم « لقد دنا الوقت الذي لا تكونين فيهِ وحدك »

فتجاهلت مرادهُ وقالت « يظهر انك علمت بما اقاسيهِ من الوحدة فعوَّلت على ان لا تتركني وحدي »

فضحك لسذاجتها وقال لها « ليس هذا قصدي يا خولة ولكنني اذكرك باقتراح الامير الذي اطلعتك عليهِ منذ بضعة ايام فانهُ قد تمَّ اليوم بعد ان صدق قول عبد الله الاموي فجمعني عمرو بهِ الليلة في داره فرأيتهُ شابًّا جميلاً عليهِ مهابة الامراء وقد تربى الشجاعة والانفة تتجليان في وجههِ . ويكفي ان عمرًا سحر بهِ وبالغ في اطرائهِ امامي . فهذا هو خطيبك ومتى كتب الكتاب طبعًا لا تكونين وحدك »

ولم يتم كلامهُ حتى صبغ وجهها احمرار الخجل وظلت صامتة ثم اخذ العرق ينسكب عن جبينها كاللؤلؤ المنثور وهي مطرقة لا تفوه بكلمة

ولم يكن سبب اضطرابها مجرد الخجل كما ظن والدها ولكنها اصبحت آلة تتقاذفها الهواجس حائرة بين ان تطيع عواطفها او تطيع والدها واميرها . ولو انها لم تبعث الى سعيد بخبر حبها له مع بلال لكانت المعضلة اقرب الى الحل واذا رفضت عبدالله رفضاً باتاً تغضب عمرًا و والدها . وهي مع ذلك لا تدري مصير سعيد ولا ما آلت اليه مهمته بعد خروجه من الفسطاط مع بلال ولم ترَ حلاً غير الاصطبار فصبرت حتى يعيد والدها السؤال فتستمهله

اما هو فلما آنس فيها ذلك الاضطراب حمله محمل الخجل وهو عادي في الفتيات في مثل هذه الحال . فوضع يده على شعرها المسدول على كتفها وقال لها « لا تخجلي يابنية ان والدك يخاطبك وليس احد سواه وقد تمّ الامر على يد الامير وهو شرف كبير لنا كما تعلمين »

فاجابت وهي لا تزال تنظر الى الارض وقالت « وهل ضرب لذلك اجلاً »

قال « لقد ضرب اجلاً لذلك اسبوعًا »

قالت « فليكن ثلاثة اسابيع على ما ارى »

قال « ما الداعي الى هذا التاجيل فاني اخاف ان يغضب عمرو . فاطيعيني وانا حامل تبعة ذلك . فان عبدالله شاب يندر مثاله وانا افتخر بمصاهرته وليس هناك محل للاعتراض » قال ذلك وفي كلامه نغمة الجفاء على عادته معها اذا اراد الاصرار على امر فخافت اذا جادلته ان لا تحسن العقبى فسكتت ثانية واظهرت الارتياح فلما رآها كذلك قال لها « بورك فيك يا بنية وبعد اسبوع تكون كتابة الكتاب وتتم معدات الزواج »

فظلت ساكتة وقد عوّلت على اتخاذ وسيلة اخرى للتاجيل

الفصل الخامس والثمانون

الخطبة الجديدة

اما عبدالله فانه خرج من مجلسه يلتمس مكاناً يقيم فيه ولم يكد يخرج من دار

الامير حتى ادركهُ بعض رجال عمرو وناداه فعاد . فقال لهُ « والى ابن »

قال « اني التمس مكاناً اقيم فيهِ »

قال « لقد اوصانا الامير ان نعدَّ لك منزلاً في داره فانك ضيف عليهِ »

فازداد عبدالله امتناناً من عمرو وفرح بتلك الدعوة لانهُ غريب لا يدري كيف يذهب . وتبع الرجل الذي كلمهُ الى غرفة فيها فراش وغطاء و بعض الآنية وسألهُ هل يحتاج الى طعام فاعتذر وسار توًّا الى فراشهِ

ولما خلا بنفسهِ جعل يفكر بنجاتهِ وصورة ابن عمهِ سعيد لم تبرح من مخيلتهِ طول ذلك الليل . على انهُ اطمأن على حياتهِ ولكنهُ مال بكليتهِ الى استطلاع خبر مهمتهِ ليدري ما تمَّ للامام علي

وكانت ذكرى خولة تعترض هواجسهُ وود لو يراها ليستطلع ما يكون من حظهِ معها ولكنهُ لما تذكر اطناب عمرو بها تحقق لياقتها على انهُ ما زال مشتاقاً لرؤيتها

ولما اصبح سار الى المسجد صلى الصبح وهو يتوقع ان يرى والد خولة لعلهُ يدعوه الى منزلهِ فيتخذ ذلك وسيلة لرؤية خولة ولو خلسة . وكان والد خولة قد مرَّ بالجامع في ذلك الصباح عمداً لهذه الغاية فلقيه فسلم عليهِ ودعاه للعشاء فقال لهُ « اني في ضيافة الامير ولا يليق بي قبول الدعوة الاَّ بعد استئذانهِ »

فقال « انا استاذنهُ عنك »

قال حسناً وافترقا . فمشى عبدالله في شوارع الفسطاط واسواقها فمرَّ ببيت خولة وهو لا يعرفهُ . وكانت خولة قد اصبحت في ذلك اليوم وهي لا تزال قلقة البال فخرجت تمشي في الدار فوقع نظرها على عبدالله وهو مارٌّ ولم تكن رأتهُ قبل ذلك الحين ولكنها استنتجت من لباسهِ وقيافتهِ مع مشابهتهِ سعيداً انهُ هو عبدالله خطيبها فاختلج قلبها في صدرها ونفرت لاول وهلة ولكنها ارادت ان تتبين حالهُ فتفرست فيهِ وهو ماش فرأتهُ معتدل القوام رشيق الحركة فارتاحت لرؤيتهِ وسرَّت بهِ لمشابهتهِ بسعيد ولكنها ما لبثت ان نفرت منهُ لما تذكرت انهُ سيحرمها من حبيبها ومازالت تتبعهُ بنظرها حتى توارى وهو لم ينتبه



الفصل السادس والثمانون

﴿ الزيارة الاولى ﴾

عادت خولة الى غرفتها وهي منقبضة النفس وقضت نهارها لم تذق طعاماً ولما كان الغروب آن زمن رجوع والدها من شغله وكان الخدم قد اعدوا المائدة له ولضيفه وخولة لا تدري . وما عتم ان دخل الدار وتنحنح على جاري عادته كانه ينبه اهل المنزل الى مجيئه . فتظاهرت خولة بارتياحها لقدومه ولكنها عوّلت على التمارض على انها ما لبثت ان رات مع والدها شاباً عرفت انه عبدالله فخفق قلبها وغلب عليها الاضطراب وتوارت في غرفتها وقد بردت اطرافها

واما والدها فانه ذهب بضيفه الى غرفة الضيوف فتركه هناك وجاء الى خولة فرآها مستلقية على الفراش وقد امتقع لونها فتحفزت للنهوض وهي تتظاهر بالضعف . فقال « ما بالك يا خولة »

قالت لا باس عليّ غير اني اشعر بانحطاط وانحراف لا ادري سببه

فدنا منها وهمس في اذنها قائلاً « ليس ثمت داع الى الانحطاط وقد جاءنا ضيف عزيز »

قالت وهي تتجاهل « ما لي وللضيوف اني لا استطيع النهوض ولا يطلب مني ملاقاة الضيوف »

قال « انما لا نكلفك ملاقاتهم ولكن هذا الضيف اصبح من اقربائنا ولا باس من ملاقاته عملاً بامر الامير عمرو بن العاص »

فقالت « ولكنني منحطة القوى . دعني انام الآن وسالاقيه في فرصة اخرى واما صحيحة ان شاء الله »

قال « ولكنني كنت اظنك اكثر رغبة مني في رؤيته بعد ان قصصت عليك امر خطبته لك . ايليق بنا بعد هذه الخطبة ان نظهر له هذا الجفاء »

فتحيرت خولة ولم تدر بماذا تجيبه وهي تخاف غضبه لما تعلمه من سوء خلقه وسرعة حمقه فظلت صامتة

فامسكها بيدها وانهضها فوقفت بالرغم عنها وسارت في اثره وهي مطرقة فلما وصلا باب الغرفة وقف بها وقال لها « ضعي خمارك على راسك وانزعي هذا الذبول واستقبلي الرجل بما يليق بامثالك لئلا يبلغ عمرًا عنا ما يدلُّ على مخالفة رأيهِ فنقع تحت طائلة غضبهِ »

فرأت خولة من الحكمة ان تتجلد وتصبر لئلا يحمق والدها فيسمعها ما يكدرها فخفت الى خمارها فوضعتهُ على رأسها واصلحت ثيابها بما يليق ان تقابل بهِ الضيوف وخرجت في اثر والدها حتى دخلا على عبد الله

الفصل السابع والثمانون

الزفاف الكاذب

وكان عبدالله قد لحظ من ابطاء ابي خولة في غرفتها انهُ يستدعيها فاصبح مشتاقًا الى رؤيتها وهو لا يطمع ان يرى وجهها دفعة واحدة بما كان يتوقعهُ من حيائها ولكنهُ قنع بان يرى قامتها وتجمل حالها . فلما أشرفت على الغرفة وتبين جمالها واعتدال قوامها انفتح قلبهُ لها وحمد الله لتوفقهِ الى مثلها بعد نجاتهِ من الموت . فدخلت وحيت بما يجدر بمثلها في مثل هذا المقام وجلست على وسادة بجانب والدها . وكان عبدالله يسارق اللحظ اليها فلا يزداد الاَّ اعجابًا . ولم تمض تلك الليلة حتى علق بها ووقعت من نفسهِ موقعًا ساميًا لما آنسهُ من جمالها مع ما بدا لهُ من ذكائها وتعقلها في اثناء الحديث مما يندر مثالهُ في امثالها من ربات الخدور. فخرج بعد العشاء وقلبهُ منشغل بخولة وقد ندم لتاجيل الاقتران

قضى عبدالله في مثل ذلك بقية الاسبوع وهو يتردد على بيت خولة ويزداد تعلقًا بها . ولم يصدق ان آن يوم الزفاف . فدعاه عمرٌو اليهِ وقال « اريد ان اعقد لك عليها في داري وتقيمان عندنا حتى يتراءى لكما مفارقتنا » فعل عمرو ذلك التماسًا لما عزم عليهِ من استجلاب عبدالله الى جانبهِ . فسرَّ عبدالله بذلك واثنى على الامير ولما كان الوقت المعين زفت خولة الى عبدالله وكتب كتابها عليهِ على جاري العادة يومئذ

وعبدالله أكثر الناس سرورًا بهذا النصيب ولولا ما يجول في خاطره من امر سعيد وغيابه مع قلقه على حال الامام علي لعدّ نفسه من اسعد خلق الله لانه آنس في خولة ما طالما تاقت اليه نفسه في النساء من التعقل والرزانة مع الجمال والذكاء

ولما فرغوا من العرس وارفض الاجتماع ادخلوا العروسين الى غرفة خاصة بهما

الفصل الثامن والثمانون

كشف النقاب

فلما خلا عبد الله بخولة تقدم لنزع الغطاء عن وجهها فامسك النقاب ورفعه فاذا بها قد اعادته الى ما كان عليه فظنها تداعبه على سبيل المزاح فضحك وقال لها « يظهر انك لا تحبين عبدالله »

قالت وهي مطرقة « يعلم الله اني لا أكرهه »

فمد يده الى النقاب ثانية وحاول رفعه فمنعته . فاشتبه في امرها فامسك يدها وقال لها بلهجة الجد ونغمة المحب العاتب « ما بال خولة تمنعنا ما احله لنا الشرع ودعانا اليه القلب »

وكانت خولة واقفة بجانب الفراش فابتعدت عنه واسندت ظهرها الى الحائط وهي تبالغ في ارسال النقاب وظلت مطرقة ولم تبد جوابًا .

فاستغرب عبدالله سكوتها وتمنعها على هذه الصورة وظن في الامر خديعة فاظهر الجد وتبعها وهو لا يزال قابضًا على يدها حتى وقف بجانبها وقال لها « ما الذي اراه يا خولة ؟ ما الذي تحدثك به نفسك ؟ ان كنت انما تفعلين ذلك لمجرد الحياء فهو غلوّ لا محل له وقد عُقد كتابنا بحضور امير مصر ونخبة الاعيان والامراء . وان كنت رضيت بي مكرهة وانت تحبين سواي قولي »

فلما قال ذلك رفعت راسها اليه وجذبت يدها من يده بلطف وقالت « نعم اني احب سواك ولكنني قلت لك اني لا اكرهك بل احبك محبة الاخ لا محبة الزوج »

فبغت عبدالله وعلته الدهشة وكاد الغضب يغلب عليه لو لم يصبر نفسه ربثما ،

ينكشف له سبب تمنعها . فنظر اليها نظر الغاضب وقال « لقد رايت منك العجب واعجب ما اراه احتقارك اياي بما لم اكن اتوقعهُ منك بعد ان كتب الكتاب . هلاَّ كشفت لي عن سبب ذلك ؟ »

قالت وقد امسكت النقاب وازاحتهُ عن وجهها « اني لا اعتبر هذا الحجاب واجبًا بيني و بينك ولا انا خائفة من اطلاعك على ما في ضميري ولكني اسالك سؤالاً اذا اجبتني عليهِ بحثتُ الك بسر الامر »

فمال بكليتهِ اليها وقد اعجبتهُ جسارتها وحريتها ولم يزده كشف النقاب الا احترامًا لها فقال « اسأَلي فاني مجيبك »

قالت « كيف رضيت بعقد قرانك وابن عمك غائب »

فقال « واي ابن عم تعنين »

قالت « اعني ابن عمك سعيدًا الذي جئت معهُ الى الفسطاط ألا يهمك ان تعرف ما آلت اليهِ حالهُ »

الفصل التاسع والثمانون

﴿ استطلاع السر ﴾

فاستغرب ذلك منها ولم يكن يعلم اطلاعها على شيء من ذلك فقال « من ابن لك ان تعرفي ابن عمي وما جئت من اجلهِ الفسطاط »

فتنهدت وقالت « عرفتهُ بقدر من الله واني اعجب من سيادتك تلك المهمة التي جئنا من اجلها . هل تظن الامام عليًّا نجا من القتل ؟ »

فازداد عبدالله استغرابًا ونسي ما كان يعد بهِ نفسهُ من قربها وهاجت بهِ الشجاعة وتذكر ابن عمهِ فقال « لقد اذهلتني يا خولة بما سمعتهُ منك فافصحي عما في ضميرك واخبريني كيف عرفت ابن عمي وما العلاقة بينهُ و بين تمنعك الليلة »

قالت « اتعدني بالكتمان وحفظ الذمام »

قال « نعم اعدك وعدًا صادقًا فافصحي ان لم يبق لي صبر على هذه الرموز »

فنهدت وعلت وجهها حمرة الخجل وهمّت بالكلام فارتج عليها وعبد الله يتأمل ملامحها ويراقب ما يبدو منها وظل صامتاً فلم يسمع منها شيئاً . فقال لها بالله « لا تطيلي السكوت فقد نفد صبري قولي ما بدا لك فرجي كربتي »

قالت « اقول ولا اخشى لوماً اني احببت سعيداً قبل ان اراك وهو احبني على ما اظن وحبنا مؤسس على اشتراكنا في الاستهلاك بسبيل الامام علي . وقد سار سعيد غد الليلة التي اغرق بها عمرو اصحاب عين شمس وهو يظنك في جملة الغرقى . ولا اظنه اذا عرف بقاءك حياً الاّ طائراً من الفرح » وقصت عليه حديثها مع سعيد من اوله الى آخره

ولم تكد خولة تتم حديثها حتى استولت الدهشة على عبدالله وخيل له انه في منام ولما تحقق ان خولة تحب سعيداً وقد آنس منها ذلك الثبات في حبه احس لساعته انه لم يبق له حق في زواجها وازدادت هي رفعة في عينيه فقال لها « اعلمي يا خولة اني من هذه الساعة اعدك اختاً لي واني مساعد لك على اقترابك من سعيد فانه بمنزلة اخي . وقد أُوصيت بكفالته وصية مقدسة ولقد احسنت بواسطته لي من حقيقة حالك وعليه فاني مسافر في الغد الى الكوفة لابحث عنه واستطلع ما تمّ للامام علي مع ذلك الغادر

الفصل التسعون

﴿ الوفاق التام ﴾

فابتدرته خولة قائلة « لا تعجل يا عبد الله ان ذهابك ذاهب عبثاً لاننا لا نلبث بعد قليل ان نسمع الخبر من عبدي بلال الذي رافق سعيداً الى الكوفة فقد اوصيته بالعودة حالاً واظنه يصل الينا بعد ايام ونرى ما يكون . واما الآن فاكتم ما دار بيننا واجعل انك زوجي ريثما نرى ما يكون »

فالتفت عبد الله اليها وقد ازداد اعجاباً بحديثها وثبات جاشها وقال « اني اهنئ اخي سعيداً بهذا النصيب وارجو ان يكون قد نجا من مكائد اولاد الحرام » أراد

بذلك قطاماً فانهُ ما زال يسيء الظن بها وقد ادرك انها هي التي وشت بهما الى عمرو بن العاص

فقالت « اني اتوقع رجوع بلال لأسمع منهُ ما آلت اليهِ حال الامام علي ومعاوية هل نجا احد منهما . اما عمرو فقد نجا واالضل في ذلك راجع اليك .. »

فقال « ولكنك تعلمين اني انما بحتُ بذلك لعمرو التماساً للبقاء ولم اذكر لهُ المؤامرة على قتل معاوية لئلاَّ يبعث اليهِ من يحذره فينجو »

قالت « اني لم المك قط ولكن هذه ارادة المولى . فالآن لا بد من التربص فامض الى فراشك واني متوسدة هذا البساط »

قال « لا والله انكِ لاتبيتين الاَّ على الفراش وانا اولى بهذا البساط »

وباتوا تلك الليلة وقد سرَّت خولة بنجاتها مما كانت تخافهُ . واما عبدالله فانهُ بات معجباً بخولة كل الاعجاب وقد اسف لخروجها من قبضتهِ بعد ان عرف فيها هذه الخصال . ولكنهُ لم يأسف لانها ستكون نصيب اخيهِ . وقضيا تلك الليلة بامثال هذه الهواجس ولم يناما الاَّ قليلاً

واصبحا في اليوم التالي والناس لا يعلمون الاَّ انهما زوج وزوجة وظلاَّ مقيمين في دار الامير حتى قدَّرت خولة دنو الوقت الذي كانت تتوقع رجوع بلال فيهِ فالتمست المضي الى بيت والدها مخافة ان يأتي بلال في اثناء غيابها فيطرده والدها او يتهددهُ ولا يراها هناك فيعود من حيث اتى

فوافقها عبدالله واستأذنا عمراً في الذهاب الى هناك فاذن لهما فاستقبلهما والدها بالترحاب

الفصل الحادي والتسعون

﴿ قدوم بلال ﴾

ولم يمضِ يومان على مكثهما في بيت خولة حتى قدم بلال وكان وصوله الفسطاط في اثناء النهار ووالد خولة في حانوتهِ . ودخل بلال الفسطاط متنكراً فمرَّ بحانوت

سيده ونظر اليهِ خلسة فاذا هو هناك فهرول الى البيت ودخل توًّا الى غرفة سيدتهِ بلا استئذان فوجد عندها شابًا لا يعرفهُ ورآها بجانبهِ كانها جالسة الى شقيق او قرين. فبغت لذلك ولكنهُ اشتغل بما آنسهُ من ترحابها بهِ. فقالت لهُ «اغلق الباب وادخل» ففعل ودنا منها وهو ينظر الى عبدالله شذرًا. فادركت خولة ما يجول في خاطرهِ فقالت لهُ «لا تسيء الظن ان هذا اخي بعهد الله فاقصص علينا خبرك سريعًا وقل لنا اول كل شيء كيف فارقت الامام عليًّا»

فسكت ولم يجب

فالحت عليهِ وقد علتها البغتة

فاجابها بصوت مختنق «ان عليًّا قد ذهب ضحية ذلك الخائن»

فصفقت خولة كفًّا بكف وصاحت «والهفي عليك يا ابا الحسن» وقال عبدالله مثل ذلك ثم قالت «وماذا جرى لابن ملجم» قال «انهُ قتل شر قتلة لعنهُ الله»

فقال عبدالله «وكيف فارقت سعيدًا»

قال «فارقتهُ بخير وعافية وقد سار للبحث عن تلك الخائنة اللعينة»

قال «عبدالله او تعني قطامًا»

قال «نعم وما ادراك اني اعنيها وكيف عرفتها يا مولاي»

قالت خولة «الم تعلم من هو هذا الشهم»

قال «كلاَّ»

قال «الم يذكر سعيد امامك انهُ فقد ابن عمهِ هنا»

قال «بلى»

قالت «هذا هو ابن عمهِ عبدالله»

فبهت بلال وغلب عليهِ البكاء من الفرح وصاح «انت حي يا مولاي... آه من لي بمن يحمل هذه البشرى لابن عمك. والله اني حاملها اليهِ الساعة بعد ان اسرَّ الى سيدتي كلامًا أُوتمنت عليهِ»



الفصل الثاني والتسعون

﴿ ابلاغ الرسالة ﴾

فالتفتت اليهِ وقالت « قل يا بلال ليس على عبدالله سرٌّ وهو اخي كما قلت لك قل كيف فارقت سعيداً »

قال « فارقتهُ يا مولاتي وهو مشتاق لرؤيتك ولم يأت معي مخافة ان يكون اميرنا نجا من المكيدة فلا يامن منهُ على حياتهِ . وقد علمت وانا مارٌّ في الفسطاط الساعة انهُ نجا وقتل غيره خطاء ولا ادري كيف حال سيدي والدك معك فلا آمن عليكما منهُ »

قالت « اعلم يا بلال ان عمرًا نقم على ابن ملجم ورضي عني وهو يحبني حبهُ لاولاده اما سعيد فلا هو يعرفهُ ولا والدي رآه فاذا جاء لم يكن عليهِ بأس وشانهُ في الفسطاط شأن كل غريب يدخلها . فاقصص علينا خبر ابن ملجم والامام علي وكيف قتلا »

وامرتهُ بالجلوس فجلس متادبًا وقص عليهما الخبر بتفاصيلهِ . فلما بلغ الى حديث قطام وما ارادتهُ من قتل سعيد هاجت في نفسها حاسة الغيرة والانتقام وقالت « قبح الله هذه المرأة اني اعرفها واسمع بدهائها فكيف انطلت حيلتها على سعيد »

فابتدرها عبدالله « اني والله توسمت فيها الشر منذ رأيتها » وقص عليها ما كان من امره معها . فانكشفت لهم الحقيقة وشكرا الله على نجاة سعيد ولكنهما أسفا على مقتل الامام علي ثم استدركيت في حديثها فقالت « وهل سمعت شيئًا عن معاوية ومقتلهِ »

قال لقد مررت بدمشق في طريقي فعلمت انهُ نجا ايضًا . وقص عليها خبره كما سمعهُ فعجبت لمجاري القضاء كيف سمحت بقتل الامام علي وبقاء معاوية وعمرو

فقال عبدالله « وابن سعيد الآن »

قال « هو في انتظاري بدمشق فاذا امرتْ مولاتي عدت اليهِ حالاً وجئت بهِ على عجل وارجو ان يكون قد ظفر بتلك الخائنة وانتقم منها واذا لم يظفر هو بها لستُ تاركها حتى انتقم منها فقد هاجت دمي بما ارتكبتهُ من الخيانة »

قالت خولة « بورك فيك يا بلال فعليك الآن ان تستقدم سعيدًا على عجل »

فقال « وهل آتي بهِ الى هذا البيت »

فاستصوبت خولة سؤاله لان مجيئهُ الى بيت والدها قد يوجب العراقيل . فنظرت الى عبد الله كأنها تستفتيهِ في الامر فاشار اليها انهُ يريد البحث في ذلك سرًّا

فالتفتت الى بلال وقالت لهُ « اخرج الآن قبل ان يأتي والدي وهو ناقم عليك لاعتقاده انك فررت بالجمايين من داره وانتظر عبد الله في المسجد الليلة وهو ينبئك بما تفعلهُ »

الفصل الثالث والتسعون

﴿ العزم على الكوفة ﴾

فخرج وبقي عبدالله وخولة على انفراد فقالت خولة « وما العمل ياعبدالله اخاف اذا جاء سعيد واردنا فسخ عقدنا ان ينفتح علينا باب للاخذ والرد ونحن نود كتمان الامر فما الرأي »

قال « ارى ان نلتمس من عمرو الخروج من الفسطاط والذهاب الى الكوفة فقد كنتُ التمست منهُ السفر فاخرني الى ما بعد كتابة الكتاب . فهم لا يعرفون الآن الاَّ انك امرأتي والرجل يذهب بامرأتهِ الى حيث شاء . فاذا سرنا الى الكوفة واوصينا بلالاً ان يوافينا بعبدالله الى هناك تنازلتُ لهُ عنك وعقدت لهُ عليك ولا رقيب علينا ولا واش . واذا طاب لنا العود الى الفسطاط عدنا بعد ذلك والا فاننا نمكث في الكوفة الى ماشاء الله

فصمتت خولة برهة وهي تفكر في الامر فرأت رأي عبدالله مصيبًا فقالت « نعم الرأي رأيك ولكنني تعودت الفسطاط والفت الاقامة في وادي النيل ولي فيهِ الاهل والاصدقاء فاذا اتيح لي البقاء فيهِ كان ذلك افضل لي وابقى »

قال « لا انكر عليك ذلك وهو ميسور لك فيما بعد واما الآن فلا ارى خيرًا من الذهاب الى الكوفة »

قالت « واخشى مع ذلك ان لا يأذن والدي بذهابنا الى هناك اذ هو عالق بي وليس لهُ سواي فلا اخالهُ الا ملحًّا علينا بالاقامة هنا »

قال « اننا نطاوله ونماطله حتى يأذن بانصرافنا ولو بعد حين ونوصي بلالاً ان يخبر عبدالله بالتربص في الكوفة ريثما نانيه ولو ابطأنا »

قالت « افعل ما بدالك والله الموفق في كل حال »

قال « فلنعد الآن الى دار الامير ومتى كنا عنده كان خروجنا من الفسطاط سهلاً لانه هو الذي وعدني باخلاء سبيلي للبحث عن ابن عمي سعيد فاذكره بوعده ولا اظنه الا مؤذنًا بانصرافي معك »

قالت « ولكننا نبيت الليلة هنا ونصبح الى دار الامير »

قال حسنًا . ولما كان العصر خرج الى المسجد فوجد بلالاً في انتظاره فاوصاه ان يذهب بسعيد الى الكوفة و يتربص به هناك حتى ياتيا اليهما

فانبسط وجه بلال وابتسم ثم قال « ان هذا ما كنت ارجوه من مولاي لانني اذا كنت في الكوفة توفقت الى الانتقام من قطام اللعينة »

فضحك عبدالله وقال « واوصيك اذا انت ظفرت بها ان لا تعفو عن عجوزها لبابة فانها قهرمانة شريرة »

قال « لا توص حريصًا » ثم ودعه وانصرف

الفصل الرابع والتسعون

دعوة غريبة

اما عبدالله فلما رأى نفسه بباب المسجد والصلاة قائمة والناس يدخلون افواجًا دخل في جملة الداخلين فرأى عمرًا على المنبر يعظ الناس وهم صامتون فوقف حتى فرغ عمرو من خطابه وانقضت الصلاة فتحول للخروج . ولم يكد يتحول من صحن المسجد حتى اعترضه بعض الشرطة قائلاً « تمهل يا مولاي ان الامير يستوقفك لامرٍ يريد ان يخاطبك بشأنه »

قال « واين هو الامير »

قال « كان في المسجد كما رأيته وقد تحوّل الآن الى داره من باب في المحراب »

قال « وهل هو يريد مقابلتي الآن »

قال نعم

فانشغل بال عبدالله لذلك الطلب وخاف ان يكون مبنياً على مخاطبته بلالاً اذ ربما كان احدعارفاً بهيئته او غير ذلك . ولكنهُ مشى حتى اقبل على مجلس عمرو وكان اذا وصل المجلس دخل بلا استئذان . فلما همَّ بالدخول اعترضهُ الحاجب قائلاً « تمهل ريثما نستاذن لك » فوقف عبدالله ودخل الحاجب ثم عاد فاستفهم عن الجواب فقال ان الامير يريد الخلوة بك على انفراد هذه الليلة فاذا اتيت في العشاء تعالَ وحدك »

فاستغرب عبدالله ذلك الشرط واشكل عليهِ المراد منهُ فاستزاد الحاجب ايضاحاً هل المرادان ياتي وحدهُ بمعنى ان لا تكون خولة معهُ

قال « اظن هذا هو مرادهفانهُ قال ليأت وحده لكلام ٍ سالقيهِ اليهِ على انفراد »

فعظم الامر على عبدالله وحسب لذلك الف حساب . ولم تكن الشمس قد مالت الى الغروب فعاد الى البيت والهواجس تتقاذفهُ وظهرت عليهِ امارات الانقباض فلما اقبل على خولة ورأت على وجهه آيات الاضطراب ابتدرتهُ قائلة « ما بالك ياعبدالله ما الذي غير وجهك اني اراك متغيرًا وارى في وجهك انقباضاً قل رعاك الله ما اوجب ذلك »

قال وهو يحاول التجاهل « ليس فيَّ شيءٌ مما تقولينهُ لكن يظهر لي اني تعبت من سماع العظة في المسجد ومللت من مسافة الطريق وليس ذلك من الانقباض في شيء وكيف ينقبض عشيرك وانت مصدر السعادة وينبوع الهناء »

فلم تقتنع بقولهِ ولكنها سكتت على ان تستطلع السر بعد قليل بلياقة . وغيرت الموضوع فقالت « وهل رأيت بلالاً »

قال « نعم وقد اوصيتهُ بما يقولهُ لسعيد »

« قالت وهل سافر »

قال « اظنهُ يستريح الليلة خارج الفسطاط ويقلع في الغد باكرًا »

وفيما هما يتحادثان جاء والدها فدخلوا جميعًا وعلى وجه والدها ظواهر الغضب وكانت خولة تعرف غضبهُ بمجرد النظر الى وجهه . فلما رأتهُ كذلك زاد اضطرابها

وجعلت تفكر في سبب غضب الاثنين . فخطر لها انهما تخاصما ولكنها لم تكن تجد سبباً لذلك . ولم تجسر على سؤال والدها ولا ارادت الالحاح على عبد الله في الاستفهام فتركت ذلك الى ساعة الاختلاء به

وبعد قليل مدت المائدة فجلسوا اليها وليس فيهم من يتكلم كلمة الا ما تدعو اليه الحال من طلب شيء او الاستفهام عن شيء يتعلق بالطعام ونحوه

الفصل الخامس والتسعون

۞ غرفة عمرو ۞

وكان عبدالله لما جلس الى المائدة لم يغير ثيابهُ كالعادة فلما نهضوا عن العشاء اخبر خولة ووالدها انهُ منصرف في حاجة تقتضي غيابهُ ساعة . وكأن طلبهُ هذا جاء طبق ما يرجوه ابو خولة فلم يسالهُ عن سبب ذهابهِ ولا استدعى سرعة رجوعهِ

فازدادت خولة حيرة وظلت ساكتة ولم يخطر لها ان لذهاب عبدالله علاقة بما بدا لها في وجههِ من الانقباض . ولكنها رافقتهُ الى باب الدار وتوسلت اليهِ ان لا يطيل الغياب . فاجابها انهُ لا يدري ساعة رجوعهِ لانهُ لا يعلم ما يكون من دواعي تأخره ولم يشأْ ان يبوح لها بسبب ذهابهِ ولا ترك لها فرصة للاستفهام فودعها وخرج وهو يسرع في مشيتهِ وافكاره تائهة في ما عساه ان يكون غرض عمرو من دعوتهِ على هذه الصورة

ولما وصل دار عمرو خفق قلبهُ مخافة ان يسمع من الحاجب خبراً جديداً يزيد بلباله فلم يكلمهُ الحاجب الا بقولهِ ان الامير ينتظرك في غرفتهِ الخصوصية

فمشى عبدالله الى تلك الغرفة وهو يقدم قدماً ويؤخر اخرى حتى وصل الى الباب فاذا هو مغلق فقرعه ووقف ينتظر فتحهُ ثم فسمع خطوات تسرع نحو الباب يتخللها همس لم يفهم منهُ شيئاً . وبعد هنيهة فتح الباب فاذا بعمرو نفسهُ يتنحى بيده فبغت لما رآه امام عينيهِ وعلى وجههِ دلائل الغضب . فحياه عبدالله فلم يزد عمرو على قولهِ « وعليك السلام » وسار الى صدر الغرفة فتبعهُ عبدالله وهو ينظر الى جوانب المكان

لعله يرى فيها احدًا . فلم يجد فالتبس عليهِ الامر لما سمعهُ من الهمس وهو واقف خارجًا . ولكنهُ رأى في بعض جدران الغرفة بابًا عليهِ ستار وهو يعلم ان ذلك الباب يستطرق الى غرفة اخرى فظن بعض نسائهِ كانت عنده فلما علم بقدومهِ صرفها من الباب الآخر واستقبلهُ

وكان عبدالله يفكر في ذلك وهو ماش في اثرا عمرو حتى جلس عمرو على مقعده فوقف عبدالله بين يديهِ ينتظر امره بالجلوس فاشار اليهِ فجلس على وسادة بالقرب منهُ وهو ينتظر ما يقولهُ وقد نفد صبره

الفصل السادس والتسعون

﴿ الاستنطاق ﴾

فصبر عمرو لحظة وفي يده درة (سوط) يلاعبها بين يديهِ كانهُ يتشاغل بها عن قلق يخامر ذهنهُ ففتح عبدالله الحديث قائلا « كيف حال مولاي الامير وما الذي يامر بهِ عبده فقد لبيتُ دعوتهُ وانا راج ان يكلفني امرًا اقضيه لهُ جزاء لبعض ما لهُ عليَّ من الفضل »

فالتفت اليهِ عمرو وهو يمشط لحيتهُ باناملهِ وقال « انما دعوتك لاسألك سؤالاً واحدا وارجو ان تصدقني في الجواب عليه بما احسبني اجزلتهُ لك من الجميل وأبقيتُ عليك بعد ان رأيتَ الموت رأي العين »

فوقف عبدالله احترامًا وقال « يعلم الله اني لا انسى جميلاً اوليتني اياه باغضائك عن جريمة اقترفتها تم بانعامك عليَّ بحياتي وهي خير هبة فكيف لا اصدقك القول » قال ذلك وقلبهُ يخفق خوفًا من سماع ما قد يكون سبب نقمتهِ عليهِ

واقعده عمرو وقال « بلغني اليوم من مطّلع على احوالك انك انما جئت الفسطاط مع رفيقك سعيد للفتك بي فهل ذلك صحيح ؟ »

فنهض عبدالله ثانية وقال ولهجة الصدق بادية على وجههِ « كلاَّ يا مولاي ان ما بلغك من ذلك محض افتراء »

قال « وما الذي جاء بكما اذًا »

قال « اما وقد سألتني عن ذلك فاسمح لي ان اقول الحق وارجو تثق بصدق قولي »

قال « قل الصدق ولا تبال فلا بأس عليك الاَّ اذا رأيت في كلامك عوجا فلا تلم الا نفسك »

قال « اقسم برأس الامير اني لا اقول غير الصدق ولكن حديثي طويل فهل اسطهُ كلهُ »

قال « اجبني اولاً على سوالي مختصرًا فاذا رأيت مايدعو الى التفصيل طلبتهُ . سألتك عما دعاكما الى المجيء للفسطاط والاجتماع بتلك الزمرة المعادية »

قال « انما جئت للبحث عن المؤامر على قتل الامام علي »

قال « ولماذا »

قال « لكي ابذل جهدي في زجره وانقاذ الامام من الموت »

قال « كيف تفعل ذلك وانت اموي على ما اعلم »

قال « لقد الجأتني يامولاي الى بعض التفصيل الا تعرف جدي ابا رحاب »

قال « بلى اعرفهُ وقد سمعت بوفاتهِ قريبًا »

قال « نعم انهُ مات وقد كان الى يوم مماتهِ يكره عليًّا ويدعو الى قتلهِ ولكنهُ في يوم مماتهِ استحلفني واستحلف ابن عمي سعيدًا ان لا نبغي شرًّا لعليٍّ بل اذا رأينا سبيلاً الى الدفاع عنهُ ان نفعل . فلما سمعنا بالمؤامرة علمنا ان المؤامر على قتل علي من اهل مصر ولكنا لم نعلم من هو فجئنا للبحث عنهُ وردعهِ بالتي هي احسن . ولم نرَ سبيلاً لمعرفتهِ الاَّ بواسطة اصحاب عين شمس لانهم على دعوة علي »

فقال « ألم تكن عالمًا ايضًا بمؤامرة رفيق ابن ملجم على قتلي » .

قال « بلى ولولا ذلك لم استطع اطلاعك عليهِ »

قال « وكيف انك لم تطلعني عليهِ حال قدومك ألا تعلم انك تعد بذلك مؤامرًا على قتلي ؟ » قال ذلك ولحيتهُ ترقص من شدة التأثر ولسان حالهِ يقول لقد حججتك وغلبتك واكدت خيانتك

فقال « نعم اعلم ذلك ولكن حلمك قد وسعني من قبل وعفوتَ عما مضى وغمرتني بانعامك فاذا رأيت ان تعود الى مطالبتي بهِ كان لك الامر ولكنني لااخال الامير عمرو بن العاص اذا عفا عن مذنب ان يرجع عن عفوهِ »

فلما سمع عمرو كلامهُ أُفحم وسكت

وشعر عبدالله عند ذلك بقوة انبثت فيهِ وثارت الحمية في رأْسهِ فهمَّ ان يستأْنف الكلام فابتدرهُ عمرو قائلاً « ولكن بلغني انك عرفت خولة قبل ان اخطبها لك وانها كانت عالمة بخبر تلك المؤَامرة فكيف لما ذكرتها لك ليلة الخطبة تجاهلتها »

فارتبك عبدالله في الجواب وكاد يعثر لو لم يثبت جاشهُ وقد عوَّل على الصدق فقال « حاشاي يامولاي ان اخدعك فاني ورأْسك وكل غالٍ عندي لم اكن اعرف هذه الفتاة قبل ان ذكرتها لي وامرت بان تكون زوجتي »

فقال « وما تقول في سابق اطلاعها على خبر المؤَامرة »

فتحير عبدالله في الجواب ولكنهُ فقه لباب يتخلص منهُ فقال « ذلك ليس لي ان اجيب عنهُ فان خولة جارية لك وهي تجيب عن نفسها . ادعها الى ما بين يديك واسأَلها ولا اشك في انها تقول الصدق ولكنني ارغب الى مولاي ان يخبرني عمن وشى بنا اليهِ لعلنا نكذبهُ بين يديهِ »

قال « ساجمعكم جميعًا واسمع احتجاجكم جهارًا فاذا سمعت اقوالكم جازيت كلاًّ بما يستحقهُ . اذهب الآن الى فراشك عندنا وعدًا لناظرهِ قريب » قال ذلك ونظر نحو الباب ونادى « ياغلام » فدخل رجل فقال لهُ خذ عبدالله الى غرفة يبيت فيها الليلة هنا وانني بهِ غدًا متى دعوتهُ »

قال سمعًا وطاعة وخرج عبدالله والحاجب يسير امامهُ حتى دخل بهِ غرفة في دار الامير التمس المبيت فيها ولكنهُ لم يغمض لهُ جفن طول ذلك الليل

الفصل السابع والتسعون

﴿ الجلسة الخصوصية ﴾

ولما اصبح عبدالله تحير في هل يخرج الى الامير ام ينتظر امرهُ . ولبث جالسًا

حتى كان الضحى واذا بالحاجب قد جاء يدعوه الى مجلس الامير في غرفة خاصة غير مجالسهِ الاعتيادي فمشى وهو يفكر في ماذا عسى ان يكون من امر تلك الجلسة ومن هو الواشي وهل تستطيع خولة الدفاع عن نفسها بما يضمن نجاتها

ولاحت منهُ التفاتة الى ساحة الدار فرأى هناك عبدًا تذكَّر انهُ رآه ولم يلبث ان عرفهُ فاذا هو ريحان عبد قطام فاختلج قلبهُ في صدره وقال في نفسهِ انها والله وشاية هذا الخائنة واظنها ارسلت عبدها الى عمرو كما ارسلتهُ في المرة الماضية لعنها الله

وما زال ماشيًا وهو يفكر في ذلك وقد تغيرت سحنتهُ من عظم التأثر فرأى الحاجب دخل بابًا فدخل هو في اثره فاذا هو مقبل على قاعة في صدرها الامير عمرو بن العاص كانهُ جالس للقضاء وعليهِ جبة بيضاء وعلى رأسهِ عمامة كبيرة وقد قعد الاربعاء على وسادة من الدمقس وفي يده الدرة والسبحة معًا . فتقدم عبدالله توًّا اليهِ فحياه ولم يلتفت الى سواه . فامره بالجلوس ببرود ظهر الفرق بينهُ وبين مقابلاتهِ الاولى . فجلس عبدالله في بعض جوانب الغرفة وارسل نظره فرأى الى جانبهِ عمهُ ابا خولة وعن يسار عمرو ثلاث نسوة قد ارسلن النقاب على رؤوسهن فلا يظهر منهنَّ غير العيون من ثقوب فيهِ . فعرف منهنَّ خولة ولم يكن يجسر على التفرس بالاخريين حياء . فجلس وهو يسترق اللحظ ويفكر فخطر لهُ ان احداهن قطام جاءت هذه المرة لقضاء حيلتها بنفسها . ثم ما لبث ان عرف الاخرى فاذا هي لبابة العجوز فتحقق انها وشاية بهِ وبسعيد . وكانت قطام قد ابطلت الحداد على والدها واخيها بعد قتل الامام علي فارتدت كساء من الحرير المزركش بالقصب صنع بلاد فارس احمر اللون ناصعهُ لا يستطيع لبسهُ الا الاغنياء وكان نقابها مزركش الاهداب بما يدل على بذخ وترف . وتصور عبدالله جمالها وفصاحتها وحيلتها فعلم انها غلبت على رأي عمرو واقنعتهُ ان عبدالله وخولة يستوجبان القتل او نحوهُ فاخذ يتأهب للجواب

ومضت برهة والكل صامتون وعمرو ينظر الى الارض والدرة في يد كانهُ ينكت البساط بها ويده الاخرى على لحيتهِ يلاعب شعرات منها بين انامله والاهتمام بادٍ بين حاجبيهِ . ثم رفع بصره ونظر الى الباب ونادى غلامهُ فدخل فقال لهُ « لا تستأذن لاحد بالدخول علينا ولا تدع احدًا يقترب من هذا الباب »

قال سمعاً وطاعة وخرج

ثم التفت عمرو الى ابي خولة وقال « اهذا جزاء التفاتي اليك يا ابا خولة »

فوقف ابو خولة وقد بُغت وقال « وما ذلك يامولاي . اني لا اعرفني الا مخلصاً لك خادماً لمقاصدك »

قال « ربما كنت كذلك ولكن خولة هذه (واشار اليها) تواطئ الناس على قتلي وتسعى في انقاذ ابن ابي طالب »

فلما سمع ابو خولة قولهُ مشى مسرعاً حتى امسك ابنتهُ وقال « اني لا اعرفها الاَّ جارية من جواري مولاي فاذا ارتكبت شيئاً من ذلك فاني اذبحها بين يديك ودمها هدر لك » قال ذلك وجذبها كانهُ يريد ايقافها ونقديها الى عمرو . اما هي فظلت جالسة ولم تبالِ

فقال لهُ عمرو « عد الى مكانك ودعها تدافع عن نفسها فاني لا اريد ان اعاقبها الاَّ بعد المحاكمة فاذا صح ما قيل عنها كان القتل اخفَّ قصاص لها »

فلما سمع عبدالله تلك اللهجة الشديدة اختلج قلبهُ في صدره وخاف عاقبة تلك الجلسة ولكنهُ تجلد وصبر

الفصل الثامن والتسعون

دعوى قطام

ثم التفت عمرو الى خولة وقال « ما تقولين يا خولة »

فوقفت وقالت بصوت رائق وجاش ثابت « ماذا اقول يا سيدي وانا لا اعرف التهمة التي وشى بها اليك الواشون . فاذا سمعتها ذكرت لك الحقيقة ولك الامر بعد ذلك فاذا استوجبت القتل فما انا خير ممن قتل من رجال الاسلام في هذه الفتنة ! ! »

فعجب عمرو لتلميحها الى اعظم ما حدث في تلك الاثناء . فقال لها « مالك ولهذا الكلام ياخولة قولي ما جوابك على سؤَالي »

قالت « اذا كان الامير حرسهُ الله قد جعل دمي حلالاً إن ثبتت التهمة عليَّ فليس اقلّ من ان اسمع نص الدعوى الموجهة اليَّ »

قال « لقد صدقتِ واني مطاوعك في جرأتك حتى تبدي كل ما لديك من اساليب الدفاع ولا اظنك اخيرًا الاَّ مقرة بجنايتك لانها ثابتة ثبوت النور في النهار اجلسي استريحي »

فجلست

فقال عمرو ووجَّه حديثهُ الى قطام « ما قولك ياقطام بخولة وما تعرفينهُ عنها »

وكانت قطام كما بينَّا في فصل سابق لما ارتاح بالها من امر علي وقتلهِ وعلمت ما دار بين خادمها وبين بلال خادم خولة انها تحب سعيدًا وهي التي وجهت عبدها معهُ واستحثتهُ في الوصول الى علي قبل انقضاء الاجل المضروب لقتلهِ . فحملتها الغيرة وهاجها حب الانتقام وطاوعها خلق السوء الذي فطرت عليهِ ان تأتي الفسطاط تشي بخولة وسعيد وهي لا تشك انها تثبت الجناية عليهما فتتقرب بذلك من عمرو فتنال حظوة في عينيهِ فتقيم عنده مكرمة او يتزوجها احد ابنائهِ وكان عمرو يعرفها من ذي قبل . فاسرعت الى الفسطاط ومعها عجوزها وعبدها فوصلت بالامس واسرعت الى عمرو وبشرتهُ بقتل الامام علي ووشت اليهِ بخولة وانها كانت مواطئة لسعيد على انقاذ الامام علي وانهما كانا يعلمان خبر المؤامرة على عمرو وسكتا عنها وقد كان في امكانهما لو اخلصا الخدمة لعمرو ان يطلعاهُ عليها فاعارها عمرو اذنًا مصغية وبعث الى عبدالله كما تقدم . ثم رأى من الحزم ان يجمع الجميع ويسمع جدالهم ومدافعتهم قبل ابداء الحكم

فلما قالت خولة قولها في تلك الجلسة والتمس عمرو من قطام ان تبسط التهمة نهضت ومشت خطوتين نحو الامير وثوبها المزركش يجرُّ وراءها تيهًا وبذخًا . ثم وقفت وقالت بلسان طلق فصيح « اما ما يسألني الامير عنهُ فلا احتاج في اثباتهِ الى دليل . وتفصيل الامر ان مولاي الامير يعلم اخلاصي لهُ ورغبتي في خدمتهِ حتى انني حالما سمعت بمجتمع العلويين في عين شمس بعثت اليهِ رسولاً يخبره خبر ذلك الاجتماع . ولو لم اجد من ابعثهُ في تلك المهمة لجئت بنفسي . ولم اذكر هذا الشاهد الصغير الاَّ دليلاً على اخلاصي . اما خولة واطلاعها على خبر المؤامرة فأمرٌ لاشك

فيهِ لاني اعلم علم اليقين ان سعيداً ورفيقهُ هذا (واشارت الى عبدالله) لما قدما الفسطاط كانا عالمين بخبر تلك المؤامرة وقد سمعت ذلك منهما باذني . وهما انما اتيا للاجتماع مع العلويين وبعثتُ يومئذ عبدي بخبر ذلك الى مولاي الامير فلما عاد عبدي اخبرني ان جند الامير قبضوا على العلويين وان عبدالله وسعيداً في جملتهم ولم يكن يعلم ان سعيداً نجا بمساعدة خولة هذه . اما انا واني عرفت ذلك لما عاد سعيد الى الكوفة مسرعاً لاطلاع علي بن ابي طالب على خبر المؤامرة غيرة منهُ عليهِ وقد ترك حياة الامير عمرو بن العاص في خطر القتل . وكان رفيقهُ في عودتهِ بلال خادم خولة هذه فانهُ صحبهُ الى الكوفة . فالتقى بهما هناك عبدي ريحان وانصح لهُ من خلال الحديث ان بلال وخولة عالمين بسر الامر . ولما لم ينجح مسعاهما في انقاذ الامام علي قنعا بان يكون مولاي حرسهُ الله قد اصيب بما اصيب بهِ ذاك . ولكن الله سبحانهُ وتعالى انقذه من مخالب الموت وحرسهُ بعين عنايتهِ . فترى يا مولاي مما قدمتهُ ان خولة كانت عالمة بخبر المؤامرة كما كان يعرفها عبدالله وسعيد فلو كانت مخلصة لمولانا الامير ما كتمتها عنهُ »

فقال عمرو « وما الذي يؤكد لنا ان سعيداً وعبدالله لما اتيا الفسطاط كانا عالمين بالمؤامرة على قتلي

وكانت لبابة العجوز صامتة الى تلك الساعة فلما طرح عمرو هذا السؤال ابتدرتهُ هي قائلة « لاشك انهما كانا عالمين بها لانهما اخبرانا بها ليلة سفرهما الى الفسطاط »

الفصل التاسع والتسعون

دفاع خولة

وكانت قطام تتكلم وخولة مطرقة تفكر بماذا تجيب . أما عبدالله فانهُ لعن الساعة التي اتت بها تلك الخائنة وخاف على خولة ان تتلعثم او تفحم لان الادلة قوية اما والد خولة فلم يكد يسمع حديث قطام حتى استشاط غضباً وصاح في خولة

باعلى صوته « الله عليك يا خائنة لقد فهمت الآن تلاعبك ونفاقك » ثم التفت الى قطام وقال « واي متى لقي عبدك عبدي مع ذلك الرجل في الكوفة »

قالت « ليلة ١٧ رمضان »

فاطرق برهة ثم اقترب من خولة وجذبها بيدها الى وسط القاعة وقال لها بنغمة الانتهار « لقد انكشف لي القناع وعلمت سبب فرار بلال كما تزعمين . ارسلته مع حبيبك ليساعده على انقاذ ابي تراب (علي بن ابي طالب) وقالت لي انهُ فرّ بالجملين والظاهر انهُ اخذها معهُ ليركب هو ورفيقهُ عليهما » ثم التفت الى عمرو وقال « ان ابنتي يا سيدي تستحق القتل اقتلها او دعني اقتلها بين يديك »

فوقف عبدالله للحال وقد ثارت فيهِ الغيرة على خولة وهو يظن سكوتها خوفًا او ارتباكًا لانهُ لم يرَ ملامحها من وراء النقاب فامسك اباها بيده وقال برزانة وسكينة يخاطب عمرًا « التمس من مولاي الامير الذي امر ان تكون خولة زوجة لي ان يوقف اباها عند حده فهو الآن لا يملك من امرها شيئًا . اما اذا اقترفت هي ذنبًا تستوجب عليهِ قصاصًا فالامر فيهِ لمولاي وليس لاحد سواه »

وكان عمرو قد اقتنع بثبوت الجريمة على خولة ولكنهُ احب ان يسمع دفاعها ورأى عبدالله يتكلم بحق وعدل فقال لابي خولة « دع خولة فانت كما قال عبدالله لا تملك من امرها شيئًا »

فتنحى ابو خولة وهو يلهث ويدمدم ولحيتهُ ترتعش في صدره . وتنحى ايضًا عبدالله وخولة لا تزال واقفة . اما قطام فلو ازاحت خمارها لبان الابتهاج على وجهها لنجاح مهمتها

فقال عمرو « ما بالك ياخولة لا تدافعين عن نفسك . أليس ما قالتهُ قطام عنك صحيحًا ؟ هل كنت عالمة بخبر المؤامرة على قتلي »

قالت « نعم »

قال « وهل ساعدت سعيدًا على انقاذ الامام علي فارسلت معهُ خادمك وجمليك »

قالت « نعم كل ذلك صحيح »

فتعجب عمرو وسائر الحضور من صراحة اقرارها وقد كانوا يتوقعون انكارها وتلعثمها او على الاقل سكوتها . فلما رآها تجيب بهذه الصراحة قال لها « وكيف

نظهرين هذه الغيرة على صاحب الكوفة (علي) مع علمك ان والدك لا يريد ذلك ثم لا يخطر ببالك ان تخبري والدك بخبر المؤامر على قتلي لكي يطلعني عليه ٠ الا تعلمين ان عملك هذا يعدّ خيانة تستوجبين عليها القتل . وها اني لا ازال اطيل بالي عليك لأسمع دفاعك فاخبريني اولاً كيف تكونين على غير ما يريده والدك وامير بلادك . ثانيًا كيف تسعين في انقاذ علي بن ابي طالب ولا تسعين في انقاذ امير مصر »

وقبل ان تهمّ خولة بالجواب اعترضتها قطام قائلة « ارى مولاي الامير يتعب نفسهُ بما لا طائل تحتهُ . هل بعد اقرارها الصريح من باب للنجاة ؟ ولا دواء لهذه الخائنة الا القتل »

فقالت خولة وهي تنظر الى قطام شذرًا « سوف يتضح لنا من هي الخائنة وقد يجدر بك التادب في حضرة الامير فانهُ اعلم منك بقواعد الاحكام »

المائة

صدق اللهجة

ثم وجهت خولة خطابها الى عمرو قائلة « ارجو من الامير ان يطلق للساني الحرية لأقول كل ما يجول في خاطري »

قال « قولي ما بدا لك »

فالت « اما سبب مخالفتي والدي في رأيهِ وتحزبي للامام علي رحمهُ الله فهو لاني صادقة مخلصة في فكري وقولي وهو المخرف المتقلب . وما كنت لأصف والدي بهذا العيب لولم يضطرني الى ذلك »

قال عمرو « وما معنى هذا »

قالت « يعلم مولاي الامير ان والدي ربي في نعم الامام علي وانا في حجرهِ مع اعتقادنا انهُ ابن عم الرسول (صلعم) وانهُ على الحق في اعمالهِ »

فاراد والدها ان يقطع حديثها فاعترضهُ عمرو والزمهُ السكوت فقالت « فلما كانت واقعة صفين كان والدي في جملة من خالفهُ في امر التحكيم من الخوارج . فهو

الذي انحرف عنهُ . اما انا فظللت على رأيي ولا ازال عليهِ الى اليوم »

فقال عمرو وهو معجب بجسارتها « ولكن علياً شارك الجهال في قتل الخليفة عثمان فقتلوه ظلماً ونحن انما قمنا نطالب بدمهِ »

قالت « اما مقتل الخليفة عثمان فارجو من مولاي الامير ان لا يلجئني الى الخوض في شأنهِ لاني ربما اضطررت الى ما اتجنب ذكرهُ »

قال « وما الذي يخيفك بعد ما ابديتهِ من الجرأة »

قالت « يخيفني غضب الامير لامر هو داخل فيهِ »

قال « قولي كل ما يبدو لك ولا تخافي »

قالت « اما مقتل الخليفة عثمان رحمهُ الله فلا اظن مولاي عمراً الا من جملة الراضين بهِ »

فبغت عمرو وقال « وكيف تقولين ذلك يا خولة »

قالت « الم يكن مولاي في جملة المحاصرين لعثمان ؟ الم تقل لهُ قد ركبت يا عثمان اموراً ركبناها معك تب يا عثمان وارجع الى الله (١) . فاسمعك هو كلاماً جارحاً . ثم لما قال لك اني تائب قلت لهُ رأيناك تتوب ثم تعود »

قال « وهل يؤخذ من ذلك اني كنت اريد قتلهُ »

قالت « كلاَّ ولكنهُ يدل على انك كنت ناقماً عليهِ »

قال « انما كنت ناقماً ليرجع عن اعمالهِ ويبقى على خلافتهِ »

قالت « لو كان هذا هو قصدك فقط لما فرحت بقتلهِ »

فاندهل عمرو من سعة اطلاعها على خبايا الامور ولكنهُ لم يستطع الاَّ استفهامها فقال « وكيف تقولين اني فرحت وما دليلك على ذلك »

قالت « دليلي قريب اذا امَّنني الامير قلتهُ »

قال « قولي »

قالت « ألم تكن في فلسطين يوم قُتل عثمان ؟ فكنتَ اذا لقيت الراعي حرَّضتهُ على قتلهِ ؟ ألم تحرض علياً وطلحة والزبير عليهِ ؟ فلما جاءك رجل اخبرك بقتل عثمان ألم تقل انا عبد الله اذا حككتُ قرحة نكأتها ؟ » (١)

---

(١) ابن الاثير ج ٣

فلما سمع عمرو قولها استغرب جرأتها وغضب لتصريحها بامور كان يودّ كتمانها ولكنهُ سبق فامنها وكان داهية يحوّل معاني الكلام كيف شاء فقال لها « لقد اعجبني دفاعك يا خولة ولكننا لسنا في معرض الدفاع عن علي او عثمان ولا يهمنا انحرافك او انحراف والدك وانما نحن في اطلاعك على خبر المؤامرة على قتلي ثم سكونك الى آخر ساعة ووالدك بين يدي كل يوم فكانك اشتركتِ مع المؤامر » قال ذلك وهو يحسب نفسهُ قد غلبها وسدَّ عليها ابواب الدفاع . وكان اشد الناس خوفاً عليها عبدالله وقد خيّل لهُ انها لم تعد تستطيع دفاعاً بعد اقرارها السابق

اما هي فهمَت بالكلام فاذا بقطام تقول « اني لأعجب من حلم الامير وما الذي يرجوه من دفاعها عن ذنبٍ اعترفت بهِ صريحاً »

فلم تعبأ خولة بقول قطام ولكنها اجابت عمراً قائلة « اني لا انكر عليك عظم هذا الذنب بالنظر الى ما كنت ترجوه من قيامي بامر الخوارج وموافقة والدي على تأييد امركم والتصديق على دعواكم ودعوى معاوية وانكم على الحق . وقد قدَّمت لمولاي باني فعلت ذلك وانا على دعوة الامام علي فذنبي من هذا القبيل لا يُعدُّ شيئاً بالنظر الى ما تستوجبهُ هذه المرأة (واشارت الى قطام) التي انما جاءت بهذه الوشاية غيرةً عليك وضناً بحياتك فاتهمتني بالخيانة لاني على زعمها كنت عالمة بخبر المؤامرة ولم اخبرك بها . فما الذي منعها هي عن اخبارك بذلك يوم ارسلت عبدها عبد السوء للوشاية باصحاب عين شمس . فاذا كانت هذه المرأة صادقة في دعواها ألم تكن هي اولى مني باطلاع الامير على ذلك الامر ؟ اسألها وانتظر في جوابها »

الفصل الحادي والماية

فشل الظالمين

فانتبه عمرو كأنهُ كان في سكرة وصحا منها بغتةً فرأى خولة مصيبة بدعواها فالتفت الى قطام لفتة استفهام فلم يسمع منها جواباً . فقال لها « ما تقولين يا قطام لماذا لم تخبريني بخبر تلك المؤامرة »

فارتبكت في امرها ولكنها اجابت وهي مبغوتة وقالت « لاني لم اكن عارفة بخبرها يومئذ »

فتبيَّن عمرو التلاعب في كلامها ولكنهُ اراد تحقق ذلك فقال لها « ولكنك قلت الآن انك سمعت خبر المؤامرة منها فهل سمعتهِ قبل ارسال عبدك الينا او بعده »

فانخدعت قطام بسؤَالهِ فاجابت على الفور « لم اسمعهُ الاَّ بعد سفر عبدي وكنت عازمة على ارسال غيره فلم اتمكن لمشاغل خصوصية انتابتني »

فتقدم حينئذٍ عبدالله وهو يكاد يرقص فرحًا بخذلان قطام وقال « ولكن عبدك يا مليحة لم يسافر من الكوفة الاَّ بعد سفرنا لانهُ انما قدم الفسطاط ليخبر الامير بخروجنا من الكوفة »

فاشار عمرو اليهِ فسكت وعاد هو الى السؤَال فقال « وزد على ذلك ان هذه العجوز تقول انكما سمعتما ذلك الخبر منها ليلة سفرها فما تقولين بذلك »

فغلب الحنق على قطام فقالت « هذه عجوز حمقاء غلب عليها الخرف فلا يعتمد بقولها »

فغضبت لبابة لعقوق قطام واهانتها اياها على هذه الصورة وهي تعتقد فضلها عليها فقالت لها « وانا لم اقل ذلك الاَّ بعد قولك .. تباً لك من امرأة خائنة . كيف تقولين ان الخرف غلب عليَّ وانت انما غلب عليكِ النفاق »

فاشتد حنق قطام ولم تعد تعي ما تقول لفشلها وخجلها فقالت « اخرسي يا مجنونة ولا تتكلمي بين يديَّ »

فقالت لبابة « بل انت مجنونة وانت الخائنة واذا لم تلزمي حدَّك اطلعت الامير على كل سرائرك وفضحت امرك »

فقالت « وماذا عسى ان تقولي وانتِ خادمة لا يعتمد احد باقوالك »

وكانت لبابة قد تحققت وقوع قطام في شر اعمالها فارادت ان تخلّص نفسها وتنجو بحياتها فلم ترَ ذريعة اهون عليها من ايقاع قطام باباحة اسرارها بالاقرار . ولا غرابة في ذلك فان من كان مثلها ميت الضمير سيىء الخلق لا ذمام يزجرها ولا عقل يعقلها يسهل انقلابها من الشيء الى ضده فقالت « على الفور ان اسرارك كلها تحت قدمي هذه واذا اذن مولاي الامير كشفت لهُ كل شيء »

فسرت خولة وعبدالله لذلك الخصام . اما عمرو فرأى لحسن سياسته وتعقله ان خولة ممن يحرص على بقائهم وانها اذا كانت على دعوته لا يخشى انقلابها . واما قطام فانها اذا اخلصت له اليوم لا يأمن ان تخونه في الغد فقال للعجوز « قولي ياخالة ما تعرفينه »

فاخذت لبابة تتلو حديث قطام منفصلاً من اوله الى آخره والكل مصغون صامتون ففضحت اسرارها فتحقق عمرو ان ارسالها عبدها اليه لم يكن حباً به ولا نصرة لحزبه بل انتقاماً من سعيد وعبدالله . وتبين لديه ان هذين انما اندفعا للدفاع عن علي بوصية جدهما ابي رحاب واتضح له جلياً ان قطاماً خائنة لا يوثق بقولها ولا يعتمد عليها وان بقاءها في قيد الحياة شرٌّ على العالمين . ولم يكن اعتقاده بلبابة باحسن من اعتقاده بقطام لانه رأى خيانتها رأي العين فصمم على التخلص من كليهما

وكانت قطام في اثناء حديث لبابة واقفة وقوف الصنم وقد جمد الدم في عروقها واصطكت ركبتاها . وكانت في اول حديث لبابة تهمُّ بتكذيبها وعمرو يسكتها ثم سكتت من تلقاء نفسها . فلما فرغت لبابة من حديثها نادى عمرو « ياغلام » فجاء فأمره ان يسوق قطاماً وعجوزها الى غرفة يسجنها فيها

الفصل الثاني والمائة

العفو العام

فلما خرجت قطام ولبابة من المكان عاد السكوت الى الجلسة وكلٌّ في مكانه وعمرو غارق في بحار التأمل فيفكر في خولة وشهامتها وصدق مودتها فرأى انها اذا كانت على دعوته لا يخشى ضرّها بل قد تكون اكبر عون له اذ يندر مثلها بين النساء وغلب على اعتقاده انها بعد مقتل الامام علي لم يبق لها سبيل لنصرته فتفضل ان تكتسب رضاء عمرو . وخصوصاً اذا عفا عنها وعن زوجها عبدالله

وبعد السكوت هنيهة خاطبها قائلاً « والآن ما قولك يا خوله ما الذي

نفعله بك »

قالت « لا ابالي يامولاي بعد ان بسطت لك الحق ان تفعل بي ما تفعله . فقد صدقتك القول بصراحة لا اظن احد يتجرأ على مثلها . فاذا امرت بقتلي فاني لا ازيد عدد الموتى ولا اقلل عدد الاحياء . ولا فائدة من بقائي ولا ضرر من مماتي وقد قلت لك في اول حديثي انه قد قُتل واندرج تحت التراب من لا اقاس بأنملة من انامله . فهل انا افضل من ابي بكر وعمر وعثمان ام انا خير من ابن عم الرسول (صلعم) فاذا شئت اقتلني وارحني من حياة لا عدل فيها ولا حق . . . ولكنني اطلب اليك اذا قتلتني ان لا تعفو عن تلك الخائنة الغادرة » قالت ذلك ودمعت عيناها .

فتأثر عمرو من صدق لهجتها وثبات جاشها فقال لها « واذا عفوت عنك »

قالت « واذا عفوت فالعفو من شيم الكرام وتكون حياتي هبة من عندك »

فتقدم عبد الله للحال وجثا بين يدي عمرو وقال « ارغب الى مولاي كما وهبني حياتي ان يهبني حياة هذا الملاك الطاهر فنكون كلانا هبةً من فضله »

وكان والد خولة لايزال واقفاً وقد سحرت ابدته ابنته من الحمية والشهامة وقد خجل لانه لم يكن صادقاً في اخلاصه لعلي مثلها . فلما رأى عبد الله يلتمس العفو لابنته تقدم هو ايضاً وقبل يدي عمرو وقال « لقد كنت يا سيدي اشدّ نقمة منك على خولة ولكنني اراها والله خيراً مني واراني اصغر منها فالتمس لها العفو ايضاً » قال ذلك ونادى خولة فدنت فقال لها « قبلي يد الامير واستغفريه » ففعلت

وتصافح ابو خولة وعبدالله وعادوا الى مقاعدهم وقد تذكر عبدالله ابن عمه سعيداً وعلاقته بخولة فقال في نفسه انها فرصة لا ينبغي ضياعها فخاطب عمراً قائلاً « اما وقد وهبتنا حياتنا جزاء لصدق لهجتنا فلا يسعني والحالة هذه الاّ ان اتم الصدق بكشف سرّ لا يزال مكتوماً »

الفصل الثالث والمائة

﴿ كشف السر ﴾

فلما قال ذلك علمت خولة انه سيتكلم بشأن سعيد فخفق قلبها وغلب الحياء عليها

فانزوت في بعض جوانب الغرفة

اما عمرو فقال لعبد الله « قل ما بدا لك »

قال « انت تدعوني الآن زوج خولة وما انا والله الاّ اخوها »

فبغت عمرو وابو خولة وقال عمرو « كيف لا وقد كتبتُ كتابك عليها »

قال « نعم انها زوجتي بالكتاب ولكنها لاتزال بكرًا وقد آخيتها فهي اختي بعهد الله والرجل لايتزوج اختهُ »

فازداد استغراب عمرو وقال « وكيف ذلك افصح يا عبد الله »

قال « لان خولة احبّت ابن عمي سعيدًا قبلي ولا بدّ انكم لحظتم ذلك من خلال حديث قطام ولكنني لم اعلم ذلك الا بعد كتابة الكتاب ونظرًا لحبي الشديد لابن عمي وقد كفلتهُ بوصاية جدي ابي رحاب أمسكت نفسي عن خولة وآخيتها . واعترف لمولاي الامير اننا تواطأنا على الخروج من الفسطاط الى الكوفة بحيلة وسعيد ينتظرنا هناك فازفّ خولة اليهِ »

فلما سمع عمرو كلامهُ ازداد اعجابًا بشهامتهِ وصدق مودتهِ ونظر الى ابي خولة كأنهُ يستطلعهُ رأيهُ في الامر فاذا هو لم يكن اقل اعجابًا بتلك الشهامة واكنهُ لم يتمالك عن ان نهض وضم عبد الله الى صدره وقبل راسهُ وقال « بورك فيك من صديق صادق فاذ صارت خولة اختًا لك فاقضِ لها ما انت قاضٍ »

فقال « اذا امر مولاي بعثنا الى سعيد وهو في الكوفة مع بلال العبد فيقدمان الينا فيكتب الامير كتابهُ بامره »

فقال عمرو « ان ذلك لك على الرحب والسعة » وامر غلامهُ ان يمدّ عبد الله بما يريدهُ ما يتعلق باستقدام سعيد

فجهز عبد الله رسولاً وكتب الى سعيد يستقدمهُ ويبسط لهُ واقعة الحال واوصى الرسول ان يجعل طريقهُ بدمشق لان سعيدًا كان فيها فلعلهُ لا يزال هناك.

واستأذن ابو خولة وابنتهُ بالانصراف الى بيتهِ فاذن لهما فخرجا وخولة تفكر في قطام وكانت قبل هذه الجلسة تريد الانتقام منها ولكنها لما رأت ما كان من فشلها انثنأت عن انتقامها . على انها تذكرت ان بلالاً اقسم ان يقتلها ناهيك عن حقد سعيد عليها فعوّلت ان تستعطفهُ لكي يعفو عنها ويكتفي بما اصابها من الفشل والاهانة

واما عبد الله فاستبقاه عمرو عنده بقية النهار و بات تلك الليلة ضيفاً في دار الامير وقد ارتاح باله من كل قبيل . ولكنه كان يفكر في قطام وما اصابها من البلاء وكيف سيقت الى السجن مهانة وقد انكشف امرها وافتضح سرها فخننت نفسه عليها واكتفى بان تبقى مسجونة حتى يرى ما يكون من امرها بعد قدوم سعيد

وفي الصباح التالي بعث عمرو اليه ليتناول الطعام معه فذهب وفي اثناء الطعام تحدثا بحديث قطام وعجوزها فذكر عبد الله ما يجول في خاطره من الشفقة عليها فقال له عمرو « انه والله حلم لم يسبقك اليه معن . وما ظنك بخولة هل تقول قولك ؟ »

قال « لا اظنها الا على رأيي بلا تواطوء »

الفصل الرابع والمائة

الجريمة والفرار

فاحب عمرو ان يجرب ذلك فبعث الى خولة فلما جاءت سألها عن رأيها في قطام

فقالت مثل قول عبد الله تقريباً

فقال لها عمرو « اني والله لأعجب من هذا التوارد وانه دليل صريح على طيب عنصركما وقد كنت لو اردتما قتلها قتلتها لانها شريرة تستحق الشنق . فارى اذاً ان اسجنها في سجن مظلم لتذوق جزاء ما جنته يداها »

ثم نادى غلامه فحضر فامره ان ينقل قطام الى سجن مظلم وان يأتي بالعجوز اليه فذهب الغلام ثم عاد وعلى وجهه امارات البغتة

فقال له عمرو « ما وراءك هل فعلت ما قلته لك »

قال « كلا يا مولاي »

وقال « ولماذا »

قال « لاني وجدت الغرفة مفتوحة وليس فيها غير جثة المرأة العجوز »

قال عمرو « وقطام ؟ »

قال « لم أقف لها على أثر »

فصاح عمرو « تبًّا لتلك اللعينة الخائنة هيا بنا نتفحص الامر بنفسنا » قال ذلك واسرع لساعته وتبعهُ عبد الله وخولة حتى أتوا باب الحجرة التي كانت قطام مسجونة فيها . فاذا بتلك العجوز المسكينة صرعاء هناك لا حراك لها . فارسل عمرو الى طبيبه ليتفحص سبب وفاتها فجاء وبعد الفحص قال انها ماتت خنقًا بعنف بعد جهاد ودفاع لانهُ رأى في فيها حجرًا ملفوفًا بمنديل كان القاتل سدَّ به فاها لئلاَّ تستغيث فيسمعها الخفراء فيكتشف امره

فقال عمرو « ومتى كان ذلك »

قال « أظنهُ وقع في منتصف الليل او نحوه »

فحوَّل عمرو انتباههُ الى باب الحجرة وتأمل خلعهُ فتبين لهُ انهُ خلع من الخارج لانهُ رأى آثار معالجتهِ باداة من الخارج . فقال « يظهر ان قطام ليست وحدها القاتلة لان يدًا عالجت الباب وفتحتهُ فمن فعل ذلك يا ترى »

وكانت خولة لما رأت لبابة مائتة وقطام قد نجت اسفت لما كانت تبغيه من العفو عنها وتضاعفت نقمتها عليها ولو حضرت بين يديها في تلك الساعة لقتلتها بيدها

وكان عبدالله يشارك عمرًا بالبحث فلما رآه يبحث عمن خلع الباب انتبه لساعتهِ وقال « لقد كشفتُ الغامض وعرفت القاتل انهُ ريحان عبد قطام فقد شاهدتهُ في دار الامير بالامس قبل المحاكمة ولم اسمع الامير امر بالقبض عليهِ . فانهُ احتال بخلع الباب وساعد سيدتهُ على قتل العجوز انتقامًا لها او خوفًا من لسانها »

فصاح عمرو للحال « لقد اصبت كبد الحقيقة انهُ ذلك العبد بعينهِ ثم أمر بالجثة فحملت ودفنت وعاد الجميع آسفين لنجاة تلك الخائنة من بين ايديهم ولكنهم عزوا انفسهم بصفاء المودة بينهم وخصوصًا خولة وعبد الله فانهما كانا يتوقعان قدوم سعيد ولا ينغص عيشهما الاَّ فرار قطام ومقتل الامام على ان عمرًا عوَّل على البحث عنها ومعاقبتها



الفصل الخامس والمائة

غوطة دمشق

اما بلال فلما بعثهُ عبدالله ليتربص مع سعيد في الكوفة سار الى دمشق فرأى سعيداً بانتظاره هناك فاحكي لهُ ما قرّ القرار عليهِ واستنهضهُ للمسير الى الكوفة فاستمهلهُ يومين ريثما يقضي بعض الحوائج . وفي اصيل اليوم الثاني حملا احمالها وخرجا على جمليهما على ان يبيتا تلك الليلة في غوطة دمشق ويصبحا في اليوم التالي على طريق الكوفة

وفي خروجهما من باب المدينة لقيهما رسول عبدالله القادم لاستقدامهما الى الفسطاط وهو يعرف بلالاً فاوقفهُ ودفع الكتاب الى سعيد فقرأهُ سعيد وهو لا يصدق لعظم ما نالهُ من الفرح للقبض على قطام مع رضاء عمرو وما توسمهُ من شوق خولة اليهِ

اما بلال فتاسف للقبض على قطام في غيابهِ مخافة ان يعفوا عن قتلها او ان يقتلها احد سواه وهو يود ان يقتلها بيدهِ ليشفي منها غليلهُ

فقال سعيد للرسول «كنا خارجين الآن الى الغوطة لنبيت فيها ونصبح الى الكوفة فأرى بعد ان حملنا احمالنا ان نظل في طريقنا الى الغوطة فنبيت هناك ونصبح في الغد نلتمس الفسطاط» فساروا جميعاً حتى وصلوا بعد الغروب الى بحيرة صغيرة حولها اشجار التفاح والمشمس والسفرجل والخوخ تتخللها اشجار الحور وقد علت نقنقة الضفادع يتخللها حفيف الاشجار وصفير الصراصير وهبوب الريح وتغريد الطيور مما يشرح الصدر ويندر مثالهُ في غير تلك الغوطة

فحطّوا احمالهم واشتغل بلال ورفيقهُ باعداد العشاء مما حضر ولا يحلو الطعام هناك الا بالفاكهة

وكان بلال يعرف صاحب ذلك البستان وقد نزل عندهُ ليلة قدومهِ من الفسطاط فترك سعيداً والرسول ومشى بين الاشجار تحت جنح الظلام يلتمس بيت البستاني . ولم يمش برهة حتى اخطأ الطريق لتكاثف الاشجار وجعل يتلمس في مسيرهِ وهو لا يزداد الا ضلالاً وبعداً حتى اصبح وبينهُ وبين رفاقهِ ميل وبعض الميل وهو لا يدري فوقف يتفرس من

بين الاشجار لعله يرى نورًا او يتبين المنزل من وراء الافق . ولبث برهة يعمل فكرته ويحاول ان يعرف الجهة التي ترك فيها رفاقه كي يعود اليهم ولو بلا شيء

وفيما هو يفكر وقد هدأ الجو وسكنت الطبيعة لا يسمع فيها غير نقنقة الضفادع عن بعد وإذا بصوت اجفاله وهو جعير جمل عقبه جعير جمل آخر فعلم ان القادمين ركب امسى عليهم المساء قبل الوصول الى المدينة . فمكث ينتظر وصولهم ليخاطبهم ويستفهم منهم عن الطريق . وكان قد اسند ظهره الى شجرة فتطاول بعنقه وتنصت ليتحقق الجهة التي سمع الصوت منها فسمع لغطًا وكلامًا استلفت انتباهه فاصاخ بسمعه فاذا بقائل يقول « دعنا ننزل هنا يا ريحان فاذا اصبحنا دخلنا دمشق لاني أخاف ان يستفشونا اذا دخلناها في الظلام ... الا تظننا في امان هنا ؟ »

وسمع الجواب « نعم يا مولاتي »

فاقشعر بدن بلال عند سماعه ذلك الصوت وقد ادرك لاول وهلة انه صوت قطام وخصوصاً لما سمعها تخاطب ريحان بما يمازجه خوف . وتحقق للحال انها آتية فرارًا من سجن الفسطاط

الفصل السادس والمائة

﴿ النزول ﴾

وكانت قطام لما أُرسلت الى سجنها قد حقدت على لبابة كما قد علمت . ونظرًا لما فطرت عليه من اللؤم والقساوة لم يكن اهون عليها من قتل لبابة ولم تعبأ بما كان لها في خدمتها من التعب . وكان ريحان يومئذ واقفاً في دار الامارة فلما رأى سيدته ولبابة سائرتين مخفورتين علم انهما في ضيق فراعى القوم ببصره حتى عرف الحجرة التي حبسوهما فيها . وعمل فكرته لانفاذهما . وكانوا عند اول وصولهم الفسطاط قد نزلوا في دار الامارة فاحتال في اخراج الجمال والامتعة الى مكان خارج الفسطاط . ولما توسط الليل غافل الناس وجاء الى سجن قطام وقد تهيأ لمعالجة الباب . فسمع لغطاً فاذا هو خصام احتدم بينها و بين خادمتها . فاستعجل في

فتح الباب بالعنف ودخل فلما رأته قطام اشارت اليه ان يساعدها على قتل لبابة فصاحت هذه « تباً لك يا ظالمة يا فاجرة اني انوب الى الله عما ركبت في سبيلك من الذنوب . واما انت فلا نجاك الله من عواقب آثامك و . . . . » فابتدرها ريحان حالاً فسدّ فاها وخنقها وخرج بسيدته من باب كان قد عرفه واسترضى بوّابه . فلما بعد عن الفسطاط تحول بها الى مأمن كان قد اعده عند موقف الجمال . فركبا وهي تثني على شهامته . فخيّرها في الجهة التي تسير فيها فاختارت دمشق لان فيها اناساً من اهلها كانوا قد هجروا الكوفة بعد واقعة النهروان وفشل الخوارج واقاموا في دمشق

فسارا حتى اتيا الغوطة في تلك الليلة بعد وصول رسول عبد الله ببضع ساعات كما قد رأيت . وكان بلال لما تأكد انهما قطام وريحان لم يعد يعلم كيف يفرح . وقال في نفسه لقد اجاب الله سؤلي . والله اني ساذيقنهما الموت بيدي هذه . وجسّ منطقته فرأى الخنجر فيها . فلبث مستظلاً بالشجرة ليرى ما يكون منهما . فاذا هما قد سارا خطوات قليلة حتى اتيا الى قناة لانحدار مائها خرير وبجانب القناة شجرة من الصفصاف يستظل بها المارة في اثناء النهار . فتحوّلا عن الجملين وضرب ريحان الخيمة كالعادة واوقد النار ثم قال لمولاته « استريحي ياسيدتي ريثما آتي البستاني وآتي اليك ببعض الزاد والفاكهة وانت هنا في مأمن »

قالت « سر ولا تطل الغياب »

قال « حسناً » وانصرف

الفصل السابع والمائة

﴿ على الباغي تدور الدوائر ﴾

وكان بلال واقفاً ينظر اليه . فلما رآه توارى نظر الى قطام على بصيص النار فاذا هي قاعدة وقد كشفت عن وجهها وعنقها وشمرت عن ساعديها ثم رآها نهضت وضفائرها مدلاة على كتفيها وظهرها وفي اطراف الضفائر دنانير معلقة اذا تصادمت اثناء المشي سمع لها رنين . ومشت الى حافة القناة ودمالجها وخلاخلها تخش خشيشاً . فخاف

بلال اذا ابطأ ان تفوته الفرصة فوثب عليها وهي تهم بالجلوس على حافة القناة وامسك بطوقها وجذبها اليه فوقعت على قفاها فجثا على صدرها . فصاحت « ريحان » وقبل ان تتم كلامها وضع بلال قبضته في فيها وقال لها « لم يبق لك في هذه الحياة الاّ دقائق قليلة فاعلمي قبل ان تفارقيها اني بلال خادم خولة وسعيد واني منتقم للامام علي » فاشارت بعينيها انها تريد الكلام فاستلّ الخنجر وصوبه الى عنقها وقال لها « تكلمي بهدوء واذا رفعت صوتك اغمدت هذا الخنجر في عنقك »

قالت « ارحمني يا بلال واشفق على حياتي »

قال « لا يرحمني الله ان رحمتك وانت قد ضافرت ابن ملجم وحرضته على قتل الامام علي . واردت قتل شابين من خيرة الشبان . ولكن حيلتك لم تطل فيهما . واخيرًا جئت الفسطاط لاغراء أميرها على خولة . كيف ارحمك يا خائنة »

قالت « ذلك قد مضى يا بلال وانا تائبة فاعفُ عن قتلي ولك كل ما املكهُ »

قال « هل يتوب الهر !! . واما العفو عن قتلك فوالله لو عرفتُ قصاصًا اعظم من القتل لقاصصتك به لان القتل قليل على فاجرة خائنة مثلك »

فهمّت ان تجيبه فادرك انها تماطله ريثما يعود ريحان

فقال لها « اعلمي يا قطام اني قتلتك انتقامًا للامام علي » قال ذلك واغمد خنجره في عنقها واسرع فاحتز رأسها وترك الجثة ولها تخيرّ ما زال يرن في اذنيه الى مسافة بعيدة . وكان لما رأى تلك القناة قد عرف الطريق المؤدي الى مقر سعيد فانسلّ بين الاشجار وقد أمسك الرأس من جدائله وتركه يتدلى والدم يقطر منهُ

الفصل الثامن والماية

الفاكهة الغريبة

فلما وصل بلال الى سعيد والرسول الجديد كانا قد استبطاه واشغل خاطرهما عليه . فلما سمعا وقع اقدامه صاح سعيد فيه قائلاً « ابن الفاكهة يا بلال لقد ابطأت وغلب علينا الجوع »

فلم يجبهُ بلال ولكنهُ ظل ماشياً حتى وقف امامهُ و رمى الجمجمة بين يديهِ وقال « هذه فاكهتي »

فاجفل سعيد ونظر فاذا هو رأْس قطام باقراطهِ وضفائرهِ واستغرب امره فسأَلهُ عن تفصيل الخبر

فقال « ليس هذا وقت السؤَال هلموا بنا نخرج من هذه الغوطة الآن فاذا أمنَّا من عيون الحكومة اخبرتكم الخبر »

فنهضوا وهم الى تلك الساعة لم يذوقوا طعاماً وركبوا جمالهم واستحثوها جهد طاقتهم وهم تارة يصعدون تلاًّ او ينزلون غورًا وآونةً يغوصون في الماء وطورًا يدوسون الاشواك او تتصادم رؤُوسهم واكتافهم بغصون الاشجار حتى انتصف الليل فانتهوا الى سهل قليل الاغراس وقد بعدوا عن دمشق فواصلوا السير الى الفجر فتحققوا انهم أمنوا العيون

فجلسوا للاستراحة على مصطبة بالقرب من عين ماء جارية وسعيد في شوق شديد الى سماع تفصيل مقتل تلك المرأة

فقص بلال حديثهُ وقلبهُ يرقص من شدة الفرح . واتمامًا لاسباب سروره استخرج الجمجمة من جراب كان قد خبأَها فيهِ ووضعها على المصطبة بين يدي سعيد . وكان شعرها قد تجبل بالدم والعينان مطبقتان والشفتان مفتوحتان عن اسنان كاللؤلوءِ ومسحة الجمال لا تزال تتجلى في محيا تلك المرأة مع صفاء اللون واصفراره وما تلطخ بهِ من الدماء

الفصل التاسع والماية

الموت عبرة الاحياء

فمد سعيد يدهُ الى جبين تلك الجمجمة ولمسهُ فاذا هو بارد كالثلج فقال « امنتُ بالله كانهُ سبحانهُ وتعالى قد كتب لي ان لا المس هذا الجبين الاَّ وهو ميت مع شدة رغبتي في لمسهِ منذ اعوام » ثم وجَّه خطابهُ الى الجمجمة وقال « أأنتِ قطام بنت شجنة وقد طلبتِ دهاءكِ ومكركِ على مئات من الرجال . أبهاتين العينين فتنتِ

ابن ملجم كما فتنتني . وبهاتين الشفتين عقدت له على نفسك اذا قتل الامام كما عقدت لي . انك ستلاقينهُ عاجلاً وستلاقيان عليًا في مكان لا تخفى فيهِ خافية . في مكان تنال فيهِ كل نفس جزاء ما صنعت ان خيرًا وان شرًّا »

ثم التفت الى بلال وقال « ماذا نعمل بهذا الرأس »

قال « نحملهُ الى الفسطاط لاضعهُ بين قدمي خولة ذلك الملاك الطاهر »

« قال لا اظنها تسرُّ بهذا المرأى ولا انا سررت بهِ . وزد على ذلك ان هذه الجمجمة لا تصل الفسطاط الاَّ بعد ان تنتن وتتصاعد عنها رائحة تنفر منها النفس »

فاطرق بلال هنيهة وهو يتأسف لعدم استطاعتهِ حمل الراس الى خولة ثم قال « فاسمح لي اذًا ان احمل علامة منهُ »

قال « وما هي تلك العلامة »

قال « اقطع منهُ الاذنين وفيهما الاقراط وأقصُّ هذا الشعر وفيهِ الضفائر الذهب»

قال « لك ذلك فافعلهُ »

فاشتغل بلال في ذلك على ان يستريحوا هناك ويتناولوا الغذاء ويعزموا على الفسطاط

الفصل العاشر والمائة

اذا سقط اللئيم لا يلقى نصيرًا

اما ريحان فانهُ عاد من عند البستاني بعد قليل وقد اعدَّ كل ما ترتاح اليهِ سيدتهُ من الفاكهة والاطعمة وامر البستاني ان يشوي بعض اليمام . ولما دنا من الخيمة سمع شخيرًا كشخير النائم وكانت قطام اذا نامت شخرت وهو يعرف فيها ذلك . فقال في نفسهِ يظهر انها لم تتمالك عن النوم من شدة التعب . ودنا منها فاذا هي بجانب القناة والظلام حالك والنار التي اوقدها قد خمدت فلم ينتبه لحالها فقال في نفسهِ لانيرنَّ الشمع واعدَّ المائدة ريثما تفيق فانار الشمعة ولاحت منهُ التفاتة الى سيدتهِ فرآها تتحرك فاقبل اليها فاذا هي تختلج اختلاج النزاع وقد أصبحت جثة بلا رأس

ورأى دمها قد عكّر القناة . نبخت والم وجهه ووقف لحظة يفكر في من عسى ان يكون قد فعل ذلك فقال في نفسهِ « لا يخلو ان يكون ذلك قد حدث بايعاز عمرو بن العاص والقاتل قد فرّ الآن ولا سبيل اليهِ . واذا انا صحت وجمعت الناس لا اظن التهمة الاّ واقعة عليّ »

فتحير في امره ثم تذكر ما ارتكبتهُ قطام من الفظائع كأنهُ يحاول ان يلتمس لنفسهِ عذرًا اذا تخلى عنها . فرأى انها ارتكبت عظائم تستحق القتل على كل واحدة منها . وتذكر ما وراءها من المال الكثير والمصاغ الثمين وانهُ هو وحده يعرف مخبآتها في الكوفة . وطمع في اكتساب ذلك الميراث وصمم على اغتنام هذه الفرصة فهمّ بما عليها من الحلي فاستخرج الاساور والدمالج من يديها والعقود من عنقها وجمع ما في جيوبها وصناديقها من غالي الثمن وخفيف الحمل . وتركها تخبط بدمها ولسان حالهِ يقول « ذلك هو جزاء القوم الظالمين » ودخل الشام في الصباح التالي فاشترى اثوابًا تنكر فيها وقصد الكوفة فاستخرج ما خبأتهُ قطام هناك من الاموال وابتاع لنفسهِ ضيعة اقام فيها الى آخر حياتهِ

واما البستاني فكان قد اعدّ الطعام وحملهُ وفيهِ الجبن والفاكهة والخبز في سل وجاء الى موضع الخيمة وهو مسرور بتلك الضيفة لانها كانت كريمة تعطي الناس بسخاء . ولكنهُ ما وصل الخيمة حتى رأى الحال كما ذكرنا وليس هناك الاّ جثة قطام وكانت قد همدت وسكن شخيرها واختلاجها . ولا تسل عن رعبهِ لما رآها في تلك الحال فقال في نفسهِ « لا بدّ من جماعة اقوياء تجرأوا على هذا العمل وقد فعلوا ما فعلوا ونجوا بانفسهم واذا انا اظهرت هذه الجثة جلبت لنفسي البلاء فما لي الاّ ان احتفر لها حفرة اخفيها فيها » فاشتغل بالحفر وهو يحاذر ان يراه احد او يسمع خبط معولهِ . ثم دفن الجثة واخفى آثار الدماء وحمل كل ما بقي من الامتعة الى بيتهِ وساق جملاً كان باقيًا هناك وكتم تلك الحادثة وما زالت مكتومة الى الآن



الفصل الحادي عشر والمائة

﴿ الوصول الى الفسطاط ﴾

اما وفد الفسطاط فلما اشرفوا على المدينة من سفح المقطم ظهر لهم جامع عمرو في وسط المدينة كالبدر بين الكواكب فاستعجلوا الرسول الجديد بالذهاب الى عبد الله لينبئهُ برجوعهم واوصوه ان لا يذكر لهُ خبر قطام

اما عبد الله فكان قد خلا لهُ الجو وصفا لهُ قلب الامير ولكنهُ ما زال منشغل الخاطر في امر سعيد وكلما تذكر فرار قطام من سجنها انقبضت نفسهُ وكلما لقي خولة تحادثا بما مرَّ بهما وذكرا سعيدًا والتمسا سرعة وصولهِ وعبد الله يدبر اسلوبًا يخبرهُ بهِ عن حقيقة حالهِ مع خولة

وفيما هو جالس ذات صباح في غرفتهِ بدار الامير اذا برسولهِ قد اقبل وعليهِ علائم السفر فصاح بهِ « ما وراءك »

قال « ورائي سيدي سعيد وبلال »

قال « واين هما »

قال « تركتهما في سفح المقطم قادمين وجئت لابشركم »

قال اهلاً بالقادمين ونهض لساعتهِ وخرج على فرس أُسرج لهُ ولم يكد يخرج من الفسطاط حتى التقى بسعيد وبلال على جملين فترجل بلال للحال وهمَّ بيد عبد الله فقبلها

فقال عبد الله « بورك فيك يا اسمر وبورك بشهامتك » وهمَّ سعيد ان يترجل فاشار اليهِ عبد الله ان يبقى على جملهِ لينزلا معًا في دار الامارة

فمشوا وسعيد يبتسم فقال لهُ عبد الله « ما الذي يضحكك »

قال « يضحكني اننا ذاهبون الى دار عمرو بن العاص وقد كنا بالامس نحاذر ان يسمع بنا او يرانا »

قال « لله في خلقهِ شؤون » ثم قال بصوت خافت كانهُ يحاذر ان يسمعهُ احد « لو اراد الله نجح مسعانا ونجا الامام علي كرم الله وجههُ لما همَّنا النزول في هذه الدار »

فقال سعيد « لا تذكرني بذلك الحادث الفظيع فقد شهدته بنفسي ورأيت ابن ملجم اللعين بأم عيني يضرب الامام بذلك السيف المسموم وقد كان بيننا وبين انقاذه لحظة لو اراد الله لعجلها . ولكن الآجال مرهونة باوقاتها »

قال « ولكن الله سيجزي الظالمين واما نحن فقد صرنا الآن من حاشية ابن العاص وهو والحق يقال من دهاة العرب وكرامهم وكبار قوادهم »

الفصل الثاني عشر والمائة

المداعبة

وتحادثا في امثال ذلك حتى اقتربا من الدار ففال عبدالله « لم اسمعك تذكر خولة .. هل نسيتها »

فابتسم سعيد وقال « كيف انساها وانا انما جئت التمسها »

قال « وماذا تلتمس منها »

قال « لا ادري ... »

قال « اظنك تدري والاّ فاعلم ان خولة الآن قرينتي زوَّجني بها عمرو وكتب كتابي عليها بامره »

فضحك سعيد وهو يظن ابن عمه يمازحه ...

فتظاهر عبد الله بالجد وقال « يظهر لي انك لم تصدق قولي فاقسم بالله وتربة ابي رحاب ان خولة قد زفت اليَّ وكتب العقد على يد الامير . واذا كنت لا تصدقني فاسأل كل من في هذه الدار عن ذلك »

فغلبت الشهامة على سعيد ولم يسعهُ الاَّ ان قال « وما يمنع ان تكون زوجة لك بورك لك فيها . الست اخي ورفيقي وابن عمي

قال ذلك وهو لا يزال يشك بما سمعهُ لعلمه باخلاق عبد الله

ووصلا الى الدار فترجلا وسارا توًّا الى غرفة عبد الله وبعثا الى عمرو بقدومهما ان يستقبل سعيد في غرفة خاصة وبعث الى خولة ووالدها فلما جاءا

اقبل عمرو الى تلك الغرفة وقد اجتمع فيها الجميع وبلال واقف خارجًا فلما دخل عمرو تقدم سعيد لتقبيل يده والسلام عليهِ فرحب بهِ ودعاه للجلوس

فقال سعيد «اذا اذن مولاي فليأمر عبده بلالاً بالدخول ليحضر هذه الجلسة»

فامر بدخوله فانزوى في بعض جوانب الغرفة متأدبًا وفي يده جراب من جلد

وكان سعيد ينظر الى خولة من تحت النقاب ويفكر في ما سمعهُ من عبد الله وهو يتردد بين الشك واليقين

فلما استتب بهم الجلوس خاطب عمرو سعيدًا قائلاً «اظنكم تتوقعون ان تروا قطامًا سجينة»

فقال سعيد «نعم يا مولاي»

قال «ولكنها فرّت من السجن وزادت ذنبها عظمًا بقتل خادمتها . وكنا قد اردنا استبقاءها مسجونة . اما الآن فاذا ظفرنا بها لاقصاص لها عندنا غير القتل»

الفصل الثالث عشر والماية

جائزة مئة دينار

فلم يتمالك سعيد عن الابتسام وقد ندم لانهُ لم يصرح بالأمر لما سألهُ عنهُ عمرو وهمّ بالكلام فاعترضهُ بلال مستأذنًا . فسكت . فتقدم بلال الى عمرو وجثا بين يديهِ والجراب بيده وقال «استعطف مولاي ان يأْذن لي بكلمة اقولها»

قال «قل»

قال «كيف ترجون القبض على قطام وانتم لا تعرفون مقرّها»

قال «نُطمع الناس في البحث عنها بمال كثير»

قال «بكم تسمح نفس الامير لمن يقبض عليها»

قال «نعطيهِ مئة دينار»

قال «أَنشترط ان يؤْتى بها حيةً»

قال «لا فرق جاء بها حية او ميتة»

قال « واذا جاء بخبر قتلها »

قال « نقبل منهُ ذلك بشرط ان يأْتينا بما يثبت قتلهُ اياها »

فاخذ بلال يحلُّ الجراب وهو يقول « فليأمر مولاي الامير بان يدفع لي مئة دينار » وما تمَّ قولهُ حتى افرغ الجراب بين يدي الامير ففاحت الرائحة وظهر الشعر الملطخ بالدماء وبلال يبحث فيهِ باصبعهِ حتى وجد الاذنين وفيهما الاقراط

فاجفل عمرو وسائر الحضور لذلك المنظر واشمأزت نفوسهم من تلك الرائحة الكريهة وصاح فيهِ عمرو « ويلك ما هذا »

قال « هذا هو شعر قطام ملطخًا بدمها . وهذه اذناها واقراطها . واذا احرجتموني جئتكم براسها . فاني انما تخليت عنهُ اجابة لامر مولاي سعيد » قال ذلك ووقف وهو يشير برأسهِ الى سعيد

فقال سعيد « نعم يا مولاي انا اشهد ان بلالاً قتل قطامًا وحده واحتز رأسها وجاءني بهِ وهو ينوي حملهُ اليكم فاشرت عليهِ ان يكتفي بهذه العلامة تخلصًا من نتانة تلك الرمة »

وكان الحضور قد بهتوا وهم ينظرون الى الشعر والاذنين فاشار عمرو الى بلال ان احمل هذه الاقذار من هنا . فاعادها الى جرابهِ وتنحى

فقال لهُ عمرو « لك علينا مئة دينار »

فحنى رأسهُ شكرًا وامتنانًا وقال « اني اشكر مولاي الامير على نعمتهِ ولكنني اعترف لهُ باني لم اقتل هذه الخائنة طمعًا بجائزة وانما قتلتها انتقامًا للحق » واراد ان يفصل ما اجملهُ فانتبه انهُ لا يجوز ذكر الامام علي هناك فاكتفى بما قالهُ

ونهض عبد الله فقال « بورك فيك يا بلال » فاقصص علينا الخبر اذا امر الامير.

فقال عمرو « اقصصهُ »

فقصهُ من اولهِ الى آخرهِ

الفصل الرابع عشر والماية

الطلاق والزواج

فاثنى الجميع على شهامتهِ وخصوصاً خولة . وتذكرت ان والدها كان ناقماً عليها من اجلهِ فاغتنمت تلك الفرصة لاكتساب رضاه عنها فقالت « يا بلال تقدم باذن الامير وقبّل يدي سيدك » واشارت الى والدها . فتقدم بلال للحال وقبل يده فاثني عليهِ فعاد الى موقفهِ . وكان الحديث قد انقضى ولم يبق غير الانصراف

فوقف عبد الله والتفت الى عمرو وقال « اشهد ايها الامير ان امرأتي هذه طالق مني ثلاثاً » واشار الى خولة

فانتبه سعيد لما كان سمعهُ منهُ فتحقق انهُ كان معقوداً لهُ عليها . فعلتهُ البغتة ولحظ عمرو فيهِ ذلك فقال « طب نفساً ياسعيد ان خولة لا تزال بكراً وانما طلقها عبدالله صورةً كما تزوجها صورة » والتفت الى ابي خولة وقال لهُ « اني اخطب خولة منك لسعيد »

فقال ابو خولة « هي جاريتك يا مولاي فافعل بها ما تشاء »

فخجلت خولة لتلك المباوضة بين يديها واطرقت

وامر عمرو فكتب الكتاب في الحال وهنأها بذلك الاثنان وامر لبلال بالمال الذي وعده بهِ وانصرف الجميع الى بيت خولة بعد ان ودعوا عمراً وشكروا صنيعهُ

وبعد ايامٍ استاذن عبد الله سعيداً في الذهاب الى مكة للقيام مع اهلهِ وتدبير تركة جده فاذن لهُ بالرغم عنهُ . فانصرف وودع خولة ووالدها والامير عمراً وسار الى مكة واقترن هناك بابنة عم لهُ وعاشوا جميعاً عيشاً لا يشوبهُ من الغصص الا الافتكار بمقتل الامام علي . وزاد تنغيصهم ما سمعوه بعد ذلك من تنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية بن ابي سفيان . فخرجت الخلافة من اهل البيت وصارت الى بني امية . وانما فعل الحسن ذلك حجبا للدماء ولم يتولَّ الخلافة الاَّ ستة اشهر فانتقل كرسيها من الكوفة الى دمشق وما زال فيها الى انقضاء دولة بني امية

تمت الرواية

قال « واذا جاء بخبر قتلها »

قال « نقبل منهُ ذلك بشرط ان يأْتينا بما يثبت قتلهُ اياها »

فاخذ بلال يحلُّ الجراب وهو يقول « فليأْمر مولاي الامير بن يدفع لي مئة دينار » وما تمَّ قولهُ حتى افرغ الجراب بين يدي الامير ففاحت الرائحة وظهر الشعر الملطخ بالدماء وبلال يبحث فيهِ باصبعهِ حتى وجد الاذنين وفيهما الاقراط

فاجفل عمرو وسائر الحضور لذلك المنظر واشمأَزت نفوسهم من تلك الرائحة الكريهة وصاح فيهِ عمرو « ويلك ما هذا »

قال « هذا هو شعر قطام ملطخًا بدمها . وهذه اذناها واقراطها . واذا احرجتموني جئتكم براسها . فاني انما تخليت عنهُ اجابة لامر مولاي سعيد » قال ذلك ووقف وهو يشير برأسهِ الى سعيد

فقال سعيد « نعم يا مولاي انا اشهد ان بلالاً قتل قطامًا وحده واحتز رأْسها وجاءني بهِ وهو ينوي حملهُ اليكم فاشرت عليهِ ان يكتفي بهذه العلامة تخلصًا من نتانة تلك الرمة »

وكان الحضور قد بهتوا وهم ينظرون الى الشعر والاذنين فاشار عمرو الى بلال ان احمل هذه الاقذار من هنا . فاعادها الى جرابهِ وتنحى

فقال لهُ عمرو « لك علينا مئة دينار »

فحنى رأسهُ شكرًا وامتنانًا وقال « اني اشكر مولاي الامير على نعمتهِ ولكنني اعترف لهُ باني لم اقتل هذه الخائنة طمعًا بجائزة وانما قتلتها انتقامًا للحق » واراد ان ينصل ما اجملهُ فانتبه انهُ لا يجوز ذكر الامام علي هناك فاكتفى بما قالهُ

ونهض عبد الله فقال « بورك فيك يا بلال » فاقصص علينا الخبر اذا امر الامير.

فقال عمرو « اقصصهُ »

فقصهُ من اولهِ الى آخرهِ

الفصل الرابع عشر والماية

﴿ الطلاق والزواج ﴾

فاثنى الجميع على شهامته وخصوصاً خولة . وتذكرت ان والدها كان ناقماً عليها من اجله فاغتنمت تلك الفرصة لاكتساب رضاه عنها فقالت « يا بلال تقدم باذن الامير وقبّل يدي سيدك » واشارت الى والدها . فتقدم بلال للحال وقبل يده فاثنى عليه فعاد الى موقعه . وكان الحديث قد انقضى ولم يبق غير الانصراف

فوقف عبد الله والتفت الى عمرو وقال « اشهد ايها الامير ان امرأتي هذه طالق مني ثلاثاً » واشار الى خولة

فانتبه سعيد لما كان سمعه منه فتحقق انه كان معقوداً له عليها . فعلته الدهشة ولحظ عمرو فيه ذلك فقال « طب نفساً ياسعيد ان خولة لا تزال بكراً وانما طلقها عبدالله صورةً كما تزوجها صورة » والتفت الى ابي خولة وقال له « اني اخطب خولة منك لسعيد »

فقال ابو خولة « هي جاريتك يا مولاي فافعل بها ما تشاء »

فخجلت خولة لتلك المفاوضة بين يديها واطرقت

وامر عمرو فكتب الكتاب في الحال وهنأهما بذلك القران وامر لبلال بالمال الذي وعده به وانصرف الجميع الى بيت خولة بعد ان ودعوا عمراً وشكروا صنيعه

وبعد ايامٍ استاذن عبد الله سعيداً في الذهاب الى مكة للقيام مع اهله وتدبير تركة جده فاذن له بالرغم عنه . فانصرف وودع خولة ووالدها والامير عمراً وسار الى مكة واقترن هناك بابنة عم له وعاشوا جميعاً عيشاً لا يشوبه من الغصص الا الافتكار بقتل الامام علي . وزاد تنغيصهم ما سمعوه بعد ذلك من تنازل الحسن بن عليٍ عن الخلافة لمعاوية بن ابي سفيان . فخرجت الخلافة من اهل البيت وصارت الى بني امية . وانما فعل الحسن ذلك حجباً للدماء ولم يتولَّ الخلافة الا ستة اشهر فانتقل كرسيها من الكوفة الى دمشق وما زال فيها الى انقضاء دولة بني امية

﴿ تمت الرواية ﴾

﴿ روايات تاريخية اخرى تأليف مؤلف هذه الرواية ﴾

(١) ﴿ فتاة غسان ﴾ هي الحلقة الاولى من سلسلة روايات تاريخ الاسلام تشرح حال العرب في آخر جاهليتهم واول اسلامهم مع ذكر عوائدهم واخلاقهم الى فتوح الشام والعراق وهي جزآن ثمن كل جزء عشرة غروش والبوسطة غرش ونصف

(٢) ﴿ ارمانوسة المصرية ﴾ (طبعة ثانية) هي الحلقة الثانية من سلسلة روايات تاريخ الاسلام تاريخية غرامية تشرح حال مصر لما فتحها المسلمون سنة ١٨ للهجرة مع عوائد اهلها واخلاقهم وازيائهم . ثمنها عشرة غروش واجرة البوسطة غرشان

(٣) ﴿ عذراء قريش ﴾ هي الحلقة الثالثة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام وهي تاريخية غرامية تتضمن مقتل الخليفة عثمان و وقائع الجمل وصفين والتحكيم والخوارج الى مقتل محمد بن ابي بكر ثمنها عشرة غروش واجرة البوسطة غرش ونصف

(٤) ﴿ ١٧ رمضان ﴾ او الحلقة الرابعة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام وهي تاريخية غرامية تتضمن مقتل الامام علي وتفصيل امر الخوارج وخروج الخلافة الى بني امية ثمنها عشرة غروش واجرة البوسطة ستون باره

(٥) ﴿ المملوك الشارد ﴾ (طبعة ثانية) رواية تاريخية ادبية تتضمن حوادث مصر وسوريا في زمن المغفور له محمد علي باشا والامير بشير الشهابي ثمنها ٨ غروش واجرة البوسطة غرش ونصف

(٦) ﴿ اسير المتمهدي ﴾ رواية تاريخية غرامية تتضمن حوادث عرابي والمهدي وحادثة سنة ١٨٦٠ في دمشق . ثمنها ١٠ غروش صاغ واجرة البريد غرشان (طبعة ثانية تحت الطبع)

(٧) ﴿ استبداد المماليك ﴾ (طبعة ثانية) رواية تاريخية تتضمن حوادث آخر القرن الثامن عشر ثمنها ٨ غروش واجرة البوسطة غرش واحد

(٨) ﴿ جهاد المحبين ﴾ رواية ادبية غرامية ثمنها ٦ غروش صاغ واجرة البوسطة غرش ونصف

---

(٩) ﴿ تاريخ مصر الحديث ﴾ من الفتح الاسلامي الى هذه الايام مع ملخص تاريخها القديم وهو جزآن كبيران فيه مائة رسم واربع خارطات ثمنه ٤٠ غرشا صاغا واجرة البوسطة ٥ غروش

(١٠) ﴿ تاريخ الماسونية العام ﴾ منذ نشاتها الى هذه الايام ثمنه ٢٠ غرشا صاغا واجرة البوسطة غرشان

(١١) ﴿ التاريخ العام ﴾ الجزء الاول يتضمن تاريخ ممالك اسيا وافريقيا وخصوصا مصر ثمنه ٨ غروش صاغ واجرة البوسطة غرش واحد

(١٢) ﴿ الفلسفة اللغوية ﴾ فيها بحث تحليلي للالفاظ العربية ثمنها عشرة غروش واجرة البوسطة غرش واحد

(١٣) ﴿ جغرافية مصر ﴾ (طبعة ثانية) تتضمن جغرافية المديريات والمحافظات وخصوصا القاهرة ثمنها وحدها ٣ غروش ومع الخارطة ٥

(١٤) ﴿ رد ورد ﴾ ردا على انتقاد تاريخ مصر الحديث ثمنه غرش واحد

(١٥) ﴿ ملخص تاريخ اليونان والرومان ﴾ مزين بالرسوم ثمنه ٣ غروش والبوسطة عشرون باره

(١٦) ﴿ تاريخ انكلترا ﴾ هو ملخص ينتهي الى آخر الدولة اليوركية سنة ١٤٨٥ وفيه رسوم واشكال ثمنه ٤ غروش والبوسطة غرش

﴿ روايات الهلال وبعض مطبوعات مطبعة الهلال ﴾

(١) ﴿ اكتفاء القنوع ﴾ بما هو مطبوع من الكتب العربية من اول عهد الطباعة الى الآن تأليف ادوارد فانديك عدد صفحاته سبعمائة صفحة وثمنه خمسون غرشا واجرة البوسطة خمسة غروش

(٢) ﴿ استراتونيكي ﴾ (تأليف صموئيل افندي يني وهي الرواية الاولى من روايات الهلال غرامية تاريخية حصلت حوادثها في زمن خلفاء الاسكندر المكدوني ثمنها خمسة غروش واجرة البوسطة غرش

(٣) ﴿ لصوص فيلادلفيا ﴾ هي الرواية الثانية من روايات الهلال تعريب ادارة الهلال . جزءان ثمن الجزء الواحد خمسة غروش واجرة البوسطة غرش

(٤) ﴿ الالمام فيمن بارض الحبشة من ملوك الاسلام ﴾ للمقريزي ثمنه ٤ غروش واجرة البوسطة نصف غرش

(٥) ﴿ انتصار المحبين ﴾ رواية غرامية ادبية ليوسف افندي زيدان ثمنها ٥ غروش والبوسطة غرش

(٦) ﴿ التقويم العام ﴾ لخمسة آلاف عام تستخرج به اي يوم اردته بالتواريخ الهجرية والافرنجية والرومية والعبرية والقبطية من الميلاد الى خمسة آلاف سنة بعده وقد طبع منه ثلاث طبعات عربية وانكليزية وفرنساوية وثمن النسخة من كل طبعة ٣٥ غرشاً (اصلها خمسون غرشاً) والبوسطة ٥ غروش

(٧) ﴿ الثورة العرابية ﴾ هي رواية تشخيصية تبسط الحوادث العرابية المشهورة وتبين حركات العرابيين واحوالهم في اثناء ذلك تأليف محمد افندي البارودي ثمن النسخة ٥ غروش واجرة البوسطة غرش

(٨) ﴿ قطائف اللطائف ﴾ كتاب مجموع نوادر ونكت ادبية واقاصيص فكاهية هو جزءان ثمن الجزء ٨ غروش واجرة البوسطة ستون باره

(٩) ﴿ قلادة العقيق لجند الغراماطيق ﴾ تعليم مبادىء اللغة الفرنساوية تاليف انطون افندي فارس ثمن النسخة ٤ غروش واجرة البوسطة عشرون باره

(١٠) ﴿ نوادر الكرام ﴾ هو مجموع نوادر الكرماء في الجاهلية والاسلام وما رافق ذلك من الفكاهة والملح تأليف ابراهيم افندي زيدان ثمن النسخة خمسة غروش واجرة البوسطة غرش

(١١) ﴿ الطريقة المبتكرة ﴾ هو كتاب مدرسي لتعليم القراءة العربية تاليف ابراهيم افندي زيدان صدر منه ٣ اجزاء ثمن الجزء الاول منها ٢٠ باره صاغاً والثاني غرش صاغ والثالث غرشان صاغاً يضاف اليها اجرة البريد

(١٢) ﴿ ايام بمباي الاخيرة ﴾ رواية تاريخية ادبية غرامية تشرح كيفية انخساف مدينة بمباي بسبب هياج بركان فيزوف بايطاليا في القرن الاول للميلاد تاليف اللورد لتن وتعريب السيدة مريم عطيه ثمنها عشرة غروش واجرة البوسطة غرشان

(١٣) ﴿ حرب آل عثمان ﴾ رواية تشخيصية تمثل حرب اليونان الاخيرة مع الدولة العلية تأليف نقولا افندي الياس ثمن النسخة ٣ غروش واجر البوسطة عشرون باره